
رواية
أرض الجُنان
تأليف:
سارة بدور عكام

رواية: أرض الجنان

تأليف: سارة عكّام

إعداد وتنسيق وتدقيق لغويّ: سارة عكّام

تصميم الغلاف: سارة عكّام

نبذة عن الكاتبة:

سارة عكّام، كاتبة سوريّة من مدينة حلب الشّهباء، مواليد 2001

بدأت رحلتها في عالم السّرد الأدبيّ بروايتها الأولى:

"توءد الشّمس ويُنشز النّور"

وتواصل شغفها بالكتابة في عملها الرّوائيّ الثّاني: "أرض الجنان"

حقوق النّشر والتّداول:

جميع الحقوق الفكريّة والأدبيّة والفنّيّة (بما في ذلك النّصّ وتصميم الغلاف) محفوظة للمؤلّفة © 2026

يُسمح بتداول هذه النّسخة الإلكترونيّة ومشاركتها ونشرها في المنصّات والمواقع الثّقافية لتعميم الفائدة، بشرط الالتزام بالأمانة الأدبيّة؛ بحيث يُنسب العمل لصاحبته، ويُمنع منعًا باتًّا حذف اسم المؤلّفة، أو التّعديل على محتوى الرّواية أو غلافها، أو استغلالها لأغراضٍ تجاريّة وبيعها دون إذنٍ مسبقٍ منها.

للتّواصل مع الكاتبة:

https://www.instagram.com/sarah_akkam/

"إهداء"

إلى الأرواح الطّاهرة الّتي عرجت في معارج الجهاد والإيمان، إلى الّذين طواهم غدر المنايا، وخطّت عليهم الأقدار شقاءً مرًّا في دار الفناء، إلى القابضين على جمر الحقّ، والّذين تواصوا بالصّبر في عواصف الابتلاء.

إلى كلّ جسدٍ وسّد الصّقيع غربته، ولم يدفأ يومًا بدثار حضنٍ ملهوف، إلى القلوب الظّامئة الّتي تجرّعت مرارة الحرمانِ عوضاً عن عذوبةِ الحبّ.

أبثّكم خيالي هذا، عساهُ يكون وطنًا يلمّ شتات غربتكم، وملاذاً يُؤوي أرواحكم المنهكة ولو لبضعِ ساعات.

وتذكّروا دائمًا . . .

أنّ هذه الدّنيا سرابٌ مؤجّل، وأنّ في محكمة السّماء ستكتمل الأنفسُ بعد نقصانها، وهناك، سنقتلع رياض الجنّةِ من براثنِ الطّغاة.

وإلى أن يأذن الفجرُ بالبزوغ، أبتهل إلى المولى أن يربطَ على أفئدتكم، ويدثّركم برحماتٍ منه تُعينكم على إتمامِ هذا الامتحان المرير.

"لبّيك إنّ العيش عيش الآخرة"

سارة عكّام

«هل يلتهمك اغترابُ الرّوح؟

إذن... ثمّة قيودٌ تكبّل مداك»

«هات يدك. . . وأسبل جفنيك.

سأمضي بك في سياحةٍ مجّانيّة. . .

إلى ملكوتي»

«اخلع نعليك . . فأنت في وادي خيالي المقدّس»

«املأ رئتيك باليقين، وتأهّب جيّدًا، فأنت الآن
تبحر على متن أفكاري، تجولُ ملء الحرّية...
في عالمٍ شيّدته، حرفًا... حرفًا»

لم يكن في هذه الحياة ما يدفعني للاستمرار.

كنت أقولها كلّ مساء، لا بصوتٍ مسموع، بل كمن يهمس لنفسه في قاع بئر: _لا شيء... حقًّا لا شيء.

لم أكن أكره الحياة، لكنّني لم أجد فيها سببًا مقنعًا للبقاء طويلًا.

بيتُ جدّي كان واسعًا كشيخوخته، باردًا كالأسرار الّتي يدفنها في صدره، خاليًا من الصّور، كأنّ الجدران تعمّدت أن تنسى الوجوه الّتي عبرتها.

لم أعرف لوالديّ شكلًا، ولا علّقتُ لهما ذكرى على مسمار، كأنهما مرّا في حياتي مرور حلمٍ سريع ونسي الكون أن يترك لي دليلًا على أنهما وُجدا حقًّا.

كنت أعيش مع رجلٍ يتقن الصّمت أكثر ممّا يتقن الكلام، يحبّ لوحته العتيقة أكثر مما يحبّ البشر، ويحذّرني منها كما يُحذَّر الأطفال من النار.

لا تلمسيها،

ولا تنظّفيها،

ولا تقتربي منها كثيرًا.

كان يقولها دون تفسير، كأنّ اللّوحة لا تحمل صورة، بل تحمل خطيئة.

في تلك اللّيلة، كنت أقف أمام المرآة كعادتي، لا لأتجمّل، بل لأتأكّد أنني ما زلت هنا.

حدّقت في انعكاسي طويلًا، فبدت عيناي غريبتين عن وجهي، كأنّني أرى فتاةً أخرى، تستعدّ لعبور شيءٍ لا تعرف اسمه بعد.

وحين انزلق بصري خلف صورتي، رأيت ما لم أره من قبل...

ثقبًا صغيرًا، خفيًّا، يتنفّس من خلف إطار اللوحة.

تقدّمت خطوة، ثم خطوة أخرى، كان قلبي يخفق كأنّه يطرق بابًا قديمًا في صدري، ويدي ترتجف وهي تزيح الغبار عن الخشب المتهالك.

تذكّرت تحذير جدّي، وتذكّرت وحدتي،

فاخترت أن أعصي الأوّل، لأنجو من الثانية.

أغلقت الباب بإحكام، التقطت هاتفي من على السّرير، وحملت اللوحة كما يحمل المرء شاهد قبرٍ خفيفًا، ثم دفعت يدي داخل الثقب ...

لم يكن ثقبًا، كان فمًا مظلمًا يبتلع الضوء.

زحفت داخله كخنفساء،

ساعةً كاملة، والزّمن من حولي ينسلخ عن شكله المألوف.

كنت أظن أنّني أمشي، لكنّني في الحقيقة كنت أغادر.

وحين انتهى الظلام فجأة، سقطتُ في عالمٍ لم تبلغه أساطير الأوّلين، ولم تره عينٌ في يقظةٍ ولا منام.

شلّالٌ من ياقوت يقفز من سماءٍ زرقاء كقلب طفلٍ مكسور، غيومٌ ترقص على ألحان موجٍ غافٍ بين أحضان شجرٍ عتيق يشبه الآباء الّذين يعرفون كلَّ شيء ولا يقولون شيئًا.

على بعد خمسة أقدام بحيرةٌ من لؤلؤ،

مددتُ يدي إليها، فأمسكتني يدٌ خفيّة قبل أن يبتلعني بياضها.

_إيّاكِ... هذا اللّؤلؤ مسموم، سيقودك إلى الجنون ولن تُبصري كنوز هذا المكان إن فعلتِ.

التفتُّ مذعورة...

_هل أنا يقظة... أم أنّني أحلم؟

كيف ليمامةٍ أن تنطق؟

وكيف للأشجار أن تغنّي؟

وكيف للغيوم أن تُنذرني بقرب هلاكي؟

قالت سحابةٌ مرّت فوق رأسي بصوتٍ لا يحتمل التأجيل:

_لا تُضيّعي الوقت بالثرثرة.

بعد ثلاثين يومًا سيُغلق بابُ أرض الجِنان، ولن يُفتح ثانية، فتظلّين حبيسة هذا العالم إلى الأبد.

ثمّ أضافت، كمن يلقي قانونًا لا يقبل النّقض:

_اعلمي أنّ الزّمن هنا لا يسير كما يسير عند البشر، فكلّ يومٍ في أرض الجِنان يعادل ثلاثة أيّامٍ في عالمك.

عندها فقط، أدركتُ أنني لم أدخل مكانًا، بل دخلتُ قدَري.

رأيتُ الرسومات ذات الأجنحة الطائرة، تحلّق كأمنياتٍ لم تجد أصحابها.

_إلى أين تذهب هذه اللّوحات؟

_إلى البشر، لتعويض نواقصهم.

تقدّمت نحو لوحةٍ بعينين تشبهان عينيّ، وهمست: _وهذه... تشبهني؟!

ابتسم الصّوت بحنوٍّ لا أعرف مصدره:

_رُسمَت لأجلك، تعويضًا عن حرمانك من والديك.

ارتجف قلبي دون أن أفهم لماذا.

_تبقّى تسعةٌ وعشرون يومًا، يا حلوتي.

ثم قلت بهدوءٍ أثقل من الغيوم: _قدَر، اسمي قدر، ولا أحبّ الألقاب.

سألتها وأنا أراقب كسوف الشّمس البعيد:

_ماذا يوجد هناك خلف كسوف الشّمس؟

صمتت لحظة، ثم قالت بصوتٍ يشبه سقوط حكمٍ قديم:

_هناك خلف جبين الشّمس... نُفيت كتبُ جدّك.

لم تجرؤ قدر على السّؤال فورًا...

قالت أخيرًا، بصوتٍ حاولت أن تجعله ثابتًا: _ما هذه البوّابات؟

تحدثت قَدَر وهي تشير إلى فضاءٍ واسع امتلأ ببوّابات تتضاعف، لا تنتهي.

_هذه ليست بوّابات... هذه نهايات.

يزداد عددهم عندما تموت آمال البشر فيصنع لهم بابا للأمل في الجنان.

"مكتبة الرّيان"

اقتربت قدر من أقرب رفّ، فرأت كتبًا بلا عناوين، وأخرى بعناوين مطموسة، وثالثة تنبض صفحاتها كأن بداخلها قلوبًا حيّة.

_كل كتابٍ هنا يحمل حكاية كُتبت في عالمك، يا قدر، ثم نُفيت إلى أرض الجِنان لأنّ نهايتها خرجت عن ميزان الرحمة.

_وماذا يحدث لو لمسها بشر؟

تلعثمت غسق وانتفض البرق من أطرافها فتغيّر صوتها قليلًا:

_الجنون، أو الموت، أو أن تتحقق الحكاية كما كُتبت دون رحمةٍ ولا فرصة للتّراجع.

تذكّرت قدر كلماتها الأولى: _لن تُبصري كنوز هذا المكان إن فعلتِ.

سألتها ببطء: _ولماذا... لم يحدث لي شيء؟

. نظرت إليها طويلًا، كما يُنظر إلى سرٍّ لم يُحسم أمر كشفه بعد.

ثمّ قالت: _لأن الكتب هنا لا ترى فيكِ بشرًا.

_ماذا تراني إذن؟

اقتربت منّي، رفعت يدها، وأشارت إلى عنقي.

_ترَين هذه العلامة؟

_لم أكن أعرف بوجودها من قبل.

دفءٌ خفيف كان ينبض تحت جلدي.

_"علامة العنقاء"

قالتها همسًا، وأردفت:

_لا تظهر إلّا على من كُتب لهم أن يُعيدوا كتابة ما فسد من المصائر.

تساءلت قدَر وقد بدأ الفضول يجذبها للمعرفة أكثر:

_ومن كتب مصيري؟

_جدّك.

ساد الصّمت...

شعرتُ كأنّ اسمَه سقط حجرًا في هذا العالم.

_جدّي... كتبني؟

_"لم يكتبكِ" قالت بدقّة: بل كتب الطّريق الّذي ستسيرين فيه.

_وهذه الكتب... لماذا نُفيت؟

أشارت إلى أبعد رفٍّ في القاعة.

_لأنّ بعضها لم يقتل شخصًا واحدًا فقط، بل قتل زمنًا كاملًا.

هناك، في نهاية الرفوف، رأت قدَر بابًا أبيضًا لا يشبه بقية الأبواب، كان بلا مقبض، وبلا قفل، وعليه نقشٌ نصف شمس.

سألتُها بصوتٍ خافت: _ما هذا؟

تأخّرت قبل أن تجيب: _هذا... مدخل الكتب الّتي لا تحمل أسماء.

والكتاب الذي أخذ والديكِ...

لم أتفوّه بعد، أجابتني نيابةً عني:

_سنعرف ما يجب معرفته في الوقت المقدّر يا قدَر.

سألتها وأنا أشعر أنّ الأرض تميد تحت قدمي:

_وكيف أعثر على كتابٍ لا يحمل عنوانًا ولا اسمًا، ولا حرفًا يدلّ عليه؟

وبينما رفعت رأسي نحو سقف القاعة حيث كانت الشّمس المكسوفة تبعث نصف ضوءٍ ونصف ظلّ، وأنتظر من غسق الرّدّ...

_لم تُستدعَ أيّ فتاةٍ غيركِ يا قدَر، ولكِ من اسمكِ نصيب.

ثم قالت الجملة التي ستغيّر كل شيء:

_لأنّ الكتاب الذي تبحثين عنه، لن يدلّكِ عليه حبر... بل دم.

"مملكة الجِنان"

(العرش الذي انتظر صاحبتَه)

في أعلى طبقات السّماء، حيث تتكاثف السحب حتى تصير أرضًا، كانت هناك مملكةٌ لم تُبنَ على حجرٍ ولا على ذهب، بل على أجنحة الغيوم.

مملكةٌ معلّقة على أطراف السماء، قصورها من ضوءٍ مُمَوَّه، جدرانها من بخارٍ مشدود، وأعمدتها من رياحٍ متصلّبة تطيع قانونًا لا يعرفه إلا الخلق الأوّلون، في داخلها عرشٌ لم يجلس عليه أحد قط.

لم يُصنع لملكٍ، ولا لسلالةٍ قديمة، بل صُنع لذلك اليوم...

يوم تدخل فيه المنشودة أرض الجِنان.
كانت غَسَق تشُقّ الفضاء بجسدها السّحابيّ، تحمل الخبر كما تُحمل الأقدار الثقيلة.

دخلت قاعة العرش حيث كانت اليمامات العظام تتوسّد أجنحتها في صمتٍ مهيب.

قالت، بصوتٍ لم يجرؤ على الارتفاع: _لم أجرؤ على سؤالها كثيرًا...

سكنت الرياح، انحنت الغيوم، حتى الضّوء توقّف لحظة عن الانبعاث.

ثمّ تابعت: _لكن اسمها... كان قَدَر.

في تلك اللّحظة، ارتجف العرش لأوّل مرة منذ خُلِق، وسقطت من سقف القاعة ريشةٌ واحدة، بيضاء، كأنها توقيع السماوات على بدء الحكاية.

قال كبير اليمام: _إذن... وصلت صاحبة العرش.

"عودة إلى قَدَر"

(شجرة التين الأولى)

كنتُ قد ابتعدت قليلًا عن الرفوف، هاربةً من ثقل الأسئلة، حتى بلغت شجرة تين تنبت في قلب القاعة كأنّها نُقلت من الفردوس الأعلى!
تسلّقتُ أحد أغصانها، وجلست كما تجلس طفلة هربت من العالم لتفكّر.

قطفتُ ثمرة، كان طعمها أقرب إلى الذّاكرة منه إلى السّكّر.

أكلتُ ببطء، وأنا أستعيد كل ما سمعته: الكتب المطموسة، البوّابات، العلامة على عنقي، الزّمن الذي يركض ضدّي بثلاثة أضعاف.

قلت في سرّي:

_هل يُعقل أن يُبنى عالمٌ كامل لأجل فتاةٍ لم تعرف حتّى لماذا وُلدت؟

نظرتُ إلى يدي، كانت ترتجف، لا خوفًا، بل وعيًا.

لأوّل مرة في حياتي أشعر أنّني لستُ ضائعة، بل مُطاردة من قدرٍ يعرفني أكثر ممّا أعرف نفسي.

نزلتُ عن الغصن، عدتُ نحو قَدَري وإلى الرّفوف التي تنتظر.

(ما وراء الصحف)

_أريد أن أرى أول كتابٍ سألمسه، ساعديني على الاختيار يا غسق...

نظرت إليّ طويلًا، ثمّ قالت:

_إذن... فلنبدأ بالكتاب الذي لم ينجُ أحدٌ من نهايته.

وتقدّمت بي نحو رفٍّ لم تكن عليه كتب كثيرة، بل آثارُ رماد.

سرتُ خلف غَسَق بين رفوفٍ لم تكن رفوفًا، كانت سُدُبًا من نجومٍ مصفوفة، تُمسكها شُهُبٌ لامعة كأنها مساميرُ من نور تثبّت المعرفة في قلب السّماء، كل كتابٍ هناك كان يلمع بقدر ما يُخفي، وكل عنوانٍ كان يوحي بسرٍّ لا يُقال.

توقّفتُ مذهولة، وقلت: _أهذه... مكتبة؟

ابتسمت غَسَق ابتسامةً خفيفة، وقالت:

_بل أرشيف القَدَر، حيث تُحفَظ الحكايات قبل أن تُكتَب على الأرض.

مددتُ يدي بتردّد نحو أحد الرفوف، فقالت غَسَق بسرعة: _تمهّلي.

لا يُفتح شيءٌ هنا إلا بإذنٍ وكلمة.

سألتها: _وأيّ كلمة؟

قالت:_ كلمة الفتح.

وضعتُ كفّي على صدري، وشعرتُ أن شيئًا في داخلي يعرف الطريق قبل عقلي.

نطقتُ همسًا: _أنارا... سومانارا.

ما إن خرج الصوت من شفتي حتى ارتجفت الشهب المثبّتة في الرفوف، وتراخت كما تتراخى الأوتار بعد لمسةٍ خفيّة، وانشقّ الهواء بين النجوم، فانبثق منه نجمٌ صغير ذو جناحين دقيقين من نورٍ فضيّ.

وقف أمامي، وقال بصوتٍ يشبه رنين البلّور:

_أنا سيريوس، حارس الاختيار.

ثم نظر في عينيّ طويلًا، وقال: _أيّ الكتب أجلب إليكِ؟

جُلتُ بنظري بين العناوين، حتى توقّف قلبي قبل بصري.

هناك... في زاويةٍ قصيّة من الرفّ، كتابٌ أطرافه متآكلة، لكنّه كان يشعّ نورًا بنفسجيًا تحيط به هالةٌ تومض كنبضٍ مستيقظ.

أشرتُ إليه دون وعي، فخفض سيريوس جناحيه، وقال:

_حسنًا... لكن اعلمي: هذا الكتاب ناقص.

ثم اقترب، وقال بجدّ:

_إن اخترتِ لمسَه، فسيُطلب منكِ أن تكشفي الحقيقة كاملة.

وإن فشلتِ... فإن الجزاء سيكون على قدر المعرفة التي طلبتِها.

التفتُّ إلى غَسَق وقلت بارتجاف:

_وكيف أكشف حقيقة كتابٍ مجهول لا أعرف صاحبه ولا قصته؟

فقالت غَسَق بهدوءٍ عميق:

_اتّبعي حدسك، فإن من قصد الحقّ لا يُخذل، ومن طلب النور هداه الله إليه.

ثم نظرت إليّ نظرةً ذات معنى، وقالت:

_ولم تُدعَي إلى هنا عبثًا، فأنتِ... المنشودة.

مددتُ يدي نحو الغلاف المتآكل، وقبل أن تمسّه أصابعي... سكن كلّ شيء، حتى النجوم حبست أنفاسها.

مددتُ يدي نحو الغلاف المتآكل، وما إن لامست أناملي حافته حتى اندلع في عروقي برقٌ خفيّ، سرى كالسهم في دمي، واجتاح جسدي من أطراف أصابعي حتى أخمص قدميّ.

ارتجفت، ثم اختلّ توازني، وتكسّرت الأصوات من حولي كأن الكون انكسر فجأة في رأسي.

شعرتُ أن شيئًا غريبًا يستولي على خلايا عقلي، كأن آلاف الأبواب تُفتح دفعةً واحدة، ولا يملك عقلي مفاتيحها.

سقطت وغاب الضوء، لم أمت، لكنني لم أكن هنا.

رأيتُ فتاة في الثامنة عشرة من عمرها، حنطية اللون، كأن الشمس تركت بعض دفئها في بشرتها، شعرها أسود كسواد ليلٍ قُتلت فيه كلّ النجوم، ينساب طويلًا حتى أسفل خصرها كما تنساب أزهار الياسمين من على أغصانٍ مثقلة بالعطر.

كانت تجلس وحدها في قلب ازدحام الطرقات، تحيط بها الأجساد، ويغمرها الضجيج، لكنها كانت أبعد عنهم جميعًا من بُعد السماء عن الأرض.

رفعت بصرها نحو الفضاء، وتمتمت بلسان قلبها:

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾

ثم ابتسمت ابتسامة خفيفة، وحمدت الله على نعمة الرؤية، لتُبصر آياته في خلقه ولو مرّةً أخرى.

قامت، وسارت حتى شجرة زيتونٍ عتيقة على طرف الطريق، جلست تحتها، ومسحت جذعها بكفّها كمن يربّت على صدر أمّ.

وهمست: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾...

ثم قالت في سرّها: لم يُقسِم الله بشيءٍ عبثًا، ولا رفع شجرةً إلا وجعل لها رسالة.

وأنا... ما رسالتي؟

أنا لا أزال أفتّش عن سبب وجودي في هذا الكون.

كانت ترتدي فستانًا سماويًّا طويلًا، بأكمامٍ عريضة، وحزامٍ أبيض يشدّ خصرها، ياقته متعددة الطبقات كريش طاووسٍ يفرد أجنحته للسماء.

في عنقها قلادة على هيئة أجنحة العنقاء، وشاماتٌ صغيرة تستوطن جسدها كخرائط سرّية، أوضحها تلك التي على خدّها الأيمن، وأخرى على كفّها الأيسر، كأن القدر ختمها بهما منذ الطفولة.

أرخى الليل ستاره على شرفة السماء، وانبثق القمر في كبدها هادئًا.

كانت تراه يتدحرج على أطراف المدينة كلّما مشت، يتبعها كما كان يفعل منذ صغرها، ورغم أنها كبرت وعرفت أن القمر لا يتبع أحدًا، إلا أنها كانت تتشبّث بتلك الفكرة الطفولية لتؤنس وحدتها.

لكن الأوهام لا تصمد طويلًا.

سرعان ما عادت إلى واقعٍ لا يشبهها، ولا تنتمي إليه، كمنفيّةٍ في عالم خالٍ من الوجوه المألوفة.

دخلت بيت الجدّ استقبلها رجلٌ بلغ الشيب أشدّه في رأسه، لكن عمره لم يتجاوز الخمسين..

طويل القامة، رياضيّ البنية، أسمر البشرة، بعينين عسليّتين تسكنهما شمسٌ هادئة...

تلك النقطة المشتركة بينه وبين حفيدته.

قال مبتسمًا: _شمسي... ها قد عدتِ، لِمَ تأخّرتِ؟

ارتسم ضيقٌ خفيف في عينيها، وقالت: _جدّي... أما تعبتَ من الألقاب؟

ضحك وربت على كتفها: _سامحيني... لكن هذا اللقب لا أهبُه إلا لكِ.

كانت تكره الألقاب جميعها، وتأنف أن يُنادى اسمها بغير «قَدَر»، لكنها كانت تستثني هذا اللقب وحده، لأنها لا تريد أن تُمنح تلك الصلاحية لأحدٍ سواه.

جلسا معًا على تلك الأريكة الرثّة التي كانت رغم قِدمها أكثر مقاعد البيت دفئًا، وسط الأثاث العثماني الذي يملأ المكان كذكرياتٍ ثقيلة.

قالت بلهفة طفلة: _هيا يا جدّي ابدأ القراءة.

وضعت رأسها على كتفه، وتوسّدت حنانًا لم تذقه قط.

داعب خصل شعرها المتموّجة كأمواج شلالٍ مضطرب، وبدأ يقرأ.

كانت تُصغي ثم تُغلق عينيها ببطء، لا لأن النوم غلبها، بل لأنها كانت

تتعمّد تزييف النوم، لتدع له فرصة أن يحملها كما يحمل الفراشة، إلى شرنقتها.

كانت لا تزال طفلة تتعطّش للاهتمام، وتتظاهر بالنوم لتُمنح ما حرمت منه في اليقظة.

وحين انتهى من القراءة، وجدها ساكنة الأنفاس.

ابتسم، وحملها بين ذراعيه كما تحمل الطيور صغارها إلى أعشاشها، وصعد بها إلى غرفتها، ووضعها في سريرها برفق، ثم قبّل جبينها وهمس:

_لو تعلمين يا قَدَر كم أخاف أن أخسركِ بسبب خطأٍ قديم اقترفته بإرادتي...

كانت تفتح عينيها قليلًا بعد خروجه، وتبتسم في الظلام. لم تكن وحيدة يومًا برفقته، لكن شوقها لوالديها أعماها طويلًا عن رؤية الحبّ العظيم الذي كانت تتلقّاه كلّ يوم.

وهكذا هم البشر...

يفتشون عن أشياء مستحيلة، فينسى الواحد منهم النِّعم التي بين يديه، حتى إذا فقدها عرف أنها كانت كلّ ما يحتاج.

وهنا استيقظتُ من الغيبوبة والدموع تنساب على وجنتيّ كلؤلؤٍ مكنون. لأنني أدركتُ الآن: أنني لم أكن أرى فتاةً غريبة، كنتُ أرى... نفسي.

وقبل أن يُفتح الكتاب، كان عليّ أن أفتح حكايتي أولًا.

"العرش"

حين فتحتُ عينيّ لم أجد سقف غرفتي، ولا جدران بيت جدّي، ولا ضوء المصباح الذي اعتدت أن يوقظني كل صباح.

وجدتُ سماءً أقرب من أن تُسمّى سماء، كأنها انحنت قليلًا لتتأكّد أنني ما زلت حيّة.

كنتُ ممدّدة على بساطٍ من غيومٍ وادعة، تتنفّس تحتي كما يتنفّس صدر أمٍّ نائمة، وهواءٌ رقيق يمسح وجهي برفق ككفٍّ يعرفني منذ زمنٍ بعيد.

تحسّست صدري قلبي كان ينبض لكن بإيقاعٍ مختلف كأن الزمن هنا يتنفّس بطريقةٍ أخرى.

جلستُ ببطء، فرأيتُ الأفق ممتدًّا بلا نهاية، وأشجارًا لا تشبه أشجار الأرض، سيقانها من ضوءٍ خافت، وأوراقها كقطع زمردٍ شفافة يخترقها النور كما يخترق الدعاءُ القلوب.

سمعتُ صوتًا خلفي، هادئًا كالمساء: _أخيرًا... استيقظتِ.

التفتُّ فزعةً، كانت غَسَق.

لم تعد غيمةً كما عرفتها أوّل مرّة، بل امرأةً من نورٍ وسحاب،

ملامحها رقيقة كضباب الفجر، وشَعرها فضيٌّ ينساب على كتفيها كخيوط مطرٍ هادئ.

قالت مبتسمة: _لا تخافي الغيبوبة كانت ضرورية.

_ضرورية... لماذا؟.

_لأن بعض الأبواب لا تُفتح إلا بعد أن يتعرف الإنسان على نفسه أولًا.

_كم من الوقت انفرط من عقد الزّمن؟

_انقضت من ساعات عالمكِ تسع، وما لبثتِ هنا إلّا ثلثها ريثما تستقرّ الرّوح.

_أتسع ساعاتٍ مضت هناك وأنا هنا غارقةٌ في سباتي؟

_لم تكوني نائمة، كنتِ تعودين إلى جوهر وجودكِ.

نهضت، فسرت معها، كانت الأرض تحت قدمي ليست أرضًا تمامًا، بل طبقاتٍ من ضوءٍ وسحاب، تتكوّر وتنبسط بحسب خطاي.

قلت: _غَسَق... إلى أين تأخذينني؟

نظرت إليّ نظرةً طويلة، كأنّها تفحص وجهي للمرّة الأولى، ثمّ قالت:

_إلى العرش المنتظر الّذي صُنع لأجل القدَر.

سرتُ خلفها بين ممرّات من الغيم، تفتح وتنغلق كأجنحةٍ عملاقة، حتى بدأ الأفق يتبدّل، لم تعد السّماء وحدها، بدأ يظهر في البعيد شيءٌ يشبه المدينة...

لكنّها لم تكن قائمة على أرض، كانت معلّقة.

مملكةٌ كاملة تتدلّى من أطراف السّماء، قصورها من سحابٍ متكاثف، وأبراجها من نورٍ صافٍ، وسقوفها كصفائح فضّة تعكس زرقة الأبد.

توقّفتُ مذهولة: _ما هذا؟

قالت غَسَق بصوتٍ خافت: _مملكة الجِنان.

_وهل... يسكنها بشر؟

_لا يسكنها إلا من أُذن له أن يشهد المصير.

كلّما اقتربنا، شعرتُ أن الهواء يثقل، وأن قلبي يبطئ نبضه كمن يستعدّ للدخول إلى مصيرٍ مجهول.

رأيتُ في أطراف المملكة جسورًا من ضوء، تمتد من سحابةٍ إلى سحابة، وحول القصر الأعلى هالاتٍ من نورٍ دائري تدور بانتظامٍ مهيب.

قلت هامسة: _ولماذا أنا؟

لم تُجب.

دخلنا بوابةً لم تكن بابًا، بل ستارًا من ألماسٍ أزرق انشقّ لنا ببطء.

في الدّاخل كان الصّمت أعمق من أي صمتٍ عرفته، حتّى خيّل لي أنّ قعقعة خطاي ترتدّ عن الجدران كأنّها غريبٌ يطوف في أرجاء القاعة!

ممرّات واسعة، أعمدة من مرجانٍ متحجّر، وسقوف عالية، كأنّها أقرب إلى السّماء من الأرض.

كنت أشعر أنّ كلّ خطوة أخطوها تُسجَّل في كتابٍ خفيّ.

قلت بدهشة: _غَسَق... هل أخطأت حين دخلت هذا العالم؟

توقّفت فجأة، نظرت إليّ بجدٍّ لم أره في عينيها من قبل قائلةً:

_لو كان دخولكِ خطأً، لما فُتحت لكِ الطرق.

سرتُ معها حتى بلغنا بابًا عظيمًا من ذهبٍ عتيق، يتوسّطه رمز الشمس نصف مكتمل.

قالت بهدوء: _خلف هذا الباب قاعة العرش.

_ومن في الدّاخل؟

سكتت لحظة ثم قالت: _من ينتظرونكِ منذ زمن.

وضعت يدها على صدري وأردفت:

_لا تخافي، تذكّري فقط أن الله لا يختار عبدًا لعبءٍ إلا وهو يعلم أنه قادرٌ عليه.

ثم دفعت الباب وانشقّ النور.

وانشقّ الباب، لا بصوتٍ، ولا بحركةٍ، بل كما ينشقّ اللّيل عن الفجر حين يأذن الله للضّوء أن يولد.

خطوتُ خطوةً واحدة فتبدّل الهواء كأنني عبرتُ حدًّا بين عالمٍ يُقاس بالخطوات وعالمٍ يُقاس بالمصائر.

كانت القاعة أوسع من أن تُحدّ، سقفها بعيد كأنّه صفحة من السّماء الأولى، وأرضها من بلّورٍ صافٍ يعكس الوجوه كما تعكس القلوب أسرارها، وعلى جانبي الممرّ العظيم، كان اليمام مصطفًّا، ليس صفًّا من طير، بل صفًّا من مهابة، أجسادهم بيضاء كأنّها خُلقت من جوهر اللّؤلؤ، وأعناقهم مطوّقة بأطواق من ياقوتٍ ومرجان، فذكّرتني رؤيتهم دون وعي بقوله تعالى:﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

كنت أسير بينهم وقلبي يكاد يخرج من صدري، وفجأة...

ما إن تجاوزتُ أوّل صفّ حتّى بسطوا أجنحتهم دفعةً واحدة.

أجنحة عظيمة، تمتدّ على أرض القاعة كبساطٍ من نورٍ وبياض، وانحنوا في صمتٍ مهيب تحيّةً لي.

توقّفتُ مذهولة من هيبة المكان.

_غَسَق... ماذا يفعلون؟

همست: _يؤدّون ما أُمروا به.

تابعتُ السّير بين جناحين ممدودين، كأنّني أعبر بين آيتين من آيات الخالق!

وفي صدر القاعة كان العرش...
لكنّه لم يكن من سحاب، ولا من نور، كان من مادةٍ لم أعرف لها اسمًا، أقرب إلى صخرٍ سماويّ يميل لزرقة اللّيل، مشغولٍ بنقوشٍ دقيقة تشبه مدارات الكواكب، وفي قلب ظهره رمز الشمس نصف المكتمل.

كان عرشًا لا يُشبه عروش الملوك، بل يُشبه قدرًا متجسّدًا.

اقتربتُ ببطء... كلّ خطوة كانت أثقل من سابقتها، مددتُ يدي ولمستُ طرف العرش، وفي اللّحظة الّتي فعلتُ فيها...

اهتزّ المكان، تضاعف حجم جسدي فجأة، كأنّ القاعة نفسها تمدّني بما يلائمها.

شعرتُ بشيءٍ ينفجر من عنقي، نورٌ اندلع من علامة العنقاء، صعد إلى كتفيّ، ثمّ انبسط جناحين عظيمين مرصّعين بالألماس الصّافي، كأنّهما خُلِقا من نداءٍ قديم.

أشحت بصري فرأيتُ انعكاسي على أرض البلّور، لم أعد الفتاة الّتي دخلت، على رأسي كان تاج وقار، ليس من ذهب، بل من نقاءٍ مشعّ، كأنّ الهيبة نفسها اتّخذت شكلًا.

شهقتُ!

ما الّذي يحدث لي؟

سمعتُ صوتًا أنثويًا هادئًا عميقًا ينبع من جهة العرش:

_يحدث لكِ ما كُتب لكِ منذ زمن.

التفتُّ فرأيتُ إلى جانب العرش هيكلًا بلوريًّا عظيمًا، كأنه شمس متوهّجة حبسها الزجاج في قلبه، كان الضوء ينبعث منه دافئًا قويًّا، يذكّر بقوله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهّاجًا﴾

قلت مبهورة: _ما هذا؟

تقدّمت امرأة من خلف العرش، لم أعرف عمرها، ولا ملامحها بدقّة، لكن حضورها كان أثقل من المكان.

قالت بهدوء: _هذا... قلب عالم اللّازمان.

_عالم اللّازمان؟

نظرت إليّ نظرةً طويلة، ثم قالت:

_العالم الذي تُحبس فيه الأرواح حين يتوقّف الزمن عندها، لا ميتة ولا حيّة.

ثم أضافت: _ومن هنا تبدأ مهمّتكِ الحقيقية يا قَدَر.

وساد الصّمت كأنّ القاعة كلّها تحبس أنفاسها بانتظار الكلمة التّالية.

لم تُبدِ قدر أيَّ ردّةِ فعل، لم تصرخ، ولم تتراجع، ولم تمتدّ يدُ الدهشة إلى ملامحها، كأنّ عقلها عجز عن ابتكار لغةٍ تصف ما تراه، فآثر الصمت.

عيناها تتنقّلان بين العرش، والبلور، والشمس الناقصة، والأجنحة التي لم تعتد ثقلها بعد، كانت الأحداث تتساقط على رأسها كالسيل إذا اندفع من كسرٍ في السماء، رأت كل العجائب، لكن الحقيقة بدت لها ناقصة، كصورةٍ سُحِب منها آخر لون.

هنا تقدّمت غَسَق وقد أدركت الخطر، قالت برفقٍ منقذ:

_لِمَ لا ندع هذا اليوم يمضي؟

المنشودة مرهقة بلا شك، وقد طافت بين العوالم، ولا بدّ أن الجوع سبق الأسئلة إلى قلبها.

ثم أشارت بيدها إلى الأفق البلّوري:

_واللّيل أرسل إشاراته منذ لحظة، والشّمس آن لها أن ترحل.

كادت ملكة اليمام أن تجيب، لكن قَدَر قاطعت فجأة بصوتٍ هادئ تخفي تحته لهفةً حقيقية قالت: _هناك ما ينهش فضولي...

منذ اللحظة الأولى، رأيتُ كل العجائب، إلا الحقيقة رأيتها ناقصة، فلِمَ؟

تبادلت غسق والملكة نظرةً خفيفة، وقالت مبتسمة:

_أتقصدين الشّمس؟

_نعم لماذا هي نصف مكتملة؟

والقلادة والمجسم والنقوش جميعها نصف مكتملة!

قالت غسق:

_لكِ الحقّ، الشّمس هنا لا تُولد كاملة، وستجدين سرّ اكتمالها حين يحين أوانه.

لم تفهم قَدَر المعنى، تنهدت بصدقٍ طفوليّ بعد أن أدركت أنّ رأسها لم يعد يحتمل سؤالًا إضافيًّا، والتفتت فجأةً بنبرةٍ غلب عليها جوعها قائلةً: _حسنًا، ولكن، ما قِرى غريبٍ جائعٍ في ملكوتكم هذا؟

إن لم ينل جسدي نصيبه من الطّعامِ الآن، فلن يقوى عقلي على التهام المزيد من الحقائق، وأخشى إن طال انتظاري أن يقتات الفضول على ما تبقّى من روحي قبل أن أجد زادًا.

ضحكت غسق ضحكةً خفيفة كسرت هيبة القاعة، وتبعتها ملكة اليمام بابتسامة نادرة.

قالت الملكة: _في الجنان لا يُلام الجائع.

وأضافت بصوتِ وقور، ثمّ أشارت بيدها فانفرج أحد جدران القاعة كأنّه ستار من نور، وانكشفت مائدة لم ترَ قدر مثلها قط، أطباق لا تُحصى، ثمار لا أسماء لها، أنهار صغيرة من عسلٍ ولبن، وألوان كأنها خُلقت قبل أن تُخلق الكلمات.

همست قدر مذهولة: _هذا كثير!

قالت غسق: _ألم تسمعي قوله تعالى؟

ثم تلت بصوتٍ خافت: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

جلست قدر بتردّد، ثمّ مدّت يدها إلى أوّل طبق، تذوّقت لقمة، فتوسّعت عيناها؛ هذا ليس طعامًا!

قالت الملكة مبتسمة: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾.

راحت قدر تأكل بشهيّة من نجا من الغرق، ورفعت رأسها فجأة وقالت:

_بالمناسبة، إن كان هذا عشاء اليوم، فأنا أخشى على نفسي من الغد.

ابتسمت غسق: _ولمَ؟

قالت قدر بنبرة خفيفةٍ حاولت أن تُخفي بها جوعها:

_لأنّني أخشى أن أُفْتَن قبل أن أُهْدَى، وأُشْبَع قبل أن أفهم سرّ هذا العالم.

ضحكت غسق، وانفجر الضّحك هذه المرّة في القاعة، حتّى بعض اليمام حرّك أجنحته بخفة كأنه يبتسم.

وفي تلك اللحظة تذكّرت قدر قوله تعالى:

﴿كُلُوا واشرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾

وشعرت للمرة الأولى منذ دخولها هذا العالم، بشيءٍ يشبه الأمان.

في تلك اللّيلة، كان قد مضى من المهلة ستةُ أيّام، ستةُ أيّامٍ فقط، وبقي على قدر أن تُنهي مهمتها قبل أن ينقضي الزمن المحدود كشمعةٍ توشك أن تبلغ فتيلها الأخير.

كان اللّيل قد أرخى ستاره، والقمر يعلّق صمته في كبد السّماء، حين همست قدر: _هل تعرفين والديكِ يا غسق؟

هل سبق أن صحوتِ على صوت شجارهما؟

أو على قبلةٍ تُطمئن قلبك منهما؟

قالت ذلك، وقد ارتسم الحزن في ملامحها كظلٍّ قديمٍ لا يغادر الوجه.

سكتت غسق لحظة، ثم قالت بصوتٍ خالٍ من الذّكريات:

_نحن لا نملك آباءً يا قدر.

خُلقنا هكذا بلا نسبٍ، ولا ماضٍ، ولا حكايات تُروى قبل النوم.

وتابعت، وقد بدا في صوتها شيءٌ من المرارة:

_وأبغضُ أولئك البشر لأنّهم يستطيعون أن يعيشوا كما يشتهون، روابط، علاقات، صداقات، عداوات، حبّ، وفراق.

أمّا نحن، فخُلقنا لنُغيث البشر لا أكثر، حتّى إن أردنا الارتباط، لا نستطيع.

قالت قدر متعجبة: _لكنكِ تشبهين البشر بهيئتك هذه لماذا لا ترتبطين؟

لماذا لا تُكوّنين أسرة؟

أجابت غسق بحزمٍ خافت: _لا يحقّ لنا، ذلك هذا قانون الجنان.

ثمّ نظرت إليها نظرةً ذات معنى، وقالت:

_ألم تتساءلي يومًا لماذا أنا الوحيدة القادرة على التجوّل، بينما السحب الأخرى ساكنةٌ بلا حراك؟

اتّسعت عينا قدر فجأة، وقالت بدهشة صادقة:

_حقًّا، الآن فقط أدركتُ أنّكِ الغيمة الوحيدة المتكلّمة، والوحيدة الّتي تجسّدت بهيئة بشرٍ تقريبًا!

تنهّدت غسق، وقالت بصوتٍ خفيض:

_لأنني، يومًا ما، قررتُ أن أنتهك قوانين الجنان.

ثم تابعت:

_أحببتُ غيثًا، لكنّه لم يبادلني الشّعور، بل أفشى باعترافي لكلّ المملكة.

وكان شعار الجنان: ألّا نخون بعضنا البعض.

فنُفيَ غيث إلى عالم اللّازمان.

كانت قدر في تلك الأثناء، تلتهم من شلّال الشّوكولا المتدفّق، وفمها لم يهدأ عن التّذوّق منذ ساعات، قالت وهي تمسح أطراف شفتيها:

_إذن، وماذا عنكِ يا غسق ما عقوبتكِ؟

قالت غسق ببرودٍ موجع:

_عقوبتي أن أعيش في الجنان دون رفيق، منعزلة.

قاطعتها قدر مبتسمة: _يا للسّكينة!

هذه مكافأة يا غسقي، لا عقوبة، العزلة أشبه بالنّجاة.

لكن ملامح غسق تغيّرت فجأة، وكأنّ الجملة أصابتها في موضعٍ خفي.
قالت بحدّةٍ مكتومة: _وهل جرّبتِ الوحدة لتُقرّري إن كانت نجاة؟

ثمّ أضافت بنبرةٍ جارحة:
_أظنّكِ غير مبالية بمن حولكِ، فليس الجميع مثلكِ يعيشون على أطلال الماضي، ويتكدّرون من السّعادة والاحتكاك بالبشر.

ثم استدارت فجأة، وأغلقت الباب بقوة كأن رعدًا حقيقيًا ضرب أركان القصر.

ارتعبت قدر، وركضت إلى سريرها وهي تتمتم متذمّرة:

_يا إلهي ولِمَ العصبية الآن؟

كان عليها تأجيل ذلك ريثما أنتهي من وعاء الشوكولا ذاك!

ثمّ تمتمت بنبرةٍ نصف ناعسة:_ ترى هل لديهم كنافة؟

ستكون لذيذة الآن وهي ساخنة...

ثمّ استسلمت للفراش وقالت: _حسنًا ربما عليّ النوم الآن.

في الضّفّة الأخرى من القصر، كانت ملكة اليمام هيليكونيا تقف إلى جانب غسق.

قالت الملكة بصوتٍ يثقله القلق: _ترى هل ستنفّذ الهدف حقًّا؟

وماذا إن فشلت يا غسق؟

سيكون انتظارنا لكلّ تلك السّنوات عبثًا، ولا بدّ أن تخبري عمّار بالمستجدّات.

قالت غسق بتردّد: _أتَقصدين هيئة قدر؟

أجابت هيليكونيا: _نعم...

عمّار لم يُخبرنا أنها ستتحوّل وهذا يؤكّد أن هناك خفايا كثيرة نجهلها ونجهل عواقبها.

وأضافت الملكة، وقد اشتدّ صوتها:

_أي فشلٍ هنا قد يؤدّي إلى نفيٍ أعظم، وإلى طيّ عالم الجنان بأسره، وسنُنفى نحن إلى الأبد.

لمّا استسلمت قدر للنّوم، لم تنم كما ينام البشر، بل انزلقت روحها في ممرٍّ من السُّحُب، رأت نفسها تمشي في فضاءٍ بلا أرض، تحت شمسٍ ناقصة، معلّقة في كبد سماءٍ رماديّة، لا تُضيء، بل تتألّم، كانت الشّمس هناك كقلبٍ مبتور، نصف دائرةٍ من نورٍ خجول، ونصفٌ غائب كأنّه اقتُلع من خطيئة البشر.

كلّما اقتربت منها، شعرت بأن شيئًا في صدرها ينجذب إليها كما ينجذب الجريح إلى ضمادٍ أخير، وتناهى إلى مسامعها هتافٌ خفيّ، ما له من جهة، بل ينبعث من أعماقها: _أنتِ سرُّ اكتمالها، وأنتِ نقصانها.

عندها فهمت، أنّ الشّمس لم تكن جرمًا في السماء، بل رمزًا لها، وأنّ عمّار، حين كان يلقّبها بـ شمسي، لم يكن يلاطف حفيدته، بل كان يهمس بسرٍّ يعرفه وحده:

أنها كمالُ كلّ النّواقص، وغفرانُ كلّ الخطايا، ولغزُ كلّ الأسرار، ونجاةُ كلّ الغرقى.

وفجأة، تبدّل المشهد، لم تعد في السّماء، بل في سهلٍ أبيض، تغمره ضبابيّة تشبه الذّاكرة حين تحاول أن تتذكّر وجهًا أحبّته ثم نسيته قسرًا، ورأت هناك طيف امرأة لا ملامح لها، لكن قلب قدر عرفها قبل أن تنطق... إنّها أمّها.

تقدّمت خطوة، فتراجعت المرأة خطوتين، أسرعت، فابتعد الطّيف أكثر، كأنّ بينهما بحرًا من القدر لا يُسمح بعبوره.

وفجأة، انشقّ الفراغ بينهما كبحرين متقابلين، لا يختلط ماؤهما ولا يلتقيان، وسمعت قدر الآية تنساب في الحلم كما لو أنّ الكون نفسه يتلوها: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۞بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ۞فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

فهمت حينها، أنهنّ كبحرين يلتقيان شوقًا، ويفصل بينهما برزخُ القدر، لا ظلمًا، بل امتحانًا.

جثت قدر على ركبتيها، رفعت وجهها نحو ذلك الفراغ الّذي يشبه حضنًا غائبًا، وقالت بصوتٍ مكسورٍ يتلوه قلبها قبل لسانها:

_اشتاقت إليكِ عجافًا أنتِ يوسفُها، فهلّا رميتِ على العميان قمصانًا؟

ارتجّ الفضاء من حولها، وتشقّق الضباب لحزنها.

مدّت يدها، فلم تمسك إلّا الهواء وتلاشى الطّيف، كما تتلاشى الأمنيات حين تقترب من حدود الحقيقة.

عاد صوت الشّمس النّاقصة يهمس:

_السرُّ فيكِ، والطريق إليّ يمرّ عبر أمّك.

ثمّ انطفأ كلّ شيء دفعةً واحدة.

استيقظت قدر فجأة، وقلبها يخفق كطائرٍ حُبس في قفص صدرها، كانت الدّموع قد سبقت وعيها، تنساب على وجنتيها كأنّ الحلم ترك فيها أثره الأخير.

جلست على السّرير، وهمست لنفسها بصوتٍ بالكاد يُسمع:

_إذن أنا لستُ هنا مصادفة.

وأدركت، للمرّة الأولى، أنّ رحلتها في أرض الجنان ليست بحثًا عن كتاب، ولا عن زمن، ولا عن خطيئة الجدّ فقط...

بل بحثٌ عن ما هو أعظم.

"ترنّح الكرز"

كانت قدر وغسق تجلسان على أرجوحةٍ تدلّت من فم السّماء، تلتفّ حول حبالها أغصانُ كرزٍ مزهرة، كأنّ الربيع قرّر أن يتعلّق بين غيمتين ليشهد حديثهما.

كانت الأرجوحة تمضي بهما ببطء، تصعد قليلًا وتهبط قليلًا، كما لو أنّها تقلّب قلبين بين سكينةٍ وفضول.

قالت قدر فجأة، وهي تتأمّل الأفق:

_قولي لي يا غسق، ألا يوجد في هذا العالم شيءٌ اسمه القهوة؟

ابتسمت غسق: _أتحبّينها إلى هذا الحدّ؟

تنهّدت قدر، وأراحت رأسها على الحبل الملتفّ بالكرز:

_لا أحبّها... أنا أدمنها.

أحيانًا أسهو، فيغدو الكوب خمسة أكواب دون أن أشعر، وأعيد شراء القهوة نفسها كلّما نفدت: سوداء، بلا سكر، ولا حليب.

وأحبّ أن أختلي بنفسي أيامًا وأشهر، أراقب المطر، والغيوم، والقمر، وأقرأ الكتب دون مللٍ ولا كلل.

كانت تتكلّم كما لو أنها تحكي لسقف غرفتها القديم، لكن فجأة...

شقّ حديثها صوتٌ رخيم، عميق، كأنه خرج من وترٍ في صدر السّماء:

_السّماواتُ والأرضُ شهود، أنا حيزوم، وسأرافقكِ في رحلتكِ.

استدارت قدر ببطء فرأت رجلًا حنطيّ البشرة، شعره الطّويل يخبّئ رقبته، وعيناه لوزيتان بنيّتان تحملان حدّة الفرسان، جسده ضخم، عضلاته مفتولة كأنّها نُحتت من صخر حربٍ قديم، كان يرتدي زيّ الفرسان، وعلى جبينه عصبةٌ مرسومٌ عليها خيلٌ جامح.

شعرت قدر برعشةٍ خفيفة لا تعرف معناها، فسألت لتخفي اضطرابها:

_وما معنى اسمك؟

قال بثقةٍ هادئة:

_حيزوم اسم فرسٍ لملَكٍ من ملائكة الله، نزل يوم بدر، يُجَدِّل رؤوس المشركين بسوطه، وأنا اخترتُه اسمًا لي.

حدّقت فيه بدهشة: _أتقصد فرس جبريل؟

وهل أنت فرس؟

ابتسم ابتسامةً خفيفة:

_نعم، لكنّني الآن بهيئة أستطيع من خلالها أن أتحدّث معكِ.

وقبل أن تتابع سؤالها، تناهى إلى مسامعها صهيل جوادٍ أسود يقف شامخًا كأنّما قُدّ من عتمة اللّيل، فسألت وعيناها تتّسعان:

_ومن يكون هذا الفارس النّبيل؟

أجابها بثقة: _هذه العيّار، وقد...

ابتسمت بزهوٍّ معرفيٍّ وقاطعته قائلةً:

_لا تكمل... إنّه اسم فرس الصّحابيّ سيف الله المسلول، خالد بن الوليد!

توقّف لحظة، ثمّ قال بإعجابٍ صريح: _يبدو أنّ لديكِ معرفةً واسعة.

قالت بثقةٍ خجولة: _أجل، هكذا ربّاني جدّي.

ثم تغيّر صوته، وغدا أكثر جدّية:

_أمّا الآن، فعليكِ ارتداء ملابس الحرب، فالفساتين لن تعينكِ على ركوب الخيل.

ناولها سهامًا فضيّة، وقال:

_سنحتاجها عند عبور بوابة اللّازمان، فهناك جنود بوجوهٍ شاحبة، يتغذّون على التهام الوقت، حتّى يغدو عالمهم ساكنًا.

ستميّزينهم من ردائهم الأسود، ومن الفأس الذي يحملونه، وشعارهم صورة العنكبوت القمعيّة الوتراء.

شهقت قدر بذعر: _يا إلهي!

إنّها الحشرات الأكثر غدرًا، ويسري في جسدي رعبٌ منها!

بادر إلى طمأنتِها: _هدّئي من روعكِ، هم ليسوا حشراتٍ بالمعنى المألوف، بل مسوخ اتّخذت الغدر شعارًا، وأفعالهم أشدّ فتكًا من سموم العناكب، ويقودهم طاغية يُلقّب بـ (أكنام)

نظرت إليه بوجلٍ وقالت: _أتهوّن عليّ الأمر أم تمازحني؟

_أبدًا، لكنّني أحاول أن أكسر رهبة الحديث، ولا أجيد المزاح.

ضحكت قدر رغم خوفها، وقالت وهي تنهض من الأرجوحة:

_جميلة الرّحلة إلى اللّازمان، جنود يلتهمون الوقت، وزعيم اسمه أكنام... ولم أشرب قهوتي بعد.

وهكذا، بدأ يومها على أرجوحةٍ من كرز، وبوعد حربٍ منتظر.

ذهبت قدر لتبدّل ثيابها، وعادت بعد قليل بخطواتٍ واثقة، وقالت بصوتٍ يحمل امتزاج الحماسة بالرّهبة: _أنا جاهزة.

التفت حيزوم فتوقّف الزمن لحظةً في عينيه...

كان شعرها الأجعد الطويل قد قُسِمَ إلى ضفيرتين محكمتين، تنسابان على عنقها وكتفيها، وعلى محيّاها تمايلت خصلتان ناعمتان، تداعبان وجنتيها وتُقبّلان حُمرة الكرز الساكنة فيهما قبلةً خجلى.

تقدّم منها دون أن يشعر، ومدّ يده، وشبك بين خصلها أغصانَ ياسمينٍ ندية.

تراجعت خطوة وقالت بدهشة: _ماذا تفعل؟

قال بهدوءٍ:

_في هذه المغامرة قد تُؤسرين، وهذه الأغصان ستدلّنا عليكِ، فالعيّار يعشق رائحة الياسمين.

ابتسمت رغم خوفها، ثم تقدّمت نحو الجواد، كانت تلك أوّل مرّة تمتطي فيها عيّار، وما إن استقرّت على ظهره، حتّى تحوّل حيزوم إلى هيئته الأصليّة، فرسًا مهيبًا تلمع عيناه كبريق سيوفٍ قديمة.

وقبل أن يهمّوا بالرحيل، نادت قدر غسق:

_هل أعطيتِني زوّادة تكفي لتسدّ طولي؟

ضحكت غسق وقالت:

_أخشى أن تأكلي الفرسان إن لم أعطكِ طعامًا كافيًا.

قال عيّار ضاحكًا:

_احذري، لحمي مرّ، لا تتردّدي في أكل حيزوم، فهو شهيّ بما يكفي.

صهل حيزوم محتجًّا: _أتبيع صديقك برمشَة عين؟

ما عهدتك هكذا!

قاطعتهم غسق بحزمٍ لطيف:

_هيا، هيا... كفاكم ثرثرة تضييع الوقت لا يعود علينا بفائدة.

رافقتكم السلامة، وكان الله معكم.

ثم انفتح أمامهم باب اللّازمان، دخلوا فوجدت قدر أنّ الظلمة حالكة، مكفهرّة، كأنّ اللّيل هنا ليس غياب الضّوء، بل حضور الخوف.

استدارت نحو حيزوم: _كيف سنجد ضالّتنا الآن؟

قال عيّار متنهّدًا: _أرجو أن نجد النّهاية سريعًا وأعود إلى الديار.

قالت قدر بثقةٍ هادئة:

_لا تفتّش عن النّهاية، فالمتعة كلّها في الطريق، ولديك الآن فارسة مثلي، أحسدك حقًّا.

تابعوا المسير، وفجأة، بين غاباتٍ سوداء، تفيض منها رائحة الدّخان، وتختبئ فيها خيالاتٌ وأعينٌ تراقبهما في صمت، قال عيّار:

_انظرا... هناك بحيرة قريبة، لنذهب ونروي ظمأنا ونستريح إلى الفجر.

وما إن ارتووا جميعًا، حتّى التفتت قدر إلى حارس النّهر وقالت:

_أسقاك الله من الرّحيق المختوم.

تراجع الحارس خطوة وقال متوجّسًا: _وما هو هذا الرّحيق؟

ومن أنتما؟

تبدوان غريبين عن هنا، احذروا، فالغرباء غير مرحّبٍ بهم.

قالت قدر بهدوء العارف:

_أمّا الرحيق المختوم فهو شراب الأبرار، شرابٌ خالص، مختوم بنكهة المسك.

قال الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۞ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ۞ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ۞ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾

ثم أضافت:

_أمّا نحن، فنبحث عن تصحيح خطيئة الجدّ عمّار، ولا نعرف الطّريق ولا السّبيل.

وما إن سمع الحارس اسم عمّار، حتى ارتعش جسده، وخارت قواه، وتبخّر في الهواء كأن لم يكن.

تبادلت قدر والفرسان نظرةً مذهولة.

وعلى الضّفة المقابلة، كان كوخٌ خشبيّ، يتصاعد من مدخنته دخانٌ أسود.

قالت قدر: _لمَ لا نذهب ونطرق ذاك الباب؟

علّنا نتلقّى بعض العون.

طرقوا، ففتح لهم عجوز، يكاد لا يظهر من وجهه شيء من شدّة لحيته الكثيفة الطّويلة التي تلامس بطنه المنحوت.

في يده عكّازٌ خشبيّ رثّ، يرتدي عباءةً بيضاء، وقلنسوة، وتتدلّى من كفّه مسبحةٌ بيضاء.

قال بصوتٍ مبحوح: _من أنتما؟ وكيف أساعدكما؟

قالت قدر: _هل يمكننا المكوث في كوخك إلى الفجر؟

لدينا ما نودّ السؤال عنه.

قال: _تفضّلا.

دخلوا، وكان الحطب في الموقد يتآكل، ويصدر ذلك الصّوت المألوف الّذي تحبّه قدر.

فقالت بعينين دامعتين:

_كان جدّي يتعمّد إشعال الحطب شتاءً بدل التّدفئة المركزيّة، لأنّني أحبّ رائحته، وتحديدًا وهو رطب، وأحبّ صوته، ونوره.

قال العجوز مبتسمًا: _يبدو أنّك تحبّين جدّك كثيرًا.

قالت بصوتٍ منكسر:

_نعم... أحبّه، وليتني قلتها له مبكّرًا، أشتاق إليه، وأخشى عليه من الوحدة.

كان يحزن عندما أتأخّر في العودة، ومع ذلك كنت أتأخّر عمدًا غير مبالية بمشاعره.

وانهمرت دموعها.

اقترب العجوز، ومدّ لها منديلًا تفوح منه رائحة العنبر.

شهقت قدر: _هذه رائحة جدّي!

وانفجرت بالبكاء.

جلس الفرسان أمام الحطب بعد أن تهيّآ بهيئةٍ بشرية.

قال العجوز: _كيف أساعدكم؟

ولكن قبل ذلك لمَ تنتظرون الفجر؟

قال عيّار: _لكي نصلّي جماعة.

فهم حيزوم أنّها سخرية، فصحّح سريعًا: _بل كي يبزغ النور وينير وجهتنا.

ابتسم العجوز ابتسامةً غامضة وقال:

_ألا تعلمون أن اللّازمان لا يبصر النّور؟

وقفت قدر ورفيقاها أمام العجوز، وقد انطوت في صدورهم دهشةٌ أثقل من الحديد.

قالت قدر، وقد انكسرت في صوتها نبرة اليقين:

_وكيف سنجد الطّريق في أرضٍ لا تعرف النور؟

حدّق العجوز في ألسنة النار المتآكلة، ثم رفع بصره ببطء كأنما يستخرج الجواب من أعماق السنين، فقال: _الطريق لا يُرى، بل يُعرَف.

تقدّم حيزوم خطوة، وقال بلهجة متحفّزة:

_بلغنا أنّ أبناء الجدّ عمّار نُفوا إلى هذا العالم، وأنّهم أسرى في قبضته، وجئنا لنحررهم، لكنّنا نجهل السّبيل إليهم، فدلّنا.

هنا تغيّر وجه العجوز تغيّرًا خفيًّا، كأنّ ذكر الاسم حرّك في داخله وترًا دفينًا، ثم قال:

_أعرف، وأستطيع أن أساعد.

انبسط الأمل في عيني عيّار، فقال على الفور: _وكيف؟

أشار العجوز إلى زاوية مظلمة من الكوخ، حيث كان بساطٌ عتيق مطويًّا كجناح طائرٍ متعب، وقال:

_بساطي السّحري قادر على نقلكم إلى وجهتكم، لكن...

قاطعه عيّار بحدّة: _لكن ماذا، أيها العجوز؟

تدخّلت قدر بلطف، وقد أحسّت بخشونة السؤال:

_نعتذر عن طول لسان صديقنا، ما اسمك أيّها العم؟

ابتسم العجوز ابتسامة غامضة، وقال:

_اسمي يعقوب، ويُطلق عليّ هنا اسم إدوارد.

قال حيزوم متعجبًا: _ولماذا اسمان؟

أجاب:

_لأنّ هذا الاسم يعود لآلاف السّنين، حين وجد في هذه الأرض ساحرٌ طيّب يساعد النّاس، وكان شاعرًا وكاتبًا ورسّامًا، فظنّ أهل هذا العالم أنّني هو، فتركوني أحمل اسمه.

قالت قدر، وقد لمع في عينيها بريق فضول: _أحقًّا تجيد كل ذلك؟

قال بهدوء: _لا أجيده للمنطق، بل للحاجة...

أرسم طرق التّائهين، وأكتب قصص المنفيّين، وأجسّد مشاعر العاشقين في قصائدي.

وما إن فرغ من كلامه، حتّى فاضت عينا قدر بدمعٍ مالح، وانحدرت دموعها من فضاء عينيها دون إذن، وقالت بصوتٍ متهدّج:

_تذكّرني بجدي... كان أديبًا، تُرى كيف حاله الآن؟

قال عيّار، وفي صوته شيء من القسوة القديمة:

_أما زلتِ تحبين ذلك الجدّ اللّعين الّذي كان السّبب في وجودكِ هنا؟

انتفضت قدر وقالت بثباتٍ موجوع:

_لكن يا عيّار، تلك مجرّد خطيئة، وقد دفع ثمنها بالفعل، وهو الآن تائب، ورسول الله ﷺ قال:

«كلُّ بني آدم خطّاء، وخيرُ الخطّائين التوّابون».

وسكتت لحظة، ثم أضافت:

_كنت أنوي المغادرة، لكنّني بقيت لأعيد لجدي ونسه في الحياة، فقد عاش وحيدًا رغم وجودي، وكنت أتأخّر عنه متعمّدة، غير مبالية بحزنه.

قال حيزوم فجأة:

_لكنّ غسق لم تخبركِ بهذا في البداية، وكنتِ قد عزمتِ المغامرة قبل ذلك.

قالت قدر، وقد اتّسعت دهشتها: _بل سمعتها منذ اللّحظة الأولى...

وهي تحدّث الثّعبان الذي يتغذّى على أشجار التّين.

قال عيّار فزعًا: _ويحكِ!

ماذا سمعتِ؟

_كانت تقول:

نعم، إنّها حفيدة عمّار كما وصفها لنا، والعلامة ظاهرة على عنقها، علينا المماطلة لنقنعها بالبقاء، كي تعيد والديها إلى ذلك العالم.

قال حيزوم بحدّة: _وماذا حدث بعد ذلك؟

لا شيء... أغوتني بحيرة اللّؤلؤ، فانقطع الحديث، ثم جاءت غسق لتحذّرني من البحيرة.

قاطعهم إدوارد، وقد ضرب بعكّازه الأرض ضربة حازمة:

_كفى ثرثرة، لديكم الكثير لإنجازه، وقد مضى من الوقت تسعة أيّام.

ثم تقدّم نحو البساط وقال:

_خذوا هذا البساط معكم، فهو يعرف الطريق.

قال عيّار متشككًا: _وهل سيوصلنا إلى ديارهم دون عناء أو مقابل؟

ضحك إدوارد وقال: _ليت المهمّة بتلك السهولة.

سيأخذكما إلى غابة تُدعى سيهانبا، أشجارها خضراء ومياهها غزيرة.

قال عيّار مازحًا: _وهل يتغذّون هناك على الأشجار؟

فأنا لا أحبّذ ذلك الطّعام.

قالت قدر ساخرة:

_لا تكن غبيًّا، بالتّأكيد هناك منتجعات، وطعام شهيّ ووفير، ولن نحتاج لدفع المال.

وفجأة دوّى صوت العكاز مرة أخرى، وقال إدوارد بصرامة:

_إن كنتما تفكران بالأكل فقط، فالمهمة محتومة من الآن.

ثم أردف بصوتٍ خافتٍ ثقيل:

_غابة سيهانبا مجرّد وهم عندما تصلين يا قدر، عليكِ أن تجدي الصّخرة الّتي نُحتت عليها شمس نصف مكتملة.

وحين تلمسينها، سيكتمل القرص، وتنشقّ الغابة إلى نصفين، ويقف البحر شامخًا من كلا الجهتين، وتعبران بينهما، فتجدا درجًا يهبط بكما إلى الأسفل... وهناك ستبحثان عن آدم وإيفا.

قال عيّار مذهولًا: _وما شأننا بهما؟

قال إدوارد بهدوء قاطع: _إنّهما والداكِ يا قدر.

شهقت قدر وقالت: _تلك أوّل مرّة أعرف بها اسميهما!

أردفت قدر: _هيّا، فالوقت يركض هنا أسرع من ركض عيّار.

قال عيّار محتجًّا: _أتوجّهين هذه الإهانة لأعظم خيل في أرض الجِنان؟

ثم تابع متفاخرًا: _سأعفو عنك لكونكِ فتاة، فأنا لا أخوض حربًا مع النّساء، فهنّ ناحبات، وأفضّل الخصم الشّجاع.

وما كاد يتمّ كلامه حتّى وجد نفسه وقد رُفع من ياقة لباسه، مع قدر، بقبضةٍ واحدة، وصوت حيزوم يقول بجدّ:

_نعتذر منك يا عمّ يعقوب، وشكرًا لك... سنغادر الآن.

ودلف بهم إلى الخارج، وأرخى قبضته، فسقط عيّار وقدر على الأرض.

قال عيّار غاضبًا: _أتفعل ذلك بصديقك من أجل فتاة؟

ما عهدتك هكذا!

قال حيزوم ببرود: _نعم.

ثم جلس الثّلاثة على البساط السحريّ، فانطلق بهم نحو الأعلى.

تشبّث عيّار بذراع حيزوم وقدر وهو يصرخ: _أنزلوني! أنزلوني!

لا أريد الموت! زوجتي تنتظرني!

لم أعش بعد!

لا زلت في ريعان شبابي!

سخرت قدر وقالت:

_يا لك من خيلٍ شجاع! أشفق على من ستتزوجك... لكن على الأقلّ سيرتاح حيزوم من صحبتك.

كان البساط يشقّ صدر السّماء كما يشقّ الطائر صفحة الغيب، والرّيح تعصف حولهم كأنّها تعيد ترتيب الجهات، حينها تبدّل وجه الأفق فجأة، وانسكبت من أعالي اللّازمان غيومٌ مثقلة، وابتدأ المطر يهطل هطولًا رقيقًا، كأنّ السّماء تغتسل من غبار العتمة.

تساقطت القطرات على وجوههم، باردةً نقيّة، فرفعت قدر كفّيها تلقاء صدرها، وابتسمت ابتسامة ممتنّة، وقالت بصوتٍ خافتٍ يفيض شكرًا:

_الحمد لله...

حتى في أرضٍ بلا زمان، لم تُحرَم السّماء من نعمة المطر.

ثم التفتت إلى رفيقيها وقالت: _أتعلمان أنّ لهذا المطر مَلَكًا موكّلًا به؟

قال حيزوم متعجّبًا: _ومن يكون؟

قالت وقد أشرق في صوتها يقين العارف: _ميكائيل... أو ميكال.

هو مَلَكٌ من الملائكة العظام، جاء ذكره في القرآن وفي أحاديث النبي محمد ﷺ، وهو موكّل بالمطر والنّبات، ومن أشراف الملائكة المقرّبين، ذو مكانةٍ عظيمة عند ربّه عزّ وجل.

وكان المطر يزداد، يطرق صفحة البساط طرقًا خفيفًا كأنما يعزف نشيدًا سماويًّا.

قال عيّار، وقد رقّ صوته على غير عادته:

_وهل تعلمين تفسير الآية الّتي ذُكر فيها اسمه يا قدر؟

قالت بثباتٍ هادئ: _نعم بالتأكيد.

ثمّ تلت بصوتٍ خاشعٍ صافٍ، كأنّها تقرأ من قلب السّماء لا من ظهر الغيب:

﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ سورة البقرة، الآية الثامنة والتسعون.

وسكتت لحظة، ثمّ تابعت، والمطر ينسلّ على وجنتيها كدموعٍ شفافة:

_معناها:

من عادى الله وملائكته ورسله، من الملائكة أو البشر، وخاصّة المَلَكَين جبريل وميكال... فقد عادى الله نفسه.

وتكمن قصتها _كما قال المفسّرون_ في أنّ اليهود زعموا أنّ جبريل عدوّهم، وميكال وليُّهم، فأعلمهم الله أنّ من عادى واحدًا منهما فقد عادى الآخر، وعادى الله أيضًا، فإن الله عدوٌّ للجاحدين.

ساد صمتٌ مهيب فوق البساط، ولم يبقَ إلا صوت المطر، كأنه يصفّق للآية، ويشهد على صدقها.

قال حيزوم بصوتٍ خفيض:

_ما أعجب أن يسقط المطر في أرضٍ لا زمن فيها ويظلّ اسم الله حاضرًا.

ابتسمت قدر وقالت:

_لأنّ النّعمة حين تنزل، لا تسأل عن المكان، بل تسأل عن القلب الّذي سيشكرها.

وظلّ البساط يمضي بهم في السّماء الماطرة، بين قطراتٍ تحمل اسم ميكائيل، ودعاءٍ صامتٍ يصعد من قلب فتاةٍ لم تنسَ ربّها، حتى وهي تعبر أرض اللازمان.

لم يكن المطر سوى عبرةٍ عابرة، فما إن انقشعت آخر القطرات، حتى تبدّل وجه السّماء فجأة، وانشقّت سحب اللّازمان عن زئيرٍ لم تعرفه الرّيح من قبل.

من أعالي الأفق، اندفعت تنانين حمراء قاتمة، أجنحتها كألواحٍ من نار، وأذيالها الخضراء المسمومة تتهدّل في الفضاء كسياطٍ مسعورة، تحيط بالبساط من كلّ الجهات، وتسدّ عليه منافذ السّماء كما يسدّ الليل عيون الفجر.

شهرت قدر رمحها، قفزت واقفة على حافة البساط، وغرزت قدميها في نسيجه المتماوج، وما إن اندفع أحد التّنانين نحوها بفمٍ يتقيّأ لهبًا، حتّى أرسلت رمحها بكلّ ما فيها من يقين.

أصاب الرّمح عنق التّنّين، فارتجّ جسده الضّخم، وانفجر صراخه في السّماء كناقوس موت، وسقط يتهاوى في هاوية اللّازمان...

لكنّ النّصر لم يكتمل، فجأة، انقضّت من خلفها مخالب هائلة ذهبية، أشدّ لمعانًا من الشمس، وأقسى من الفولاذ، انغلقت حول جسدها كما تنغلق الأقدار، ارتفع بها التّنّين في الهواء، وارتجف البساط تحت وقع الفراغ.

صرخت قدر بكلّ ما بقي في صدرها من حياة: _حيزوم!

ثم صاحت، وصوتها يتكسّر بين الرّيح والنّار:

_إن عثرتَ على والديَّ... فأخبرهما أن يلتقيا بغسق، وقُل لجدي أنني اكتفيتُ به... وكان أكثر من عائلةٍ بالنسبة لي.

كان عيّار يشتبك بسيفه مع أحد التّنانين، وحين سمع صوتها، التفت فجأة، وتوقّف الزمن في عينيه، صرخ، وعلى غير عادته كان صوته مكسورًا:

_أتودّعيننا يا فارسة؟

ألستِ المنشودة؟

حسبتكِ خصمًا شجاعًا لا يعرف الوداع!

اتّبعي حدسكِ، فالمنشودة لا تُؤسَر.

واندفع كلا الفارسين كإعصارين في قلب المعركة.

حيزوم يقاتل بسيفه ولهيب التّنانين يحيط به من كل جانب، وعيّار يضرب بأجنحته أجنحة الوحوش، فتتناثر شرارات النّار في السماء كنيازك مكسورة، لكنّ أحد التنانين باغت حيزوم من الخلف، ونفث عليه لهيبًا حارقًا، اخترق اللّهب ذراعه الأيسر، فصرخ صرخةً لم يعرف لها مثيلًا، وسقط من على البساط، يتهاوى في فضاءٍ بلا قرار.

في تلك اللّحظة لم يفكّر عيّار، لم يتردّد، تحوّل إلى هيئته الأصلية، خيلٌ مجنّح يشقّ الهواء بجناحين عظيمين، واندفع كالسّهم خلف جسد حيزوم.

أمسكه في آخر لحظة، وضمّه إلى صدره، وانحرف به بعيدًا عن نيران السّماء، حتى اندسّا معًا في مغارةٍ سوداء في جوف أحد الجبال الطافية. ساد الظلام، حيزوم ينزف، وعيّار يضغط بيده على الجرح المرتعش.

وفي أعلى السّماء، كانت قدر ما تزال أسيرة المخالب الذهبية، تبتعد شيئًا فشيئًا عن كل ما تحب، والبساط يدور في الفراغ.

كان الّذي اختطفها تنّينًا يُدعى سَنفاير، ليس كتلك التّنانين الّتي رأتها في السّماء، بل مسخًا أسطوريًا اجتمعت فيه طبائع الجحيم، له سبعةُ رؤوسٍ تتمايل كأفاعٍ عظمى، وأجنحةٌ سوداء كليلٍ بلا قمر، ومخالبُ ذهبيةٌ لامعة كأنها صُبّت من شمسٍ مسروقة، وأنيابٌ حادّة تبرق كلما فتح أحد أفواهه السبعة، هيبته كانت أطول من الجبال.

حملها في مخالبه كما تُحمل غنيمة، وشقّ بها أفق اللّازمان، حتّى انفتحت أمامهما مملكة لم ترَ مثلها عين.

"مملكة التنانين"

سماؤها حمراء دامية، وأرضها سوداء تتشقق كأنها تحترق من الداخل، كالبركان، وقصورها منحوتة من عظامٍ متكلّسة، تتدلّى من شرفاتها جماجم قديمة لملوكٍ وخصومٍ منسيّين، وفي قلب تلك المملكة كان يرقد أنكالاجون الأسود، تنينًا بحجم المملكة بأسرها، جسدُه يلتفّ حول القلاع كما يلتفّ الليل حول النجوم، وعيناه بحيرتان من ظلمةٍ واعية، وما إن بلغ سنفاير عتبة القصر، حتى تغيّر جسده فجأة، تقلّص، وتحوّل إلى رجلٍ بشريّ، بشرة سوداء كالفحم المصقول، وعينان حمراوان خالصتان، لا بياض فيهما، وشَعرٌ طويل ينسدل على كتفيه كخيوط ليلٍ مبلّل، لكن أنيابه ظلّت بارزة، تلمع كلما ابتسم بمكر.

تقدّم بخشوعٍ مصطنع، وانحنى أمام عرشه الهائل، قال بصوتٍ كفحيح نار: _مولاي أنكالاجون...

وجدتُ زائرةً متطفلة في أرضنا، وقد تجرأت على قتل أحد التنانين التابعين لخدمتك، غير أنّ صديقيها فرّا هاربين، وسنمُسك بهما قريبًا.

في تلك اللحظة تحرّك الجبل تقلّص جسد الملك، وانطوى حجمه الهائل، حتى صار رجلًا ضخمًا، يلائم فريسته التي جُلبت إليه.

قال بصوتٍ يثقل الهواء:

_اتبعاني إلى القاعة لنستأنف حوارنا هناك.

دخلوا قاعة العرش، كان أنكالاجون يرتدي رداءً أسود من مخملٍ فاخر، ينساب من كتفيه حتى يجرّه الخدم على الأرض، فركض جاريتان تحملان ذيل الرداء كي لا يلامس الغبار.

جلس على كرسيٍّ عظيم من عظام متشابكة، وأمسكت الجاريات بريشة طاووسٍ ضخمة، يهوين بها على جسده ليخفّفن عنه حرّ المملكة اللاهب.

بشرته حمراء كالجمر، وعيناه سوداوان كاملتان بلا حدقة ولا بياض، رأسه أصلع يلمع كصخرة بركانية، وبطنه بارز كالبطيخ المتوهّج، يهتزّ مع كل نفس.

حدّق في قدر طويلًا، ثم قال ببطءٍ يتلذّذ بكل حرف: _من أين أتيتِ؟

وكيف استطعتِ بلوغ مملكتي؟

وما اسمكِ يا صغيرة؟

وهل يمكنكِ إقناعي بعدم بتر هذا الرأس اللذيذ، فرائحته شهية لعشائي الليلة؟

رفعت قدر رأسها، وعيناها تلمعان بتحدٍّ لم يعرفه هذا القصر منذ قرون.

قالت بصوتٍ صافٍ كالسيف:

_أمثالك يأكلون الجرذان، وذاك كثيرٌ عليك أيها النتن، فشكلك بهذا البطن اللعين أشبه بكرة لحمٍ فاسدة.

سادت القاعة شهقة جماعية.

تابعت، غير عابئةٍ بسيوف الحرس ولا بمخالب الجلادين:

_ولن تستطيع أكلي سأغرز رمحي في نصف قلبك قبل أن تجرؤ على الاقتراب.

ضحك أنكالاجون ضحكةٌ غليظة ارتجّت لها الأعمدة، قال وهو يميل بجسده إلى الأمام: _يروقني تمرّدكِ، أحبّ الفريسة الّتي تعرف أن تعضّ.

ثم لوّح بيده بإشارةٍ باردة:

_خذوها إلى زنزانة النّار علّها تهدِّئ من روعها، وأعيدوها إليّ حين تنضج للخضوع.

وانسحبت المخالب بها، بينما كانت عيناها معلّقتين بالعرش، تعرف في سرّها أن هذه لم تكن نهاية الأسر، بل بدايته.

في عمق المغارة المظلمة، حيث كانت النّار قد خمدت، وحيث اتّكأ حيزوم على الصّخر يضمّد جرحه بأنفاسٍ متقطّعة، وجلس عيّار إلى جانبه وقد أرهقه السّهر والخوف والجوع، ساد صمتٌ كثيف كأن الكهف ابتلع الصوت والزمن معًا.

وفجأة، ارتجفت جدران المغارة وانشقّ السقف عن ضوءٍ أسود غريب، ليس نورًا ولا ظلمة، بل شيءٌ بينهما، ثمّ انقشع الكهف كما تنقشع الغشاوة عن عينٍ مريضة، وخرج من قلب الصّخر خيلٌ أسود مجنّح، جسده مهيب، وأجنحته تمتد كستارتين من ليلٍ كثيف، وضفائر سوداء تتدلّى على عنقه وصدره، وذيلٌ مضفّر طويل يلامس الأرض بوقار، وفي قدميه حُلِيٌّ معدنيّة تطنّ كلّما خطا خطوة، كأنّها أجراسُ نجاة.

تقدّم بخطى واثقة، وقال بصوتٍ عميق كصوت الرّيح في الوهاد:

_أنا الأملج الأسود، ويرمز اسمي إلى...

قاطعه عيّار وهو يزفر ابتسامة متعبة:

_لو كانت قدر هنا لكانت قاطعتك قبلي وقالت: أعلم أعلم.
فهي تعشق الخيول، وتحفظ أسماءها، وتعرف أسماء خيول الأنبياء والصحابة، ومعها تزداد معرفتك يومًا بعد يوم، أما أنا فلا أعلم فاعذر جهلي، وأكمل تعريفك عن نفسك.

انحنى الأملج قليلًا، وقال بنبرةٍ امتزج فيها الفخر بالخشوع:
_في زمن نبيّ الله سليمان عليه السلام، كانت هناك سلالةٌ من خيوله المسخّرة، ومنها فرسٌ نادر عظيم يُدعى الأملج الأسود.

فرسٌ عملاق، جسدُه يفوق حجم الخيول العادية، وضفائرُه منسوجة كأنها من الليل ذاته، وعيناه ذكيتان، كأنّهما تبصران ما وراء الحُجُب، وكان سليمان تُسخَّر له الرّيح والكائنات، وكانت خيوله ذات صفات خارقة، تدرك ما لا يدركه البشر.

ثم قال وقد رفع رأسه قليلًا:
_ولأنني أحمل من تلك الصّفات نصيبًا، أطلقت عليّ الاسم نفسه وبُعثتُ اليوم لأقودكما إلى وجهتكما، وأكشف لكما ما وراء الحُجُب.
فكل الكائنات في هذا العالم تخشى مجابهتي، ومعي ستكونان بأمان.

شدّ حيزوم على جرحه، وقال بصوتٍ متألّم مشوب بالحذر:

_وكيف نثق بمن لا نعرفه؟

ونحن في أرض اللازمان، حيث يخضع كل شيء لسلطة الظلم والتمرّد؟

أيّ دليلٍ لديك على صدقك؟

ابتسم الأملج ابتسامة هادئة، وقال: _لك حرية ألّا تصدّقني.

لكن أخبرني هل هناك سبيلٌ آخر للخروج من هذا الكهف؟

وهل تعرفان الطريق إلى وجهتكما؟

نظر عيّار حوله، إلى الظلام المتراكم، وإلى الجرح المفتوح، ثم قال بعد صمتٍ قصير: _بالتّأكيد لا.

ثم تابع بسخرية مريرة:

_إذن لا خيار لنا إلا أن نختار الثقة بك مؤقتًا، وإن تجرأتَ على خيانتنا، سأخبر قدر وهي ستلتهمك حيًّا لأنك دنّست حبّها للخيول بخيانتك.

غير أنّ الجوع الآن يستولي عليها كما يستولي عليّ، وإن كان لديك ما يكفي من الطّعام، فستجدني أوفى الناس لك، وخُذ حيزوم هديةً منّي إليك.

التفت حيزوم إليه بعينين متّسعتين: _أتبيع صديقك لأجل خيل؟

ما عهدتك هكذا يا عيّار.

هزّ عيّار كتفيه بتعب:

_في زمن المجاعة تسقط كثير من المبادئ.

نهض الرّفيقان بصعوبة، واتّكأ كلٌّ منهما على الآخر، وجراحهما تنزف بصمت، ثم تبعا الأملج الأسود، الّذي استدار يقود الطريق نحو غابة سيهانبا حيث كانت تنتظرهم فصولٌ أقسى من الجراح، وأشدُّ من الظلام.

كانوا يشقّون طريقهم في ظلمة الأشجار، حيث تتعانق الأغصان فوق رؤوسهم كأصابع تتآمر على حجب السماء، وحيث كانت الرّيح تمرّ بين الجذوع كأنّها تهمس بأسماء المنفيّين.

وفجأة، استدار حيزوم نحو الأملج الأسود، وعيناه تشعّان بسؤالٍ لم يعد يحتمل الصمت.

قال بصوتٍ منخفض: _أتعرف عائلة الجدّ عمّار؟

توقّف الأملج خطوة، ثم أجاب بهدوءٍ كمن يذكر اسمًا محفورًا في التاريخ:

_نعم... ومن في هذا العالم لا يعرفه؟

تعجّب حيزوم، وقال وقد ازداد فضوله اشتعالًا: _وهل تحبّانه؟

وهل سبق أن التقيتما به حقًّا، أم أنّه مجرّد اسمٍ تتداوله ألسنة اللّازمان؟

التفت الأملج إليهما، وفي صوته شيءٌ من الامتنان وشيءٌ من الأسى:

_بل الفضل له في وجودنا.

فلولا خطيئته، لما وُجد عالم اللّازمان أصلًا، وبفضله تحقّقت كلّ الرّوايات الّتي كتبها، وصارت العوالم الّتي تخيّلها أوطانًا نسكنها.

قال عيّار وقد عقد حاجبيه: _وكيف حصل ذلك؟

ابتسم الأملج ابتسامةً حزينة، وقال:

_الحبّ يا عيّار... الحبّ يرمي بصاحبه في التّهلكة، فيغدو أسيرًا لمشاعره الجيّاشة، ويرتكب من الحماقات ما لو كان كامل العقل ما اقترب منها، فالمرء حين يقع في الحبّ، يسقط نصفُ ذكائه معه.

قهقه عيّار وقال وهو يربّت على بطنه: _وماذا عن حبّ الطعام؟

أعتقد أنّه مستثنى من هذه القاعدة، فذكائي أكبر برهان.

ومضوا في طريقهم يتبادلون الحديث، والغابة تزداد كثافة، واللّيل يضغط على صدورهم كعبءٍ ثقيل، وفجأة، توقّف حيزوم، وشدّ على ذراع عيّار وقال بلهفة: _وجدتها!

شهق عيّار بعينين لامعتين: _شريحة لحم؟

أين أين؟

أسرع!

ضرب حيزوم جبينه بكفّه وقال بضيق: _بل قدر!

وجدتُ الطريقة التي ستقودنا إليها.

تجمّد عيّار في مكانه: _وكيف ذلك؟

قال حيزوم وعيناه تلمعان بالفكرة:

_الياسمين، لقد شبكتُ غصنًا من الياسمين بين جدائلها، وأنت تملك ميزةً لا يملكها أحد هنا: تتبّع رحيق الزّهور، وخاصّة رحيق الياسمين.

ضحك عيّار ضحكة ماكرة، وقال: _ولماذا لم يعمل عقلك منذ البداية؟

يبدو أنّك وقعت في الحبّ، فسقط ذكاؤك كما قال الأملج قبل قليل.

لم يردّ حيزوم، بل التفت إلى الأملج الأسود وقال بحزمٍ يشبه العهد:

_الرحلة ناقصة دونها، إن أردتَ فاتبعنا لاسترجاع صديقتنا، وإن شئتَ فانتظر هنا، سنعود قريبًا، وندخل غابة سيهانبا برفقة قدر.

قال الأملج بصوتٍ مهيب:

_سيكون ذلك شرفًا لي، فهذه المنشودة ولكن أخبراني، كيف اختُطفت؟

قال عيّار وهو يستعيد الرّعب في عينيه:

_هطلت علينا من السّماء تنانينُ ضخمة، وانقضّ أحدها عليها واختطفها، كان ذا سبعة رؤوس.

ارتجف ظلّ خفيف في عيني الأملج، وقال:

_إذًا إنّه سِنفاير، خادمٌ لدى ملك التّنانين انكالاجون.

ثم أردف بصوتٍ قاتم:

_أنا أعرف أين تقع مملكة التّنانين، وإن حالفها الحظ فستُسجَن، وإن لم يحالفها فهي الآن وجبةٌ على المائدة.

ضحك عيّار رغم القلق وقال بثقة:

_أنت لا تعرف صديقتي بعد فهي دون أدنى شك ستلتهمه قبل أن يلتهمها، اسألني أنا لقد جعلتُ منها محاربةً شرسة، غير أنني لا أدري لِمَ تحبّ الطعام إلى هذا الحد!

نظر إليه حيزوم بحدة وقال: _يبدو أنّ هناك أحدًا نسي نفسه؟

وما هي إلّا لحظات، حتى تجسّدوا جميعًا كأحصنةٍ مجنّحة، وشقّوا عباب السّماء خلف الضّباب القاتم.

وحين هبطوا أمام غابة قلعة التّنانين، قال عيّار وهو يتلفّت حوله:

_وكيف سندخل؟

فأنا لا أنوي أن أكون وجبةً لهم.

وإن كان لا بدّ من التّضحية، فصديقي حيزوم سيكون وجبةً مشبعة، على عكسي فلحمي مُرّ!

قال حيزوم مستنكرًا: _تخونني دائمًا ما عهدتك هكذا.

قال الأملج ساخرًا: _وهل تذوّقت لحمك من قبل؟

_لا!

_إذًا كيف استنتجت أنه مُرّ؟

ثمّ قال الأملج بحزم:

_إليكم الخطّة، سندخل من شرفةٍ خلفيّة للقلعة، لكنّ أحجامنا لن تساعدنا، فعلى أحدنا أن يحلّق إلى الشّرفة ويحملنا على ظهره بهيئتنا البشريّة.

قال عيّار دون تردّد:

_سأفعل، وأخبروا قدر أنّني لم آكل شيئًا من أجلها، وأنتظرها لنقتسم وجبتنا معًا.

ودخلوا فعلًا من النّافذة، يسيرون على رؤوس أطرافهم، أنفاسهم تتقطّع، والعرق يقطر من جباههم، وعروق أعناقهم تنبض فوق الجلد، تنتفخ من شدّة التوتّر.

وفجأة، باغتهم تنينٌ صغير، تجمّد الاثنان في مكانهما، وانطلق الصّغير يعدو صارخًا بصوتٍ مدوٍّ، حتّى اهتزّت المملكة كلّها.

التفت حيزوم، فرأى الأملج يتضخّم تدريجيًا، يتمدّد، يتحوّل...

حتّى صار تنّينًا ذا سبعة رؤوس... نعم... إنّه هو، سِنفاير.

لقد خدعهما طوال الوقت، ليستدرجهما إلى القاعة.

صرخ حيزوم مذهولًا:

_كيف... كيف استطعت أن تصبح حصانًا وتخدعنا؟

قهقه سنفاير وقال:

_نحن شياطين يُطلق علينا التّنانين، بتعويذةٍ واحدة...

نصير ما نشاء، وكيفما نشاء.

اشتعل الغضب في صدر حيزوم، وأطلق صهيلًا زلزل أركان القاعة.

كان غضبه يتأجّج كبركانٍ مكبوت، يتصاعد في حلقه ككتلة نارٍ خانقة، كادت تنفجر حقًّا في صدره.

قال بصوتٍ يهدر: _لقد خنتني!

والخيانة في عالمي جُرمٌ لا يُغتفر، ولن تفلت بفعلتك ولو كان الثّمن حياتي!

وفي تلك اللحظة، دخل الجنود يجرّون عيّار مقيّدًا بالسلاسل، وألقوه أرضًا أمام حيزوم، ثمّ سحبوه إلى الزنزانة المجاورة لقدَر.

شعرت بهما، وشعرا بها، فصرخت باسميهما.

قال عيّار بصوتٍ متعب: _حمدًا لله... لم ينتهِ بك الأمر كلحمٍ مشويّ.

لم يخب ظنّي بك، كنتِ كما عهدتكِ... شجاعة، لكن اعذرينا، خُدعنا، وأصبحنا أسرى الآن.

قالت قدر بثباتٍ يشبه النّور:

_لنتضرّع إلى الله، لن ينسانا، وسنجد السّبيل باسم الله الأعظم.

قال عيّار وهو يرفع عينيه: _يا ربّ أخرجنا قبل أن نصبح طعامًا.

فقالت قدر بهدوءٍ عميق:

_احذر يا عيّار، إنّ الله لا يريد من الدعاء لسانك، وإنما يريد قلبك.

وفي اليوم التّالي، جثا الرفاقُ على رُكبهم أمام الملك، مقيّدين بالسّلاسل، تُثقل معاصمهم قيودُ الحديد، وتحاصر أعناقهم نظراتُ الموت.

قال الملك ساخرًا، وصوته يقطر احتقارًا:

_إذًا جئتم لتحرّروا أسرى، فأصبحتم أنتم الأسرى!

يروقني اللّعبُ مع الجبناء الفاشلين أمثالكم.

رفعت قدر رأسها عاليًا، وفي عينيها شررُ التحدّي، فبصقت في وجهه دون تردّد، وقالت:

_الجُبن يا حثالة أن تتحصّن بكلّ هؤلاء الجنود وتحسب نفسك شجاعًا أمام أبطالٍ مقيّدين!

أنت لست سوى حشرةٍ تدّعي أنّها تنين، أمّا التّنّين الحقيقيّ فيحارب رجلًا لرجل، بعدلٍ لا بخسّة.

ساد الصّمت، تبادلَت التّنانينُ النظرات، مندهشةً من جرأتها، تنتظر انفجار الغضب، لكنّ الملك ابتسم.

قال أنكالاجون ببطء: _يعجبني لسانكِ أيّتها الفارسة...

سنخوض حربًا شريفة، تحقيقًا لآخر أمنية للضحية.

فكّوا قيودهم، واتبعوني إلى ساحة المملكة.

وفي الساحة، تقلّص جسد الملك إلى هيئة بشر، وتسلّح الجميع بالسيوف.

أنكالاجون في مواجهة حيزوم، وسنفاير في مواجهة عيّار.

ارتفعت أصواتُ الحديد، وتشابكت السّيوف، وتطاير الشّرر في الهواء كأسراب نجومٍ مذبوحة.

اندفع سنفاير على عيّار بضربةٍ غادرة، فشقّ السيف كتفه، وانهمر الدم ساخنًا، لكن عيّار ردّ بطعنةٍ عميقة مزّقت فخذ التنين، فسقط الأخير على ركبةٍ واحدة، يزأر كوحشٍ جريح.

أمّا حيزوم، فكان يقاتل أنكالاجون بضربةٍ تُكسر بها الدروع، وأخرى تُسيل الدماء من الصّدر والذّراع، تشقّقت الأرض تحت أقدامهما، وتلوّنت الرّمال بلون القرمز.

وفجأة، وفي لحظةٍ خاطفة كوميض الموت، غرس حيزوم سيفه في بطن الملك، وشقّ ظهره شقًّا طويلًا.

صرخ أنكالاجون، وتضاعف حجمه، وتمزّق جسده البشري ليعود تنينًا هائلًا.

اندفع بأنيابه الطويلة نحو صدر حيزوم، وفي اللحظة التي همّ فيها بالانقضاض... انفجرت السّماءُ دمًا.

تناثرت الدماء في كل أرض المعركة، كأنّ الغيم يقطر مطرًا قاتمًا.

تلطّخ حيزوم بالدماء من رأسه إلى أخمص قدميه، اختلّ توازنه، ارتعشت يداه، وتجمّدت عيناه عن الرّمش... رأى المشهد ورأى الحقيقة.

جثا حيزوم على ركبته، والدّم لا يزال ينهمر حوله كأنهارٍ مجنونة، وشعر لأول مرّة أنّ هذا العالم بلا زمن.

صرخت قدر بصوتٍ شقّ قلب السماء: _عيّاااااار!

ثم صرخت ثانية: عيّار!

وانهمرت دموعها كموجٍ ابتلعه المحيط.

انتفض حيزوم من صدمته، وانحنى على جسد صديقه، يصرخ:

_لِمَ تلقيتها عنّي؟!

لِمَ ضحّيت بنفسك يا صاحبي؟!

كان عيّار يلتقط أنفاسه الأخيرة، مستلقيًا بدمائه على حضن حيزوم.

فتح عينيه بصعوبة وقال هامسًا:

_أنت صديقي... وإن لم أضحِّ لأجلك فلمن أضحّي؟

إن لم يكن دمي وجسدي وروحي فداءً لك فلمن يكون؟

هتف حيزوم وهو يهزّه بجنون:

_انهض لا تتركني وحيدًا لا تتركني للحزن يفتك بي!

ألستَ قويًّا؟

ما عهدتك مستسلمًا!

ابتسم عيّار ابتسامةً واهنة، وقال:

_الحبّ يا حيزوم، الحبّ يرمينا في التّهلكة، وما أروعها من تهلكة إن كانت في سبيل نجاتك.

أُغلق جفنيه تدريجيًا، وهبطت أجنحته كما تهبط آخر أوراق الخريف.

اقتربت قدر، تتحسّس نبضه المرتعش، وثيابها تُغسَل بالدموع، وشفتاها بالكاد تنطقان: _لا... لا... عيّار لا يموت... لا يمكنه...

وفي تلك اللّحظة، تفاقم حجم حيزوم فجأة، احتضن قدر بذراع، وحمل جسد عيّار بالذراع الأخرى، وضرب الأرض بقدمه فاختفى كليًّا عن أعين المملكة بأكملها.

استشاط الملك غضبًا، وصاح بجنوده زائرًا: _أريدهم أحياءً أو أمواتًا!

لا تعودوا إلا بجثمانيهما!

هبط حيزوم في مكانٍ مجهول، أرضٌ بلا أسماء، وسماءٌ لا تعرف الجهات.

ضمّ قدر إلى صدره، ودفن رأسها بين ذراعيه، فشعرت دون أن تراه، أن كتفيه يهتزان... كان يبكي.
مزّقت قدر طرف أحد أكمامه، وانحنت تمسح الدّم عن وجه عيّار، بأصابع ترتجف كأوراقٍ في مهبّ الريح، لتحتفظ له بآخر صورةٍ بلا دماء.

طوت قطعة القماش، وأخفتها في جيبها، كأنها تخبّئ قلبًا لا قماشة.
تحرّرت روح عيّار من جسده، نهض طيفه خفيفًا كنسمة فجر، واقترب منهما مبتسمًا.

قال بصوتٍ لا يشبه أصوات الأحياء: _لا تبكيا على موتي فموعدُنا الجنّة.

رفع حيزوم رأسه، والدّموع تشقّ مجاريها على وجهه، ونظر إلى عيّار وقال بصوتٍ مكسور:

_أحبك... أحبك يا صاحبي، وليتني استطعت أن أكون صديقًا يليق بك.

ابتسم عيّار ابتسامة الصّفح، وقال: _لقد كنتَ أفضل ممّا تتوقّع.

ثمّ التفت إلى قدر، وعيناه تلمعان بوداعٍ أخير، وقال:

_أيّتها الفارسة... لو لم أمت، لكان شرفًا عظيمًا لي أن أخوض نزالًا مع خصمٍ شجاع مثلك، ما صنعتِه أمام الملك لا يجرؤ عليه إلا فارسةٌ خُلقت للحروب.

وسكت لحظة، كأنّ روحه تتعلّق بآخر خيطٍ من الدنيا، ثمّ قال مبتسمًا بمكرٍ حزين:

_ادفنا جسدي تحت أشجار النّخيل والأعناب، كي لا أتضور جوعًا في الليل.

ثمّ خفت نوره، وتلاشى طيفه رويدًا كما يتلاشى الدّعاء حين يصل إلى السّماء، وبقي المكان صامتًا، لا يسمع فيه إلا بكاء الأرض على فارسٍ رحل.

نهض حيزوم ببطء، مسح دموعه بطرف كمه، ومسح دم عيّار عن وجهه، كأنما يريد أن يمحو عن ملامحه آخر أثرٍ للألم.

ثمّ أمسك بيد قدر، وحلّق بها بعيدًا حتى هبطا في أرضٍ خصبةٍ خضراء، تفوح منها رائحة الحياة، وتتدلّى من أشجارها الثمار كأنها عزاءٌ من السماء... هناك دفنا جسد عيّار.

وقفت قدر عند القبر، وصوتها يرتجف وهي تتلو مواساة الصابرين:

﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾

ثمّ قرأت الفاتحة على روحه، وانتزعت غصن الياسمين من ضفيرتها، ووضعته على قبره، وانحنت تقبّل التراب، فابتلّ التراب بدمعها، كأنّها تسقيه قبل الرحيل.

قال حيزوم بصوتٍ خافت، وفي نبرته عزمٌ لا ينكسر:

_لا يجوز أن يذهب موت عيّار سدى علينا أن نحقّق الهدف، لا يمكن أن نخسر الغاية والرفيق معًا.

قالت قدر: _الحقّ معك، ولكن كيف سنعرف الطريق؟

البساط ضاع منّا، وكان وحده القادر على إيصالنا إلى الغابة، والوقت ينفد... لم يبقَ سوى خمسة عشر يومًا!

توقّف حيزوم فجأة، وأخذ يتفحّص المكان بعينين متّقدتين، لمعت عيناه.

تعجّبت قدر، ولم تفهم بعد، ثم تبعت نظرته وما إن تأمّلت الأرض جيدًا حتى اتّسعت عيناها فرحًا.

نعم هذه هي، هذه الأرض التي هبطا فيها صدفة هي غابة سيهانبا، كما وصفها العجوز يعقوب: أرض خضراء، مياهها غزيرة، وثمرها وفير.

اندفعا يفتّشان عن الصخرة التي تحمل نقش الشمس نصف المكتملة.

ومضت السّاعات حتى يئست قدر، وجلست على العشب تضرب أحد الصخيرات بقدمها غضبًا.

رآها حيزوم، فخاف أن تؤذي نفسها، أسرع إليها، وأمسك قدمها، ودفعها بعيدًا بحزم:

_هذا لن يفيدنا، وإن تأذّيتِ فسنفشل، وسيضيع دم صديقي هباءً، ثم أشاح بنظره عنها وتسمّر بصره فجأة على تلك الصخرة.

اتّسعت عيناه وقال: _قدر انظري.

لم تبالِ.

قال وهو يهتف: _إنّها الشّمس!

التفتت كبرقٍ خاطف: _أين؟

أرني!

اقتربت، وتأمّلت النقش، ثم صاحت بفرحٍ خالص: _نعم إنها هي!

وجدناها أخيرًا، الحمد لك يا ربّ، الحمد لله.

قال حيزوم: _هيا، المسِي النّقش.

وما إن لامسته بكفّها حتى انشقّت الغابة والبحيرة، كما أخبرهما يعقوب، دخلا النّفق، ووجدا سردابًا يهبط إلى الأسفل، نزلا درجًا بعد درج، حتّى إذا وطئا الدرجة الأخيرة سقطا في قريةٍ تكتظّ بالبشر، والشّمس ساطعة في كبد السماء.

أخفيا أعينهما لا إراديًّا، فقد مضت أيامٌ لم يُبصرا فيها النّور.

تدرّج البصر في التأقلم، ونهضا معًا.

قالت قدر: _أين نحن؟

وكيف سنجد والديّ وسط هذا الحشد؟

تقدّم حيزوم، وسأل أحد المارّة: _عذرًا... أين نحن؟

قال الرّجل: _أنتما في قرية آرام.

تراجعا خطوة، ونظر إلى قدر.

قالت بثقة: _الحمد لله سنستطيع التجوّل بحرّيّة هنا.

قال متعجّبًا: _ولمَ هذه الثقة؟

قالت: _لأنّ آرام تعني: الهدوء، والسّكينة، والأمان، والرّاحة، والعلوّ.

تجوّلا في القرية، واشترى حيزوم خبزًا أسمر لقدر، وقد رهن عصبة جبينه، إذ لا مال معه.

قالت: _لمَ فعلت هذا؟

أنا لست جائعة، استرجع عصبتك، لا تضحّي بها لأجلي.

قال بهدوءٍ قاطع: _لأجلك أضحّي بأيّ شيء.

قالت: _بأيّ شيء؟

قال: _نعم، بأيّ شيء.

وبعد أن فرغت من الأكل، اقتربت قدر من امرأةٍ بثوبٍ بني، وأمسكت بطرف ثوبها قائلة: _معذرة أيّتها السّيّدة...

التفتت المرأة: _من أنتِ؟

قالت: _هل تساعدينني في العثور على زوجين اسمهما آدم وإيفا؟

تأمّلتها المرأة طويلًا، تتفقّد أجنحتها، وعنقاءها، وشاماتها... ثمّ قالت:

_اتبعيني.

قالت قدر: _لحظة... معي صديق.

وسارا معها، لم تنطق المرأة بكلمة.

قال حيزوم بحذر: _عفوًا، هل تعرفين حقًّا مكان مسكنهما؟

وصلوا إلى بيتٍ قديم، ودخلا، فقالت المرأة بلهجةٍ غامضة:

_من دلّكما إلى هنا؟

وهل تعلمان عواقب فعلتكما؟

قالت قدر بحدة: _ماذا تقصدين؟

ولِمَ نجيبك على أسئلة لا تعنيكِ؟

إن لم تستطيعي المساعدة فلا تضيّعي وقتنا.

نهضت لتغادر فقالت المرأة فجأة: _أنا شمس.

توقّفت قدر شعرت برجفةٍ غريبة قالت ببطء: _شمس؟

_نعم، وأعرف من تكونين، ولكن اعلمي أنّكِ لن تستطيعي تحقيق هدفك.

قالت قدر بثبات:

_سابقًا ارتكب جدّي خطيئة بسبب حبّه لكِ، لكنّني لست هو، ولن أقع ضحيّة أكاذيبك.

وغادرت، وخبطت الباب بقوة، وقالت لحيزوم:

_هيّا، اجتزنا الكثير، ولن نضعف الآن أمام مهمةٍ تبدو سهلة كهذه.

كانت شمس تراقبهما وهما يغادران.

نظر حيزوم إلى قدر وقال: _ألا تشعرين أنّكِ قد قسوتِ عليها؟

قالت بصوتٍ متهدّج:

_لا يمكنني الوثوق بأحد، لقد وثقنا من قبل بالمدّعي سنفاير، وكان ثمن تلك الثقة خسارةً فادحة.

ثمّ خفّضت رأسها، وقالت بنبرةٍ كسيرة:

_رغم أنّني أسير على قدميّ، أشعر أن روحي قد بُترت، وتناثرَت أجزاؤها في أيسر صدري، هناك وخزةٌ لا تكفّ عن الأنين على أوتار الفاجعة.

سكتت لحظة، ثم همست:

_عيّار لم يكن مجرّد خسارة يا حيزوم، إنّه وجع العمر، ولن يأتي الزمان بمثله قطّ.

ربّت حيزوم على رأسها كطبطبةٍ حنونة، وقال بصوتٍ مبحوح:

_أقدّر ما تشعرين به، لكن فاجعتي لا تقلّ عن فاجعتك، إن كنتِ عرفته أيامًا معدودة، فأنا عرفته منذ أن وُجد عالم الجِنان، أي بقدر عمرك كلّه.

ثمّ أضاف بهدوء:

_غير أنّني أتبع حدسي، وقلبي يخبرني أنّ تلك المرأة تريد مصلحتنا، وإن لم يوحِ شكلها بذلك، أما سنفاير فمنذ اللّحظة الأولى شعرتُ أنّه خائن، غير أنّ سوء الحظّ أجبرنا على الوثوق به.

وتنهّد قائلًا:

_هكذا هي الحياة، تُرغمك أحيانًا على مجاراة من لا يشبهك، وعلى الخضوع لمن لا يستحقّ، وتدفعك إلى الثّقة بالخونة حين لا تجدين مرسىً ينتشلك من الغرق.

والأهمّ يا قدر، أن نتعلّم من دروسها، وألّا ندع الفوضى التي خلّفتها تمضي هباءً.

أشاحت قدر بنظرها وقالت: _لكن هذا أكثر ما يخيفني.

قال: _وما الّذي يخيفك؟

قالت بصدقٍ مرتجف: _حدسي.

منذ أن رأيتها وأنا أشعر أن هناك، شيئًا أعرفه، بل أعرفها، كأنني التقيتها من قبل.

وتابعت:

_رغم أنّ شكلها لا يشبه أحدًا في هذا العالم، بل اسمٌ على مسمّى يا حيزوم، ألم ترَ؟

شعرها كسبائك الذّهب، وعيناها كقرص شمسٍ قادحة، وحتّى بشرتها ليست بيضاء ولا سمراء، تشعر وكأنّ الشّمس تتنفّس تحت جلدها.

سكتت ثم قالت:

_ولهذا أخاف أن أثق بها، فتتدنّس تلك الصورة في عيني.

قال حيزوم:

_أنتِ محقّة، لكنّنا غرباء هنا، دعينا نمنح شمس فرصةً واحدة.

وبعد عنادٍ طويل، استسلمت لفكرته، عادا أدراجهما، وخبطا مطرقة الباب.

فُتح الباب فورًا، كأنها كانت تقف خلفه تنتظر عودتهما وتوقنها.

قالت شمس بهدوء: _علمت ذلك، ادخلا لنتحدّث.

جلست قدر على كنبةٍ نصف دائرية، معلّقة في الهواء كأرجوحةٍ بلا حبال، لم تكن كنبةً عادية، بل قوس قزح في الشكل والملمس.

قالت شمس: _هل حقًا تنوين العثور على آدم وزوجته؟

قالت قدر: _نعم.

قالت: _وهل تعلمين من هما حقًا، وما مكانتهما في عالم اللازمان؟

قالت: _كل ما أعلمه أنّهما والداي، وأنهما محتجزان هنا بسبب خطيئة جدّي عمّار.

تعجّبت شمس، وكادت تفصح عن الحقيقة، لكنّها خافت ممّا وراء كذبة عمّار، فآثرت الصمت، ثمّ قالت:

_سأقودكما إليهما، لكن هناك حقيقة لا يسعني قولها الآن، ستكتشفانها بأنفسكما.

قالت قدر: _لا عليكِ، دلّينا فقط، وأرجو ألّا تخوني ثقتنا بكِ.

سارت بهما، حتى وصلا إلى بيتٍ مرموق مقارنة ببيوت القرية.

توقّفت شمس وقالت: _ستجدانهم هنا أما أنا... فعليّ الرحيل.

ثمّ التفتت إلى قدر، وأمسكت كفّيها بين راحتيها، ونظرت إليها بنظرة حبٍّ خفيّ، وقالت بصوتٍ يفيض دفئًا ووصيّة:

_أرجو أن تجدي ما حُرِمتِ منه، وأن تستردّي حقّكِ المسلوب قسرًا.

وإن ضاق صدركِ يومًا، فاطرقي بابي ستجدينني متوسّدةً عتبته، أنتظر وقع خطاكِ بشوقٍ لا ينام، **سأكون شمسكِ حين يرخي الظلام أشباحه على قلبك، وأوقد لكِ نورًا لا تطفئه ليالي اللازمان.**

ثم تركتهما، ومضت.

طرق حيزوم الباب ثلاث طرقات متتابعة، فارتدّ صدى الخشب في الممرّ الخافت ارتداد نبضٍ متوتر، ثم انبعث من الدّاخل صوت طفوليّ وديع، يختلط فيه الحذر بالبراءة: _من الطارق؟

أجاب حيزوم بصوتٍ حاول أن يكسوه ثباتًا:

_أنا حيزوم، وبرفقتي قدر، ونلتمس لقاء العمّ آدم وزوجته إن تكرّمتم.

خيّم الصمت لحظاتٍ ثقيلة، حتى خُيّل إليهما أنّ الهواء نفسه قد تجمّد في صدر الدّار، ثم انفرج الباب قليلًا، وظهرت امرأة في منتصف الأربعين، ملامحها مشدودة كوترٍ مشحوذ، ونظرتها قاسية كحدّ السكين، وقالت ببرودٍ جاف: _من أنتما؟

وبماذا أستطيع خدمتكما؟

تقدّمت قدر خطوة، تتفحّص وجه المرأة في حذرٍ دفين، فلم تجد في قسماته ما يستدعي ألفة أو يوقظ حنينًا، فقالت بهدوءٍ مشوب بالترقّب:

_هل أنتِ السيدة إيفا؟

_نعم، أنا هي.

قالت قدر بصوتٍ متماسك يخفي ارتجاف القلب:

_أنا حفيدة الجد عمّار، وأنتِ تكونين...

قاطعتها المرأة بحدّةٍ مباغتة: _حفيدة من؟

والدي لا يملك أبناء غيري، وأنا لم أقدّم له حفيدة قط.

ثمّ قبضت على مقبض الباب وأضافت بلهجة قاطعة: _طلبكما ليس هنا.

وهمّت أن توصد الباب في وجهيهما، غير أنّ حيزوم اندفع فجأة، ودفع الباب بقوّة، وسحب قدر من يدها إلى الدّاخل، وأزاح المرأة جانبًا، ثمّ صاح بصوتٍ دوّى في أرجاء الدار: _أيّها العم آدم!
إن كنت شجاعًا بما يكفي، فلا تختبئ خلف امرأة جاحدة!

ابنتك هنا، وقد قطعت مسافاتٍ طويلة، وخاضت أخطارًا جسيمة لتلقاكما.

تحلَّ بالجرأة، واخرج لرؤيتها!

وإن كان الخوف سبب تردّدكما، فأنا وقدر سنفعل المستحيل لنستعيد عالمكما الحقيقي، حيث تقطنان مع الجد وابنتكما كما تفعل كلّ العائلات.

خرج آدم من الغرفة المجاورة بخطًى متثاقلة، وألقى على قدر نظرة ازدراءٍ فظّة، ثمّ التفت إلى حيزوم وقال بلهجةٍ متعالية جافّة:
_إن كنت تجهل الحقيقة، فاحفظ لسانك مع من هم بعمر والديك.

تفجّر الغضب في صدر حيزوم، فقبض على يد قدر بعنفٍ من غير أن يشعر، وقال محتدًّا: _لا يشرفني أن يكون من مثلك أبًا لي!
أما قدر فظلّت واقفة كتمثالٍ من صبر، لم تبكِ، لا لقسوة الكلمات، ولا لقبضة اليد التي حفرت آثار أصابعها في معصمها.

وحين تنبّه حيزوم إلى ما فعل، ارتعش جسده، وتراجع خطوتين إلى الوراء، وسحب يده كأنّ نارًا لسعته، وقال مذعورًا: _أعتذر... أعتذر... لم أنتبه... هل آلمتك؟
تكلّمي... لا تصمتي... قولي أيّ شيء.

لكنّها لم تكن تسمعه، كان بصرها قد انشدّ إلى ظلّ طفلة تقف خلف السّتائر، تحدّق في المشهد بعينين مرتعشتين.

تجاوزت قدر الجميع، ومضت نحو الطّفلة، ثم جلست على ركبتيها أمامها، وفي عينيها بريق براءةٍ ممتزج بحنينٍ غامض، وقالت بلطفٍ دافئ:

_ما اسمكِ أيّتها الصغيرة؟

نظرت الطّفلة إلى والديها تستأذنهما بعينيها، ثم همست بصوتٍ خافت:

_اسمي مسال.

_ وكم عمركِ؟

_سبعة أعوام.

_هل لديكِ إخوة؟

_لا.

جالت عينا قدر في أرجاء المكان، تبحث عن أثرٍ يشبهها، عن خيطٍ سرّيّ يربطها بهما...

وحين خاب رجاؤها، عادت بنظرها إليهما وقالت بصوتٍ حاسم لا يقبل المواربة:

_إذن قصّا عليّ الحقيقة كاملة، لن أبرح هذا المكان حتّى أبلغ مناي، مهما كانت الحقيقة مُرّة، أريد سماعها الآن.

لم يتبقَّ لي سوى ثلاثة عشر يومًا، والحقيقة وحدها ستعينني على العودة إلى دياري.

نظرت إيفا إليها طويلًا، نظرةً باردة، ثمّ قالت بصوتٍ قاتل:

_نحن لسنا والديكِ... بل عمّار.

ارتجفت قدر، وقالت مذهولة: _ماذا؟

ووالدتي؟

من هي؟

وما هذا الّذي تتفوّهين به؟

عمّار هو جدّي... وكل ما نحن عليه الآن...

قاطعتها إيفا بلهجةٍ حاسمة:

_أجل، كل ما أنتم عليه الآن بسببي ولست نادمة.

صُعقت قدر، وشعرت أنّ الأرض تُسحب من تحت قدميها حجرًا حجرًا، وأنّ الحقيقة الّتي عاشت عليها تتهاوى كجدارٍ واهن، قالت بصوتٍ مرتجف: _أخبريني كيف يعود الذّنب عليكِ؟

تنهّدت إيفا طويلًا، كأنها تنتزع حكايةً مطمورة من قاع روحها، ثم قالت:

_منذ ما يقارب ثمانية عشر عامًا، كان أبي عمّار فقيرًا منعزلًا، لا يجيد غير الخلوة في مكتبه والكتابة لليالٍ وسنوات.

كان وجوده في البيت كطيف شبحٍ أبكم، ورغم أنّ وفاة أمي كانت ثمرة حالته تلك، فقد كنت أنا الضّحيّة، عالقة بين فقد أمّي وأنانيّة أبي.

وفي يومٍ ما، دخلتُ مكتبه رغم تحذيره الصارم، ولم أكن أعلم أنه قد ألقى تعاويذ خفيّة على كتبه، وأنّ من تمتدّ يده إلى أحدها يُنفى من العالم الواقعيّ إلى جوف الكتاب الذي اختاره.

عثرتُ على كتابٍ بنفسجيّ الغلاف، عنوانه «الجنان».

كانت الرّواية ناقصة، لم يفرغ أبي من نهايتها بعد، وما إن فتحتُ صفحاته الأولى حتّى وجدتُ نفسي منزوعة من الواقع، مُلقاة في أرض الجنان.

أغوتني مفاتنها، وسكرت روحي بألوانها، فعزمتُ على البقاء فيها، جاء أبي يستدرجني بالحيلة والرّجاء لأعود قبل انقضاء الثلاثين يومًا، فالتعويذة لا تصمد إلا لهذه المهلة: _ إما أن تعودي... أو تبقي أسيرة إلى الأبد.

هناك، للمرّة الأولى، شعرتُ بالانتماء، وجدتُ عالمًا يستحقّ أن أعيش فيه، على غير تلك الوحدة القاسية الّتي عشتها مع أبي.

هنا ارتعش قلب قدر، وشعرت كأن إيفا لا تحكي حكايتها... بل تحكي مرآتها هي: العزلة ذاتها، والشّعور ذاته بعدم الانتماء، وظلّ أبٍ حاضرٍ بالجسد، غائبٍ بالرّوح.

تابعت إيفا بصوتٍ انخفض كمن يستعيد جرحًا قديمًا:

_في تلك المدّة، وقعتُ في حبّ آدم...

أوّل شخصيّة كتبها أبي في أرض الجنان، وتزوّجنا فعلًا.

وقبل انقضاء الثلاثين يومًا بيومٍ واحد، جاء رجل ذو لحية طويلة.

رفعت قدر رأسها فجأة، وكأنّ برقًا ضرب خاطرها، وقالت:

_أتقصدين العجوز يعقوب؟

_ابتسمت إيفا ابتسامة مُرّة وقالت: _نعم... هو بعينه، أبي عمّار متنكّرًا.

هل ظهر لكم بتلك الهيئة؟

_"نعم"

قالت قدر: _وقد شعرتُ به منذ اللّحظة الأولى، لكن السّعي للمهمّة أعماني عن إبصار الحقيقة.

قالت قدر بصوتٍ متهدّج: _إن كان عمّار أبي... فأنتِ أختي؟

ومن تكون والدتي؟

ولم أخفى عنّي أنّه أبي لا جدّي؟

أطرقت إيفا برأسها وقالت: _لأنّه كان يخشى خسارتكِ... كما خسرني.

سألتها قدر بقلقٍ ينهش صدرها: _كيف ذلك؟

_حين رفضتُ العودة وانقضت المهلة، قرّر أبي أن يستوطن أرض الجنان ويتخلّى عن الواقع ليكون بقربي، لكنه اقترف خطيئة كبرى، فطُرد بسببها.

_كيف طُرد؟ وكيف عاد؟

_لا يعود إلّا ثلاث ساعات، يكتب المكان والزّمان على صفحاتٍ فارغة من الكتاب، فيحضر روحًا لا جسدًا، وحين تنقضي السّاعات تُمحى الصفحات من تلقاء نفسها، فالكتاب توقّف عن قبول أيّ كتابة منذ لمسته يدي.

سألت قدر بصوتٍ خافت: _وما هي خطيئته؟

سكتت إيفا لحظة، كأنها تجمع شتات ذاكرةٍ دامية، ثمّ قالت:

_في سماء الجنان الأولى، وبعد عامٍ كامل من وحدته، انبثق من الشّمس نور، وتحوّلت إلى امرأة.

شعرها كسبائك الذّهب، وعيناها كقرص شمسٍ قادح، وبشرتها ليست بيضاء ولا سمراء، بل كأنّ الشّمس تتنفّس تحت جلدها.

وقع أبي في غرامها، وعلمت هي أنّه هو من كتب قصّتها في السّماء، فتزوّجا.

وأنا لم أحتمل فكرة أن يتزوّج أبي بعد وفاة أمّي، فتسرّب الحقد إلى قلبي، وفكّرتُ في الانتقام.

ثمّ أمطرت الجنان ثلجًا بلوريًّا، وزفّت اليمام خبر حمل الشّمس، فأعماني الغضب، واستدرجتها إلى أنهار العسل، وقلت لها إنّني نادمة، وإنّني أريد أن نكون عائلة، وحين احتضنتني بثقةٍ وأمومة طعنتها في ظهرها فشحبت السّماء، ورعدت، وتلاشت ألوان الجنان، وتلت السّماء الآيات:

﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ...﴾

﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ...﴾

وعندها أخذت عقابي ونُفيت إلى عالم اللّازمان، فالخيانة بأرض الجنان جرمٌ أكبر.

قالت قدر بصوتٍ متهدّج بخشوعٍ مكسور:

_سبحانك ربّي، لا تترك حقّ عبدك.

قالت إيفا بصوتٍ واهن:

_لم تمت الشّمس، بل شُفيت، وخلقت ابنة من رحمها...

أنتِ خُلقتِ من رحم الشّمس يا قدر.

اتّسعت عينا قدر ذهولًا، وانجلت أمامها فجأة كلّ الأسئلة، وتكشّفت تلك الحقيقة النّاقصة الّتي ظلّت تطاردها بلا تفسير.

قالت بصوتٍ مخنوقٍ بالرضا والوجع:

_عسانا نشقّ طريقًا إلى الجنّة بصبرنا على الابتلاءات...

رضينا يا خالق الأكوان... فارضَ عنّا.

ثم خرجت من المنزل شاحبة الوجه، تائهة الخطى، كأنّ روحها تُسحب منها سحبًا.

خارت قواها، وجثت على الأرض بلا حولٍ ولا قوّة، كأنّ العالم سلبها طاقتها دفعةً واحدة.

هرع حيزوم إليها، وضمّها إلى صدره، ودفن رأسها بين ذراعيه وقال بحزمٍ مشوب بالحنان:

_ابكي قدر ما تشائين... لكن تذكّري أنّ هدفك أصبح علنيًّا الآن، ولا يحقّ لكِ الاستسلام، لن أسمح لكِ بذلك.

توقّفت قدر عن البكاء فجأة، كأنّ خاطرًا جللًا انبثق في ذهنها، واكتشافًا خطيرًا تكشّف لها في اللحظة ذاتها.

قالت بصوتٍ خافتٍ يختلط فيه الذّهول باليقين:

_حيزوم... جدّي، بل أبي...

ليس مخطئًا، لقد أفصحت إيفا، دون أن تعي، عن سرٍّ دفين.

تجمّد حيزوم في مكانه، وقال وقد أثقلته الأسئلة: _وكيف ذلك؟

لقّنِي عقلي الفكرة، فقد عجز عن استيعاب هذا السّيل من الحقائق.

تابعت قدر:

_إنه يظنّ نفسه الجاني بنفي أبنائه، بينما هم هنا بإرادتهم، راضون، سعداء.

أشعر أنّ خلف هذا كلّه أمرًا أعظم مما نراه.

_وكيف نبلغه؟

_لا بدّ أن نقابل الشّمس... هي وحدها تعلم كل شيء.

قصداها، وطرقا بابها، وما إن دخلا حتّى بادرت قدر دون مواربة:

_لماذا تخفيان الحقيقة عن أبي؟

ولماذا يعتقد أنّه المخطئ، بينما ابنته اختارت تلك الحياة طوعًا لا قسرًا؟

أشارت الشّمس إليها أن تجلس، وقالت بنبرة أثقلها الإرهاق:

_اجلسي، فقد آن لي أن أدفن هذا السّر خارج صدري، بعد سنواتٍ من كتمانه.

حين طعنتني إيفا، وأُسرتُ في الفراش حتّى ولادتك، كان عمّار غارقًا في الحزن، يجلد نفسه على ما حدث، حزنًا عليّ، وانكسارًا لأجل ابنته، وحين شُفيتُ وجئتِ أنتِ إلى الدنيا، قال: سنسمّيها «قدر».

_ولماذا هذا الاسم؟

_لأنّكِ ثمرة القدر الّذي جمع بيننا، ولأنّكِ لم تكوني ضمن سطور الرّواية... ولادتكِ كانت قضاءً من الله لنا كلينا.

_وهل علم أبي أنّ إيفا هي من طعنتكِ ونُفيت بسببها؟

_علم، لكن ليس كما حدث حقًّا.

_كيف؟

_كذبتُ عليه، لم أشأ أن أزرع في قلبه حقدًا عليها، فادّعيتُ أنني من نفيتها كرهًا بوجودها، وأنّ الطعنة كانت من جنديٍّ مجهول.

سكتت لحظة، ثم أردفت:

_حين علم، لم ينطق، لم يغضب، لم يعاتب، حملك بين ذراعيه، ودون أن ينظر إليّ قال:

"سآخذ ابنتي إلى عالمي... لا أريد لها أن تعيش هذه الحياة مع أمٍّ قاسية".

قالت قدر بصوتٍ مرتجف: _ولِمَ بقيتِ هنا؟

ألسْتِ شمس الجنان؟

_بلى، لكنّ الخداع والكذب ينتهكان قوانين الجنان.

وهنا أضاء الفهم في عيني قدر، وقالت:

_إذًا... أنتِ سبب نقص الشّمس، لذلك هي نصف مكتملة دائمًا!

_نعم، أنتِ نصفي الآخر يا قدر.

خُلقتِ من رحمي، فكلانا يُكمل القرص، أنتِ لم تُنفَي منها، أما أنا... فنُفيت.

_ألا سبيل لاسترداد حقّك وإخبار والدي؟

_أستطيع إن أردت، لكنّني لا أقوى على مواجهة عينيه.

نهضت قدر وقالت بهدوءٍ حاسم:

_شكرًا لصدقك، أمّا الآن... فعلينا الرّحيل.

قالت الشمس وهي تودّعها: _حين تحاصركِ المخاطر، اتّبعي حدسكِ...

سيقودكِ للنّجاة، أنتِ لستِ فتاة عاديّة يا قدري.

توقّفت قدر عند وقع اسمها وشعرت بنيزكٍ يعبر قلبها، ذاك الحبّ الخالص، غير المشروط، الّذي بحثت عنه طويلًا...

وجدته، لكنّ بينهما حاجزًا خفيًّا لا يُرى.

هكذا هي الأقدار، تسقينا الوحدة، وحين نمدّ أيدينا للأمل، تنتزعه منّا لنقتات الخيبة من جديد.

حبست دمعتها، وخرجت قائلة لحيزوم:

_علينا العودة إلى أرض الجنان، وقبل ذلك يجب أن نغادر آرام ونعود إلى الغابة... عليّ أن ألتقي بأبي.

_وأين ستجدينه؟

_في الكوخ نفسه... لعلّه ما زال ينتظرني.

_وكيف سنخرج؟

تقدّمت الشّمس، وقدّمت لقدَر قفلًا ضخمًا، منقوشًا بنصف شمسٍ وأجنحة، وقالت:

_حين يحلّ الظّلام، افتحي به أيّ باب في هذا العالم، شرط أن تتخيّلي المكان الّذي تريدينه، هذا المفتاح يفتح أبوابًا على إطلالة تختارينها أنتِ.

وحين أرخى اللّيل سدوله، فعلت قدر ما قيل لها، ومض بريقٌ خاطف، وحين انقشع، وجدت نفسها أمام كوخ يعقوب.

طرق حيزوم الباب ثلاثًا، ولم يُجب أحد.

قال:

_يبدو أنّه ليس هنا... وتذكّري، وجوده لا يتجاوز طيف ثلاث ساعات.

وبينما هما يتجادلان، جاءهما صوتٌ مألوف من الخلف:

_أيّتها الفارسة... والخيل الأصيل.

استدارا معًا، وكانت الصدمة.

_عيّار!

_اشتقت لكما يا صديقيّ... كيف دفنتماني حيًّا؟

انسابت دموع حيزوم وهو يقول: _كيف؟

لقد متَّ حقًّا، ورأينا روحك تغادر جسدك!

ضحك عيار وقال: _تسألني عمّا لا قيمة له وأنا أقف أمامك؟

ثمّ اقترب من قدر واحتضنها بقوّةٍ كادت تكسر أضلاعها، وقال:

_كيف حال فارستنا الشجاعة؟

لم تستفق من دهشتها إلّا لتقول:

_أنا بحالٍ تدفعني لخوض نزال مع فرسٍ جسور.

ساروا معًا نحو الكهف القديم، جلسوا يستعيدون مغامرات الأمس، حتى قاطعهم عيار قائلًا: _أريد أن آخذكما إلى قصري.

_قصرك؟

_نعم، قبيلة أنقذتني من القبر وأنا أقاوم الموت، لكنّ بقاءنا هنا يعرّضنا للخطر.

وحين بلغا بوّابة القصر المجهول، ارتفعت أسواره كأنّها خُلقت من ظلالٍ لا تعرف الشّمس.

التفت عيّار إليها وقال بنبرةٍ وديعة تخفي ما تحتها: _ألستِ جائعة يا قدر؟

ابتلعت ريقها وقالت وهي تضع يدها على بطنها:

_أشعر أنّني سأموت إن احتملت الجوع دقيقةً أخرى.

دخلا مجلس الطّعام، سقفه شاهق، وثريّاته تتدلّى كعيونٍ مترصّدة، وبينما كانت المائدة تُعدّ، سألت قدر وهي تتأمّل الفراغ من حولها:

_أين أولئك الذين أنقذوك؟

ابتسم عيّار ابتسامة جانبية وقال: _سترينهم بعد العشاء، لِمَ العجلة؟

_أودّ شكرهم على إنقاذك.

قال وهو ينهض: _سأستعجل الطعام وأعود.

ما إن غادر، حتّى اقتربت قدر من حيزوم، همست في أذنه بجملةٍ خاطفة، ثم تراجعت كوميض البرق إلى مكانها.

عاد عيّار سريعًا وقال: _الطّعام جاهز الآن... هيّا يا رفاق.

رفعت قدر رأسها، واستنشقت الهواء ببطء، ثمّ قالت وهي تحدّق فيه:

_أشمّ رائحة الياسمين هنا... لكنّني لا أراه.

هل يمكنك أن تجلبه إليّ؟

قهقه عيّار بسخرية وقال: _لا يوجد ياسمين هنا.

قالت بثباتٍ مريب: _بل إنني أشمّه، ابحث لي عنه.

اقترب منها بعينين ضيّقتين وقال باحتقار:

_وهل تجدينني كلبًا يتبع روائح الزّهور؟

كلي... ألستِ جائعة؟

في لحظةٍ خاطفة، أمسكت قدر بالسّكّين وقذفتها نحوه، تفاداها بخفّة، لكنّ عينيه اشتعلتا نارًا، واصطبغتا بالأحمر القاتم.

قالت وقد انكشفت أنياب غضبها: _تظنّ نفسك ذكيًّا؟

لقد كشفتك منذ اللّحظة الأولى يا غبيّ، الشّياطين والجانّ لا يملكون ظلًّا، حتّى وإن تجسّدوا في صورة بشر.

وعند الكهف...

لم أرَ ظلّك ينعكس على صفحة النّهر تحت نور القمر، فعلمت أنّك لست هو، أمّا صديقنا عيّار فيتبع رحيق الزهور ويحبّها، وأعلم يقينًا أنك دسست السّمّ في الطعام.

وبينما كانت تشتّت انتباهه بالكلام، نفّذ حيزوم ما همست به في أذنه:

_سأُماطل وأنت باغته من الخلف وقيّده.

انقضّ عليه حيزوم، وما إن أمسك به حتّى هطلت الجنود من كلّ اتّجاه، واهتزّ القصر بأسره، انفجر الجسد المزيّف، وتفكّكت الهيئة البشريّة، ليظهر سنفاير، التنّين الشّيطانيّ، ذو الرّؤوس السّبعة.

_اقبضوا عليهما فورًا!

دارت قدر بنظرها، فتذكّرت كلمات حيزوم: _الأشباح...

رداؤهم أسود، يحملون فؤوسًا، وشعارهم عنكبوتٌ مقموع الأوتار.

شدّ حيزوم على يدها وقال:

_احمي ظهري، وحرّري كلّ شجاعتك، أثق أنّك لن تخذليني.

قاتلا كأنّهما آخر من بقي في هذا العالم...

مراوغة، صدام، دماء، جراح تشقّ الجسد برؤوس الفؤوس.

وفجأة... دوّى صراخ حيزوم، صهيلًا ممزّقًا، كأنّ أضلاعه انتُزعت من صدره، سقط على ركبةٍ واحدة، وقد غُرست الفأس في لحمها.

صرخت قدر، وقد انطفأت الرّحمة من ملامحها، أغمضت عينيها، تبحث في أعماقها عن حدسٍ ينقذ من تحبّ من الموت.

وحين فتحتهما... لم تعُد كما كانت، اصطبغت عيناها بالأرجوان القاتم، تفاقم جسدها، وانشقّ قميصها من الخلف...

فانبثقت أجنحة عملاقة بلون نار الشّمس، تسارعت عروقها خارجةً من الجلد، وشعرها اشتعل كلون براكين عتيقة آن أوان انفجارها.

حلّقت... ثم انقضّت.

غرست أنيابها في قلب سنفاير، واخترقت صدره حتّى خرجت يدها من ظهره، ثمّ سحبته إليها وهي تقبض على قلبه النّابض.

تساقط الدّم على ذراعها، ووقفت وسط بركةٍ قرمزيّة، فيما هوى التّنّين كجبل، وتناثرت رؤوسه السّبعة، وسكن إلى الأبد.

وبينما كان حيزوم يصارع الموت، التفتت قدر إلى الشياطين المجنّحة، وبدأت ترتّل بصوتٍ اهتزّت له الجدران والسماء:

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾

ثم أردفت، ونورها يبتلع الظّلام:

﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾

فتبخّرت أجسادهم في الهواء، كأنّهم لم يكونوا، وسكن القصر على أنفاسٍ دامية وبقيت قدر واقفة، بأجنحتها المشتعلة.

وبينما كانت تتّقد كالشّمس المنفلتة من مدارها، وقلبُ سنفاير ما يزال ينبض بين كفّيها، تتقاطر دماؤه على الأرض كقرابين حربٍ خاسرة...

كان حيزوم يحدّق فيها، والدّهشة تشلّ حواسه جميعها، كأنّ ما يراه تجاوز قدرة العقل على الفهم.

شيئًا فشيئًا، خفتَ وهجها، وانسحب اللّهيب إلى أعماقها، واستعادت هيئتها البشرية كأنّ الأسطورة عادت إلى سكونها المؤقّت.

أسرعت إليه، جثت عنده، وانتزعت الفأس من فخذه بيدٍ ثابتة لا تعرف الارتعاش، وضغطت على الجرح لتوقف النّزيف.

قالت بأنفاسٍ متقطّعة: _كيف أصبحتُ هكذا؟

لا أفهم ما الّذي حدث لي.

نظر إليها وهو يبتسم بألمٍ ممزوج بالذّهول:

_لقد تحوّلتِ إلى أنثى العنقاء المتّقدة، ألم تلاحظي؟

قالت وهي تشدّ على الجرح أكثر:

_بلى، رأيت... لكن لا وقت للتّفكير، أنت تنزف، ونبضك بدأ يتباطأ.

خلع حيزوم معطفه الأسود المصنوع من جلدٍ فاخر، وألقاه على كتفيها ليخفي تمزّق ثيابها بعد أن تفاقم جسدها قبل قليل، ثمّ حاول النهوض بصعوبة، متكّئًا على كتفها، وقال بصوتٍ مبحوح:

_كيف سنغادر هذا المكان؟

قالت بثبات: _بالمفتاح.

ثم توقّفت فجأة، وعيناها تلمعان بعزمٍ لا يلين:

_لكن، قبل الرحيل، هناك ما هو أهمّ.

انحنت على إحدى رؤوس سنفاير المبتورة، وانتزعت نابًا حادًّا لا يزال دافئًا، ثم جمعت في مرطبانٍ بعضًا من دمه الّذي كان يسبح فوق الأرض كبحرٍ مظلم.

قال حيزوم متعجّبًا: _ولماذا تأخذين ذلك؟

أجابته دون أن تنظر إليه:

_ستعرف في الوقت المناسب، أتحسب أنّني جئتُ إلى الموت للّهو؟

ثم أردفت بصوتٍ خافتٍ كقسمٍ قديم:

_عرفتُ بخدعته منذ اللّحظة الأولى، ولم آتِ لأتسلّى هنا.

أمسكت بيده وقالت: _أغمض عينيك، تخيّل أرض الجنان.

وحين أدارت المفتاح، انفتح الباب على نورٍ حيّ، ودلفا معًا إلى الجنان، كأنّهما عادا من حافّة الفناء.

حلّقت غسق نحوهما بلهفة، وما إن رأت إصابة حيزوم حتى شهقت:

_ما الّذي أصابه؟

قالت قدر بعجلةٍ يختلط فيها الرجاء بالأمر:

_خذيه إلى جناح الأطبّاء يا غسق، لا أريد خسارةً أخرى، أرجوكِ.

توقّفت غسق، وحدّقت فيها بقلق: _خسارة أخرى؟

لم تعرف قدر كيف تُخبرها بوفاة عيّار، صمتت لحظةً ثقيلة، ثم أخرجت من جوف قميصها عصبةً كانت لعيّار، وقدّمتها إليها.

قالت بصوتٍ منكسر، لكنّه راسخٌ كالإيمان:

_كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت، وكلُّ من عليها فان، ويبقى وجهُ ربكِ ذو الجلالِ والإكرام.

ثمّ أدارت ظهرها، وقد خانها الجسد أخيرًا، وتهاوت تحت شجرة الزّيتون... تلك الّتي جلست بقربها منذ أوّل يومٍ وطأت فيه أرض الجنان.

أسندت ظهرها إلى الجذع العتيق، وأغمضت عينيها، كأنّها تعود إلى نقطة البدء، مثقلةً بانتصارٍ باهظ الثّمن، وبقلبٍ تعلّم أن البطولة ليست في النجاة بل في الاستمرار بعد الفقد.

حلّ اللّيل على أرض الجنان كعباءةٍ مخمليّة، تتدلّى نجومها على الجراح لتخفّف وجعها، وكأنّ السّماء قرّرت أن تمنح الأحياء هدنة قصيرة من قسوة القدر.

في جناح الأطباء، كان حيزوم ممدّدًا، يلفّ جسده بياض الضماد، بينما ينساب الألم منه رويدًا رويدًا،

كما ينسحب المدّ حين يسلّم البحر لأمر القمر.

المدّ = ارتفاع الماء واندفاعه. عندما يخضع البحر لجاذبية القمر، ينسحب المدّ بهدوء، كأنه يطيع أمرًا أعلى منه، دون مقاومة أو صخب، **كذلك: جسد حيزوم بدأ يسلّم للأمان والشفاء، ويترك الألم ينسحب منه رويدًا رويدًا.**

جلست قدر إلى جواره، أقرب ممّا ينبغي، تراقب أنفاسه كأنّها تعدّها، وكلّما اضطرب صدره مالت عليه، وكلما تأوّه شدّت قبضتها على كفّه، وكأنّ الألم قد يفرّ إن أمسكته بقوّة.

لم تغادره إلّا لتعود بعد لحظات، تحمل ماءً، أو تبدّل ضمادًا، أو تلمس جبينه لتطمئنّ أنّ الحرارة لم تعاوده.

غسق كانت تراقبهما في صمتٍ قلق، تدور في المكان كطائرٍ حائر، تارةً تراجع جرعات الدّواء، وتارةً ترفع نظرها نحو قدر الّتي بدا اهتمامها مفرطًا حدّ الخوف.

وحين عمّ السّكون، وهدأت الأنفاس، بدأت قدر تقصّ كلّ ما جرى.

قصّت الطّريق، والخديعة، والتّنّين، والتّحوّل، والموت الّذي مرّ بمحاذاتهم ولم يبتلعهم.

كانت الكلمات تتساقط في اللّيل ثقيلة، وغسق تصغي، وكلّ حقيقة تنكشف تُثقل جناحيها أكثر.

وفجأة، فتح حيزوم عينيه نصف فتحة، وقال بصوتٍ مبحوحٍ ساخر:

_أتعالجونني أم تعاقبونني؟

لم تكفّوا عن الثّرثرة طوال اليوم، وفوق رأسي أيضًا؟

تبادلت غسق وقدر نظرة خاطفة، ثمّ أجابتا معًا، كأنّهما اتّفقتا منذ زمن:

_هذا لأنّنا لا نستطيع مفارقتك.

ابتسم ابتسامة واهنة، وأغمض عينيه مجددًا، وكأنّ تلك الجملة كانت دواءه الحقيقيّ.

مرّت السّاعات، وبدأ الجرح يلتئم رويدًا رويدًا، اللّحم يعود إلى بعضه، والدّم يستقرّ في مجراه، وكأنّ جسده أدرك أنّ عليه الاستعداد لما هو آتٍ. أمّا قدر، فلم تكن تهدأ عيناها ،كانتا يقظتين، لا تشبهان عيني من نجا من معركة، بل عيني من يستعدّ لحربٍ حقيقيّة.

كل ما سبق، شعرت به الآن، لم يكن سوى تمهيد اختبار نار قبل الجحيم الأعظم.

قالت غسق، وقد لمحت المرطبان والناب الموضوعين بعناية:

_لمَ جلبتِ ناب سنفاير ودمه؟

رفعت قدر نظرها، وقالت بهدوءٍ يخيف:

_ألم تخبريني سابقًا أنّ الحكاية لا تُكتب بالحبر بل بالدّم؟

_بلى.

أردفت غسق:

_لكنّني لا أعرف شروط ذلك، كلّ ما أعلمه أنّها تُكتب بالدّم.

قالت قدر بثقة من وجد القطعة الناقصة: _أنا عرفت.

تصلّبت غسق: _كيف؟

تنفّست قدر بعمق، ثمّ قالت:

_عندما خرجنا من منزل إيفا، وذهب حيزوم ليجلب لي ماءً، كنت أستريح متكئةً على الجدار وسمعتُها.

سمعت إيفا تهمس لآدم: «ترى... هل عرفت حقيقة الخلاص أم لا؟»

وأجابها: «بالتأكيد لا، لو عرفت، لما طرقت بابنا قط.»

ثم قالت إيفا:

«يجب ألّا تعرف أنّ كتاب الجنان ستُكتب نهايته بالدم.»

قال آدم: «لا تقلقي حتّى إن عرفت، فلن تعرف الطّريقة، فهي بحاجة إلى دماء شخصيّة ظالمة جبّارة من عالم اللّازمان، ويجب أن تكون الدّماء لجسدٍ ميّت، بموت إحدى شخصيّات اللّازمان تُكتب نهاية أخرى».

وصمت لحظة، ثم أردف بصوتٍ أثقل من الخطيئة: «لكنّها لن تُكتب بخطّ اليد، بل بأثر الجسد الميّت نفسه، هذا وحده ما يجعل كلّ حرفٍ حقيقة، وإن تصحّحت الخطيئة، فنحن أول من سيُعاقب، لن نعود إلى الواقع، سنموت في طيّات الكتاب، لأنّه كان اختيارنا»

ساد الصّمت، وشعرت غسق أنّ اللّيل انكمش حولهم، وقدَر أغمضت عينيها، كمن ثبتت قدماه على طريقٍ لا عودة منه.

قالت بهدوءٍ مهيب:

_لهذا أخذت الدّم، ولهذا أخذت النّاب، فالحرب القادمة لا تُخاض بالسّيوف وحدها، بل بالحقائق الّتي تُكتب بالثّمن الأغلى.

وفي الخارج، كانت النجوم تلمع، لا احتفالًا بالضّوء، بل ترقّبًا لما تؤول إليه الأقدار.

مع انبلاج الصباح جلست الصّديقتان غسق وقدر على الأرجوحة المعتادة، تتمايل بهما في صمتٍ مطبق، كأنّ الرّياح تُمهّد لاعترافٍ ثقيل.

قطعت قدر السّكون، وصوتها يختزن دهشة الأمس كلّه:

_هل كنتِ تعلمين أنّ عمّار أبي لا جدّي؟

وهل كنتِ تعلمين أنّ الشّمس هي أمّي، ولذلك بدا عالمكِ بنصف شمس؟

نصفها هنا يعود لي، أمّا نصفها الآخر فقد نُفي من الجنان معها.

ثم إنّ العجوز يعقوب كان أبي أيضًا، ولا أدري كيف اهتدى إلى مكاننا في عالم اللّازمان، وفي توقيتٍ محدّد، مع أنّه لا يستطيع التجوال متى شاء، ولا يحضر إلّا طيفًا، ولمهلة قصيرة.

تنفّست غسق بعمق، ثم قالت بصوتٍ وادعٍ مثقل:

_أجل، كنت أعلم كلّ ذلك، وأنا من أخبرتُ والدكِ أنّكِ ستخوضين الصعاب هناك، فقرّر معاونتك، لكنّني لم أستطع إخبارك.

قالت قدر، وقد لمع في عينيها يقينٌ جديد:

_وهل كنتِ تعلمين أنّ أمّي شمس ليست مذنبة، بل ضحيّة للحبّ؟

اضطربت غسق، وتغيّر لون وجهها: _ماذا تقصدين لا أفهم؟

قالت قدر بثبات: _بل تفهمين، ولو لم تفهمي لما ارتبك لونكِ هكذا.

سألتها غسق بصوتٍ خافت: _من أخبركِ بالحقيقة، شمس؟

_نعم... أمّي أخبرتني بكلّ شيء.

أطرقت غسق، ثمّ قالت:

_أجل، كنت أعرف، وكنت الشّاهدة على الجريمة التي ارتكبتها إيفا، لكنّ شمس أجبرتني على دفن هذا السّرّ، لتحمي والدكِ من انكسار القلب، ومن حزنٍ لا يُحتمل على ابنةٍ حاولت قتل زوجته وطفلته.

اضطررت لمشاركتها هذا الصّمت الثقيل.

قالت قدر، وقد اشتعل صوتها بعزمٍ شمسيّ:

_على والدي أن يعرف الحقيقة كاملة، وعلى أمّي أن تعود إلى عالمها الحقيقي.

لقد سُلبت عالمها، وحريتها، وشروقها، وسُلبت ابنتها أيضًا.

أخذ أبي معه قلب أمّي وحبّها الوحيد.

قالت غسق بخشوع:

_عليكِ فعل ذلك يا قدر، فأنتِ المنشودة، أنتِ من ستصحّح خطايا البشر، وتعيد الصّواب إلى رشده.

سألتها قدر: _كم تبقّى لي من الوقت؟

_عشرة أيّام، وسأكون برفقتكِ في مكتبة الرّيّان.

عليكِ أخذ الكتاب وإكماله، لكن يجب أن تكتبيه داخل عالم الماروم.

قالت قدر: _أتقصدين ذلك الباب الّذي يشعّ نورًا، والمنقوش عليه رمز الشمس نصف مكتملة؟

_أجل، هناك عالمٌ فارغ من كل شيء سوى النّور، لا أحد يعلم حقيقته إلّا الله تعالى، سندخل إليه، وأيّ حرفٍ تكتبينه سيتحقّق... فاحذري ممّا تخطّه يدك.

قالت قدر بقلق: _وماذا عن حيزوم هل نتركه وحده؟

ابتسمت غسق:

_ليست مهمّة عسيرة؛ فخلف بوابة الماروم سماء من نور لا غير، لا يُرى فيها سوانا.

وفجأة، شقّ المشهد صوتٌ مألوف، كان حيزوم يقف أمامهما، كخيلٍ مغوار، صامدٍ كالجبال، وقد استعادت قامته كامل قوّتها، وعيناه اللّوزيتان تشعّان شجاعةً ونُبلًا:

_لن أدعكنّ وحدكنّ، سأرافقكنّ أينما كانت الوجهة.

انفرجت أسارير قدر بابتسامة طفوليّة، وانقضّت عليه مرحة تعانقه:

_الآن ستغدو المغامرة أكثر إلهامًا برفقتك!

أمّا حيزوم، فكان جبينه يقطر عرقًا من توتّرٍ خجول، فهذه المرّة الأولى الّتي تقترب منه فتاة، وتلك الّتي تعانقه هي ذاتها الّتي وقع في حبّها منذ رآها أوّل مرّة بثياب الفارسات، بضفيرتين كتعويذتين سحريّتين تُسقطان كلّ من تقع عيناه عليهما أسيرًا للحبّ.

ابتلع ريقه، وشدّ على كفّيه، فأحسّت قدر أنّها تهوّرت، وأنّ اندفاعها فاض عن حدّه، فابتعدت عنه سريعًا وقالت بحرج:

_يا إلهي... يبدو أنّ اليوم أكثر حرًّا من المعتاد!

لاحظ حيزوم احمرار وجنتيها، ككرزٍ قاتم، فابتسم ليبدّد التوتّر وقال:

_أَننطلق إلى وجهتنا بلا إفطار؟

فارستنا جائعة بالتأكيد.

ضحكت قدر وقالت: _كأنك تقرأ قلبي يا فرس، أتضوّر جوعًا حقًّا.

وهكذا، بين نور الصّباح، وخفق القلوب، كانت الأسطورة تستعدّ لفتح فصلٍ أعظم، فما مضى لم يكن إلّا تمهيدًا، أمّا القادم فكان يتهيّأ ليُكتب بالنّور والدّم معًا.

حين أعلنت قدر جوعها، بدا الأمر كإشارةٍ خفيّة لالتقاط الأنفاس قبل العبور الأخير.

نُصبت المائدة في فسحةٍ تتدلّى فوقها الأغصان، واصطفّ اليمام من حولها في انتظامٍ مهيب، كأنّه حرسٌ أبيض يحرس لحظة وداع لا تُقال.

جلست قدر إلى جوار حيزوم، وفي المقابل اتخذت الملكة هيليكونيا مجلسها، وإلى جانبها غسق، وقد انعكس على وجوههم جميعًا نورٌ هادئ يشبه السّكينة الّتي تسبق العاصفة.

كانت الوجبة الأخيرة معًا، وكانت كلّ لقمةٍ تُؤكل كأنّها تُحصى من العمر.

قطع حيزوم الصمت، وصوته يحمل بقايا دهشة لم تخفت بعد:

_حين كنّا في عالم اللازمان، يوم أُصبتُ أنا... لم تكن قدر كما نعرفها.

تحوّلت فجأة إلى طائرٍ مجنّح، أرجوانيّ قاتم، كأنّ الشّمس احترقت ثم نهضت من رمادها.

كانت عنقاء ملتهبة بنيران الغضب، وانقضّت بمخالبها على أحد أضخم التنانين وأشدّها بأسًا...

قتلته، رأيت قلبه ينبض في كفّ يدها، نابضًا كأنّه لا يعترف بالموت.

كان مشهدًا أسطوريًا... مشهدًا لو دوّنه التاريخ لانشقّت صفحاته.

خفضت قدر بصرها، وكأنّ الذّكرى سحبتها إلى تلك اللّيلة، وقالت بصوتٍ خافت يشبه الاعتراف:

_حقًا... ما زلت لا أدري كيف حدث ذلك.

شعرت فقط بنداءٍ اجتاحني، ولم أستطع الفرار منه.

تبادلت غسق والملكة نظرةً قصيرة، ثم قالت غسق، وقد بدا في نبرتها ظلّ قلقٍ قديم:

_هذا بالضبط ما كان يخشاه والدك.

رفعت قدر رأسها فجأة:

_وما الّذي كان يخشاه؟

تنفّست غسق بعمق، كأنّها تنبش ذكرى دفنتها منذ زمن:

_حين تفاقم حجمك في قلعة العرش لأوّل مرة، صُدمنا جميعًا.
في هذا العالم، يا قدر، لستِ حكاية خيالية، لا تتحوّلين متى شئتِ ولا كيف تشائين.

ذلك ما دفعني لأن أخبر والدك بما رأيت، وحينها فقط تحقّقت توقّعاته... توقّعات كان يجهل سببها، لكنّه كان يخشاها.

عقدت قدر حاجبيها: _لا أزال لا أفهم... ماذا كان يجهل؟

اقترب صوت غسق، وصار أشبه بكشفٍ لا رجعة فيه:

_أنتِ أقوى من الشّخصيّات الخياليّة في عالمنا يا قدر.

في جسدك دمُ ساحرٍ صنع عوالم خفيّة بالسحر، وفي روحك مخاضُ شمسٍ ملتهبة خُلقت من رحمها.

وحين تبلغين أقصى الحاجة، ويتبع حدسك النداء، ينهض كلّ ما فيك دفعةً واحدة ليُلبّي.

ساد صمتٌ ثقيل، ثم أتمّت، وعيناها معلّقتان بقدر كأنّها تراها للمرة الأولى: _لهذا تحوّلتِ... أنتِ العنقاء، المتّقدة بنيران الشّمس والسحر، وحين تنهض العنقاء، لا يبقى العالم كما كان.

ارتجف اليمام حول المائدة، وخفق بجناحيه خفقةً واحدة، كأنّه شهد على نبوءة كُتبت للتوّ.

ساد الصّمت على المائدة، صمتٌ لم يكن فراغًا، بل امتلاءً خانقًا، كأنّ الهواء نفسه شدّ أنفاسه وانتظر، توقّفت أيديهم عن الحركة، وبقيت الكلمات معلّقة بين الشّفاه، لا تجرؤ على السّقوط.

ارتجفت أجنحة اليمام المصطفّ حولهم، لا خوفًا ولا فزعًا، بل ارتباكًا غريزيًّا، كأنّ نداءً خفيًّا مرّ في عروق الجنان.

ومن حيث لا يُتوقّع، سقطت ورقة زيتونٍ من الغصن القريب، لم تهوِ خضراء كما ينبغي، بل اسودّ طرفها في الهواء واحترقت ببطءٍ صامت، حتّى لامست الأرض رمادًا خفيفًا، لا دخان له.

حدّقت الملكة هيليكونيا في المشهد دون أن تنطق، وغسق شعرت بانقباضٍ في صدرها، كأنّ ذاكرةً قديمةً استيقظت فجأة.

رفعت قدر كأسها لتشرب، فتوقّفت، الماء في الكأس لم يعد باردًا، بل دافئًا، ثمّ حارًّا، حتّى كادت تشعر بحرارته عبر الزّجاج.

أنزلته ببطء، ونظرت إلى كفّيها، كان نبضها أعلى من المعتاد، وفي أعماق صدرها خفقة أخرى، ليست صدى قلب، بل جناح غير مرئيّ، وفي تلك اللّحظة، خفت ضوء الشّمس فوق الجنان خفوتًا طفيفًا، لا يُلاحظ إلّا لمن عرفها حقّ المعرفة، كأنّها انقسمت ظلًّا ونورًا، كأنّها تذكّرت فجأة أنّها ليست كاملة.

لم يتكلّم أحد، لكنّ قدر أحسّت أنّ جسدها لم يعد روحًا ساكنة، بل بوّابة، وأنّ ما سكنها تلك اللّيلة في عالم اللّازمان لم ينم، بل كان ينتظر أن يُعرَف.

قالت غسق أخيرًا، بصوتٍ منخفضٍ كأنّه اعتراف:

_ما إن يشعر العالم بوجودكِ على حقيقتكِ لن يبقى هذا السّلام سوى هدنة.

أغمضت قدر عينيها لحظة، لم تكن خائفة من القوّة، بل من أن تفقد نفسها إن استجابت للنّداء مرّة أخرى.

وفي مكانٍ ما، خارج الجنان، بدأ العدّ التّنازليّ دون أن يُعلن أحد رقمه الأوّل.

"منازل القمر"

أرخى اللّيل أطرافه على أرض الجنان، بدا كأنّه عباءة سوداء مطرّزة بالصّمت، هدأت الرّياح، وسكنت الأغصان، وانسحب الضّوء رويدًا رويدًا، حتّى لم يبقَ في السّماء سوى قمر هلاليّ، نحيلٍ كذكرى قديمة.

رفعت قدر بصرها إليه، فجرى لفظُ الآيةِ على لسانها مدفوعًا بفيض قلبها: ﴿والقمر قدّرناه منازل حتّى عاد كالعرجون القديم﴾

ارتعش شيءٌ في داخلها، وتساءلت، لا بصوتٍ مسموع، بل بنداءٍ خفي:

_هل سأعود كما كنت؟

فتاة عاديّة، بلا أجنحة، بلا نار، بلا قدرٍ يُثقل الصّدر؟

في تلك اللّيلة لم يكن الاستعداد سلاحًا يُشهر، بل وعيًا يُستدعى.

حيزوم شدّ سيفه، لا ليقاتل، بل ليشهد، وغسق لفّت عباءتها بنقوشٍ قديمة كأنّها تُعيد ارتداء التّاريخ، أمّا قدر، فكانت أخطر ما فيهم، لأنّها لم تحمل سلاحًا... بل حملت النّهاية.

"عتبة الماروم"

تقدّموا نحو بوّابة الماروم، لم تكن بابًا بالمعنى المعروف، بل شقًّا من نور، نصف شمسٍ منقوشةٍ على العتبة، والنّصف الآخر غائب...
كأنّ العالم نفسه منفيّ عن كماله.

ما إن خطت قدر داخل الماروم حتّى اختفى كلّ شيء، لا أرض، لا سماء، لا اتّجاه... نور فقط، نور كثيف، أعمى، بلا ظلّ، بلا صدى.

هناك، حيث لا يُرى الجسد، ولا يُسمع الصّوت، ولا يُغفر الخطأ.

أخرجت قدر ناب سنفاير، لم يعد نابًا بعد الآن، بل شاهدًا.

غمست أطرافه بدم التّنين الميّت، دمٍ ينتمي إلى عالم اللّازمان، إلى جسدٍ جبّارٍ ظالمٍ انتهى.
فتح الكتاب نفسه، لا يدٌ فتحته ولا ريح، انبسطت صفحاته كأنّها تعرفها.

كتبت قدر، لم يرَ أحدٌ ما كتبت، لم يسمع أحدٌ الكلمات، فالكتاب لم يكن يُقرأ، بل يُنزَف.

وحين انتهت، لم تُغلق الصّفحة، انبثق نورٌ حارق، وتفتّت الكتاب فجأة، كأوراقٍ التهمتها نارٌ صاعقة.

احترق، وتحوّل إلى رمادٍ يتلاشى في الفراغ، لم يبقَ منه سوى ربع ورقة معلّقة في الهواء، نُقشت عليها جملة واحدة، سطر أخير، كتبته قدر وكأنّه توقيع للعالم على مصيره: لبّيك، إنّ العيش عيش الآخرة.

ساد الذّهول، فالكتاب يجب أن يعود كاملًا إلى مكتبة الرّيّان، إلى رفّه الأصليّ، ليتجلّى كلّ ما كُتب، ولتُختم الحكاية كما ينبغي.

قالت غسق، وصوتها مكسور بين الرّهبة والخوف:

_ما الّذي كتبتِه يا قدر؟

رفعت قدر عينيها، ولم يكن فيهما ندم، بل يقين، وقالت بهدوءٍ يُشبه الحسم:

_كتبت ما كان يجب أن يُكتب، وما عجز والديّ عن فهمه وإدراكه، كتبتُ ما لا يحتمل البقاء بين السّطور.

كلّ الأخطاء هنا... ستُصحَّح، وكلّ الحكايات... ستُطوى.

وفي نور الماروم، بدأ عالمٌ كاملٌ يُعاد تعريفه، لا بالحبر... بل بالدم.

وقبل أن تهمّ قدر بالخروج، جالت بعينيها في الفضاء كمن يُثبّت صورةً أخيرةً في ذاكرة القلب، سماءٌ توشّحها الأسرار، وضياءٌ تدلّى من العلوّ، وبخشوعٍ ردّدت: سبحان الحيّ الّذي لا يموت أبدًا.

ثمّ عاد الرّفاق إلى أرض الجنان، غير أنّ غسق وحيزوم ظلّا معلّقين بنظرهما عند قدر، ينتظران كلمةً تترنّح بين شفتيها، إشارة واحدة تفسّر ما حدث، وما سيحدث، لكنّ الصّمت كان أفصح من الكلام.

جلست قدر قرب الأنهار، تُراقب انعكاسها المرتعش على صفحة الماء، تتأمّل هيئة العنقاء الّتي لا تزال تسكنها، وتتساءل بقلقٍ كتوم:

_هل سأبقى هكذا؟

وإن عدت إلى الدّنيا الفانية، أتلائمني هذه الهيئة أم ستخذلني؟

كانت تعرف الجواب، لكنّ المعرفة حين تمسّ المصير تتحوّل إلى عبء.

"غربةُ الملامح"

حل اللّيل على أرض الجنان، كانت النّجوم تتناثر في الأعالي كحروفٍ سقطت من كتابٍ سماويّ، والأنهار تلمع كأنّها مرايا تحفظ الأسرار ولا تبوح.

بينما قدر لا تزال عند ضفّة الماء، تراقب انعكاسها المرتجف على سطحه، وجهها يتكسّر مع الموج ثمّ يعود، اقترب حيزوم بخُطا هادئة، وجلس إلى جوارها دون أن يقطع صمتها، ثمّ قال بصوتٍ يشبه الاعتراف:

_أتعرفين يا قدر؟

أحيانًا لا أفهمكِ، مع أنّني أجيد قراءة البشر، إلّا أنّكِ...

رغم وضوحكِ، مشاعركِ لا تُرى.

ابتسمت ابتسامةً خفيفة، وقالت وهي لا تزال تحدّق في الماء:

_لا يمكننا فهم بواطن البشر، حتّى نحن...

مهما بلغنا من الإدراك يبقى في النّفس متّسع لا تفسّره المشاعر، أنا لا أفهم نفسي، فكيف أطلب من غيري أن يفعل؟!

سكتت لحظة، ثمّ أردفت بنبرةٍ أعمق:

_مهما ظننت أنّك تعرفني، فلن تعرف إلّا ما أسمح له بالظّهور، فهناك في أعمق نقطةٍ مظلمةٍ من الرّوح أبجديّة مشفّرة، لا يفكّ لغزها المرء مهما سعى.

رفعت حفنة ماءٍ وأسقطتها بين أصابعها، وقالت:

_نكتفي بالقدر الّذي يُباح لنا معرفته عن أنفسنا، فيكتظّ العقل بالأفكار الملموسة ذاتها، لأنّه عاجز عن سبر أغواره.

ثمّ ننسى كيف نتعامل مع ما نشعر به، إذ تسرق السّطوح منّا لذّة الإحساس بالغنائم القريبة بين أيدينا.

التفتت إليه، بعينين تشبهان ليل الجنان:

_علينا أن نتعلّم كيف نحيا بما لدينا مهما كان ضئيلًا، وألّا نضيّعه بالبحث عمّا لا وجود له.

تنفّس حيزوم بعمق وقال: _لقد صدقتِ حقًّا.

ثمّ صمت قليلًا، كمن يستجمع شجاعةً قديمةً، مُردفًا:

_أتعلمين؟ كان والداي شجاعين.

كانا يخوضان أشدّ الحروب، ويخرجان منها منتصرين حتمًا.

سألته بهدوء: _وأين هما الآن؟

خفض نظره قائلًا:

_في إحدى الحروب القديمة بين قبائل الجنّ والفرسان، كان لوالدي صديقٌ أحبّه كثيرًا، نشآ معًا، وكبرا في البيئة ذاتها.

تابع وصوته يثقل:

_في حربهم الأخيرة، وبينما كانا يتقاتلان كتفًا بكتف، طعنه ذلك الصّديق من الخلف، وفتك به.

وحين كان والدي يلتقط أنفاسه الأخيرة، قال له:

_فعلت ذلك من أجل الفتاة الّتي أحببت، لكنّها اختارتك أنت.

ارتجفت الكلمات، وأكمل:

_وحين رأت أمّي الخيانة على أرض المعركة، انقضّت عليه وقطعت رأسه، ومنذ ذلك اليوم، عاشت بنصف روح.

تنفّس طويلًا ثمّ قال:

_علّمتني ألّا أخون صديقًا مهما كلّفني الأمر، علّمتني الشّجاعة، القوّة، الصّبر، والإخلاص.

وحين بلغت أشدّ قوّتي، تخلّت عن الحياة، كأنّها أدّت رسالتها الأخيرة وصبرت طويلًا لأجلها.

قالت قدر بصوتٍ دافئ: _أعرف، نقص الوالدين لا يرمّمه أحد.

ثمّ أضافت بنبرةٍ مكسورة:

_قد يكون نقصنا واحدًا، فرغم أنّهم أحياء، لم أشعر بهم يومًا.

سكتت قليلًا، ثمّ تابعت: _أمّي حبيسة اللّازمان لذنبٍ لم ترتكبه.

وأبي... لم يبخلّ عليّ بحبّه يومًا، لكنّني كنت أبحث عمّا ينقصني، وأنسى الاستمتاع بما أملك.

ابتسمت ابتسامة حنينٍ وقالت:

_عاملني كجدٍّ لا كأب، لكنّ حبّه فاق حبّ الآباء.

ذات مرّة أخبرته كم أحبّ الكتب، فصار يقرأ لي يوميًّا، ولو سمعت صوته، لظننته هاربًا من حكايةٍ خياليّة، وكان كلّما عاد، يحمل لي كتابًا جديدًا.

ثمّ سألت فجأة: _أتعلم ما هو حلمي؟

_ما هو يا قدر؟

_مكتبة... تمتدّ عبر آفاقٍ واسعة، تحيطها المجرّات والكواكب والنّجوم. مكتبة عظيمة، مليئة بكتب ورقيّة قديمة.

ثمّ همست: _أتعلم؟
أحبّ الروائح الّتي تلامس القلب، رائحة الكتب القديمة، ورائحة الحطب الرّطب المتآكل بالنّار.

قال حيزوم مبتسمًا: _لهذا تأثّرت حين أشعل يعقوب الحطب في ذلك الكوخ...

وقبل أن تكمل الذّكرى، اخترق دفءَ بوحهما هتافُ غسق القادم من بعيد، كأنّها تمدّ لهما حبلًا يعودانِ به من جزر الماضي النّائية:

_هيّا إلى العشاء يا رفاق، قبل أن يبرد!

تنهّدت قدر، ونفضت عن جفنيها غُبار الشّجن، ثمّ نهضت بمرحٍ طفوليّ تُحاول به كسر جلال الموقف، وقالت: _يا سلام!

أهذه رائحة منسفٍ تلوح في الأفق؟

فأجابتها غسق ضاحكةً: _وبلحم الجمل أيضًا.

تنهّدت قدر وقالت: _لا أحبّه، لكنّ الجوع كافر، هيّا لنأكل بسرعة.

وبعد أن فرغوا، قالت قدر وكأنّها تذكّرت أمرًا مهمًّا:

_أتعلمان؟ علينا الوضوء بعد أكل لحم الجمل.

_ولمَ؟

قالت بهدوء العارف: _لأنّ رسول الله ﷺ قال:

"من أكل لحم الجمل فليتوضّأ".

إذ أنّ لحمه يورث قسوة وقوّة شيطانيّة، والوضوء يمحو أثر ذلك.

ومن ثمّ انسحب الرّفاق إلى أجنحتهم، واستسلمت أرض الجنان لسكينة اللّيل، غير أنّ قدر ظلّت مستيقظةً كنجمةٍ تأبى الأفول.

راحت أفكارها تتناوبها كالأمواج، مصيرٌ مجهولٌ ينتظرها بعد أن خطّت السّطر الأخير من نهاية الكتاب، فهل تعود حقًّا؟

وماذا عن أمٍّ معلّقةٍ في اللّازمان؟

وعن رفاقٍ تشبّث بهم قلبها كما يتشبّث الجذر بالأرض؟

تسلّل النّدم إلى صدرها خفيفًا كالظلّ، ثمّ ما لبثت أن طردته، وأقنعت نفسها أنّ ما فعلته كان خطوةً صائبة وإن بدا الطّريق بعدها موحشًا.

في الجناح الآخر، كانت غسق تهيّئ لحدثٍ لو اطّلع عليه أهل الجنان لارتجفت القلاع وتبدّلت المقادير.

أمّا حيزوم، فكان يبكي بصمتٍ ثقيل، يدرك أنّ هذه الأيّام هي الأخيرة الّتي تجمعه بقدر، وأنّ عودتها إلى عالمها قدرٌ لا فكاك منه.

ظلّ مستيقظًا حتّى انشقّ الفجر، يفكّر بها، كأنّ اسمها صار مرادفًا لقلقه.

وحين توسّطت الشّمس كبد السّماء، خرجت قدر تتنزّه، تودّع أرض الجنان خطوةً خطوة.

وفجأة... كفٌّ بعروقٍ بارزةٍ قبض على كفّها من الخلف، وأغمض عينيها بعصبةٍ مرسوم عليها فرس أسود مغوار.

لم تسأل، لم تحتج إلى ذلك، عرفته من رائحة الياسمين الّتي يخبّئها في جيبه تذكارًا لصديقه عيّار.

سارا قليلًا، ثمّ قال بهدوء: _بإمكانكِ فتح عينيكِ الآن.

انزاحت العصبة... فانفتحت أمامها مكتبةٌ لم تحلم بها الأحلام نفسها.

رفوف من خشب الزّان العتيق، تمتدّ إلى آفاقٍ لا تُدرك، تسبح في فضائها الأفلاك والكواكب، وفي إحدى الزّوايا مرقدٌ لحطبٍ مشتعل يبثّ دفئًا حيًّا، وكرسيّ خشبيّ بظهر عريض طويل مطعّم بالمرجان، وسلالم من غيم، وخدم من شهب لامعة ينسدل نورهم كالتّسابيح.

اتّسعت حدقتا قدر وهي تمعن النّظر، وفرحها يقرع طبول القلب على أوتار نياطها.

التفتت إلى حيزوم، واندفعت نحوه تعانقه بقوّة وقالت:

_لم أتخيّل يومًا أنّ حلمي سيتجسّد هكذا!

كيف فعلتها بهذه السّرعة؟

أنا... عاجزة عن شكرك.

وكان _كعادته_ يتصبّب عرقًا وتوتّرًا، كأنّ قربها امتحانٌ لا يعتاد عليه.

ثمّ تراجعت خطوتين فجأة، وكأنّ كابوسًا اقتحم نشوة اللّحظة، وقالت بحسرةٍ خفيّة: _يا لسوء حظّي...

لا أملك وقتًا للاستمتاع بها، سأعود اليوم إلى دياري.

واستدارت مسرعةً نحو حديقة الجنان.

وقبل أن تهمّ بالبكاء، لمحت شيئًا غريبًا يتسلّل بين أغصان الشّجر، ظلًّا لا يشبه الظّلال، كأنّ اللّيل نفسه قرّر أن يسبقها بخطوة.

وبينما كانت تحاول معرفة سبب اهتزاز وارتعاش الجنان، تحرّك الهواء على نحوٍ مريب، واهتزّ ما تحت أقدام الجنان، فخرج ثعبانٌ عظيمٌ من جوف الأرض، يزحف ببطءٍ ماكر، عيناه لا تشبهان عيون الزّواحف، بل توحيان بوعيٍ أقدم... وأخبث.

لم يكن الثّعبان سوى قناع، غلافٍ حيٍّ تسلّل من خلاله الشّرّ إلى الجنان، كما تسلّل قديمًا ليغوي الطّهر من بوّابته.

وما إن استقرّ، حتّى تمزّق جلده، وانفصل عنه الكائن الّذي كان مختبئًا في جوفه: التّنين أنكالاجون.

قال بصوتٍ تتكسّر له السّماوات: _أتحسبين أنّ ما بيننا انتهى يا قدر؟

أظننتِ أنّك ناجية من قبضتي بعد أن أسقطتِ سنفاير ذو الرّؤوس السّبعة، وقبله طاغية الأثير ملتهم الأفقِ الّذي تهاوى صريعًا عن بساط السّحاب؟

لن تخرجي من هنا، إلّا بجثّتي... أو جثّتكِ.

ركض حيزوم وتأهّب، امتشق سيفه وتقدّم بخطوةٍ يختلط فيها الواجب بالفزع، لكن قدر رفعت يدها فجأة وقالت بصرامة لم يعهدها فيها:

_توقّف.

تسمّر في مكانه، قالت بصوتٍ لا يقبل النّقاش:

_هذه حربٌ تخصّني، لا أريد دخلاء ولا متطفّلين.

حدّق فيها حيزوم وكأنّ الكلمات اخترقت صدره: _دخلاء؟

متطفّلون؟

اقتربت خطوةً وصوته يرتجف بين الغضب والخذلان:

_أتدركين ما تقولينه يا قدر؟

_أدرك تمامًا.

ثمّ أردفت بهدوءٍ موجع:

_دعني وشأني، هناك ما يجب أن يُقال بيني وبين التّنين، ولا يجوز للغرباء سماعه.

استشاط غضبًا، ورمى سيفه أرضًا حتّى ارتجفت التّربة.

حدّق في شعلة الشّمس الّتي كانت تتوسّد أجفانها، وقال بصوتٍ مبحوح:

_لم أتوقّع يومًا أن تخاطبيني بهذه اللّهجة، اعتبرتكِ فردًا من عائلتي منذ اللّحظة الأولى، خسرت أعزّ أصدقائي في سبيلكِ، وكدت أفقد ساقي لإنقاذكِ، والآن تنعتينني بالغريب؟

صمت لحظة، وتابع وقد انكسر صوته:

_لن أقول ما يؤذي قلبكِ، فأنا لست أنتِ، لكن إن احتجتِ يومًا لفرسٍ مغوارٍ ينتشلكِ من الهلاك، ستجديننني حاضرًا.

هذا الغريب، لن يفلت يدكِ حتّى وإن فعلتِ.

استدار، والدّموع تنهمر من مقلتيه دون خجل، بينما قدر بالكاد استطاعت أن تخفي ألمها.

ابتعلت الغصّة كما يبتلع الحطب النّار، واشتعلت بصمت.



وفي مرآة المآقي تلاقت غربة الأرواح...

سارت مع التّنين أنكالاجون ليعقدا صفقةً غامضة، كتمهيدٍ لحربٍ أخيرةٍ ستُخاض في أرض الجنان.

غير أنّ السّماء كانت تثقل، والنّور يتراجع على مهل، وكأنّ الأساطير نفسها تحبس أنفاسها... فثمّة حدثٌ أعظم، كان على وشك الحضور.

سارت قدر بمحاذاة أنكالاجون، والصّمت بينهما ليس سكونًا، بل احتقانٌ يسبق الانفجار، ابتعدا عن أعين الرّفاق، حتّى بلغا تخومًا لم تطأها قدمٌ من قبل، حيث تذوب الألوان في بعضها كلوحةٍ تُسحب منها الحياة رويدًا.

توقّفت قدر، لم تلتفت إليه، لكنّ صوتها خرج ثابتًا كحدّ السّيف:

_تريد حربًا أم ما هو أبقى من الحرب؟

قهقه أنكالاجون، قهقهةً خشنةً كصخرٍ يُسحق تحت جبل، وقال:

_وما الّذي يبقى بعد الحرب؟

إمّا غالب أو هالك.

عندها التفتت إليه، وكان في عينيها شيءٌ غامضٌ، ليس خوفًا، ولا غضبًا... بل يقينًا.

قالت ببطء:

_يبقى المصير، وأنت لا تقاتلني لتنتصر، بل لتؤجّل سقوطك.

زمجر، واهتزّ الهواء من حوله، وتشقّقت الأرض تحت قدميه كأنّها تلفظ اسمه: _احذري كلماتكِ يا ابنة الخطايا.

قاطعته، لكن بهدوءٍ أخطر من الزّئير:

_أنا لست ابنة خطيئة، أنا تصحيحها.

ثمّ اقتربت خطوةً واحدةً فقط، وقالت:

_جئتَ متخفّيًا في جوف ثعبان، كما دخل إبليس الجنّة أوّل مرّة وأغوى أمّنا حوّاء... لكنّك نسيت شيئًا.

ضاقت عيناه، واشتدّ وهجها كجمرٍ يتّقد: _وما هو؟

همست، لكنّ همسها كان كالرّعد:

_أنّ الجنان لم تعد كما كانت، وأنا لست من تُغوى.

في تلك اللّحظة، ارتجف الأفق، وانفلقت السّماء عن خيطٍ من نورٍ أرجوانيّ، كأنّ عالم الماروم نفسه لم يُغلق أبوابه تمامًا، تراجع أنكالاجون نصف خطوة، للمرّة الأولى، للمرّة الأولى منذ قرونٍ يشعر بشيءٍ يشبه التوجّس.

قال بصوتٍ أخفض، لكنّه أشدّ خطرًا: _ما الّذي فعلتِه في الكتاب؟

ابتسمت قدر ابتسامةً خفيفة، كانت كفجرٍ يولد من بين الرّماد:

_ما عجزتَ عن فهمه، وما سيُنهيك.

ما إن أنهت جملتها، حتّى شقّت الهواء صرخة بعيدة... صرخة حيزوم.

لم تكن صرخة ألمٍ، بل صرخة سقوط.

التفتت قدر فجأة، وانقبض قلبها كأنّ يدًا غيبيّة عصرته، وفي عينيها ومضٌ كالنّار الّتي تسبق العاصفة...

أمّا انكالاجون فابتسم، ابتسامة من يعرف أنّ الحرب لم تبدأ بعد، بل الآن فقط اختارت ضحيّتها الأولى.

لم تكد قدر تلتفت نحو صرخة حيزوم حتّى انشقّت الأرض عن فجوة، كأنّ اللّيل قد فتح فمه ليلتهم ما تبقّى من ضوء.

ومن عمقها انبثق فضاءٌ آخر، ليس هو الجنان، ولا هو الماروم، بل عالمٌ خفيّ، وكر التّنانين، حيث تُحاك الخديعة قبل أن تُخاض الحروب.

ابتسم أنكالاجون ابتسامةً واهنة كقنديلٍ يحتضر، ثمّ قال بصوتٍ خفيضٍ لا يليق بوحشٍ يُرعب الأساطير:

_لم آت لأقاتلكِ، بل لأجعلكِ تقاتلين نفسكِ.

وفي تلك اللّحظة سُحب حيزوم من بين طيّات الواقع، كما تُسحب الرّوح من جسدٍ لم يستعدّ للفقد.

ظهر، لكن ليس كما كان، كان واقفًا، جسده كما هو، لكنّ روحه غريبة عنه، كأنّ قلبه انتُزع واستُبدل بظلٍّ بارد.

عيناه لم تعودا لوزيّتين تشعّان نبالة، بل غاصتا في سوادٍ كثيف، كليلٍ لم يعرف فجرًا قط.

قالت قدر بصوتٍ اختنق بين أضلاعها: _حيزوم...؟

لكنّ الاسم سقط من شفتيها، كما تسقط نجمةٌ في بحرٍ لا يُعيدها.

تقدّم خطوةً واحدة، لكنّها كانت كافيةً لتهدم تاريخًا كاملًا بينهما، قال بصوتٍ غريب، خشن، خالٍ من دفء الذّكرى: _لا تناديني بهذا الاسم.

ارتعش الهواء، وارتعشت قدر، كأنّ العالم كلّه أخطأ في نطق الحقيقة.

ضحك أنكالاجون، ضحكةً ماكرةً قصيرة:

_كنتِ تبحثين عن حربٍ عادلة، فما أعدل من أن تُقاتلي مَن تحبّين؟

ثمّ انحنى قليلًا، كأنّ ضعفه بدأ يتسرّب من هيبته المصطنعة:

_أنا أضعف من أن أواجهكِ، لكنّه...

وأشار إلى حيزوم: _سيفعل.

وفي ومضة، انطلقت يد حيزوم كسهمٍ أفلت من قوسٍ مكسور، واستلّ سيفه الّذي كان يومًا درعها ليصبح الآن حدّها القاتل.

اصطدم السّيف بالأرض أمام قدميها، شرارة انبعثت كأنّها آخر محاولةٍ للنّور، تراجعت قدر خطوة، وقلبها يتشظّى: _حيزوم... أنا قدر...

لكنّه لم يسمع، أو لعلّه سمع ولم يعد يعرف كيف يُصغي.

اندفع نحوها، كإعصارٍ فقد اتّجاهه، يضرب دون أن يدري أنّه يقتلع جذوره.

رفعت سيفها، لكنّ يدها ارتجفت، كغصنٍ يرفض أن يطعن الرّيح.

كيف تقاتل يدًا كانت مأوى؟

كيف تُشهر السّيف في وجه من كان وطنًا؟

في داخلها اشتعلت ألف حرب، كلّها تنتهي بها ضدّ نفسها.

صرخ أنكالاجون من الخلف، وصوته يترنّح بين الخبث والرّجاء:

_اقتلها.

وفي تلك اللّحظة، لمعت عينا حيزوم بلونٍ غريب، كأنّ شيئًا ما، شيئًا صغيرًا جدًّا يحاول أن يعود.

لكنّ السّحر كان أثقل، أقسى، وأسرع.

انقضّ من جديد، وهنا أدركت قدر الحقيقة الّتي لم تُكتب في أيّ كتاب:

أنّ أقسى الحروب ليست تلك الّتي تُراق فيها الدّماء، بل تلك الّتي يُسفك فيها القلب حيًّا.

رفعت سيفها أخيرًا، لا لتهاجم، بل لتنجو.

الوقت كان ينفد، والجنان تنتظر قرارًا سيعيد كتابتها، أو يمحوها إلى الأبد.

اندفع حيزوم كريحٍ هوجاء فُكّت عقالها، لا يعرف وجهته، ولا يعرف أنّه يمضي نحو اقتلاع قلبه بيديه.

وفي لحظةٍ خاطفة، لمحت قدر بريق الرّمح قبل أن تشعر به.

غاص في خاصرتها كما تغوص الحقيقة في صدرٍ لم يتهيّأ لها، وانبثق الدّم دافئًا، قانيًا، كأنّه آخر اعترافٍ للجسد قبل السّقوط.

ترنّحت، لكنّها لم تسقط، رفعت عينيها إليه، نظرةً واحدةً كانت أثقل من ألف طعنة.

بالكاد استطاعت أن تهمس: _حيزوم...

لكنّه لم يكن هناك، انقضّ عليها، وأحاط عنقها بكلا كفّيه، قبضة قاسية، جُبلت على الإزهاق لا العناق.

انحبس الهواء في صدرها، وتقطّعت أنفاسها على حافّة الموت، كان وجهه قريبًا، قريبًا جدًّا... لكنّه أبعد ما يكون.

كيف يجتمع القرب كلّه والغياب كلّه في ملامح واحدة؟

حاولت أن ترفع يديها، أن تلمسه، لا لتدفعه، بل لتوقظه، لكنّ يدها ارتجفت، وسقطت كغصنٍ ذابلٍ لا يقوى على النّجاة، وفي اللّحظة الّتي أوشك فيها قلبها أن ينسحب كما ينسحب المدّ من شاطئٍ مهجور، انفلقت السّماء، لا بل احترقت، انشقّ الأفق عن وهجٍ لا يُحتمل، وهبطت الشّمس بأجنحةٍ ناريّةٍ تتّقد كألسنة الفجر الأولى، وشعرٌ ينساب ذهبًا مصهورًا، وعينان لو اجتمعت فيهما الشّمس والقمر لما بلغا ذلك السّطوع.

أطلقت صرخة، كأنّها أمرٌ كونيٌّ أطاعته النّار قبل الهواء، واندفعت ألسنة اللّهب كجيوشٍ من غضبٍ مقدّس، تلتهم جسد أنكالاجون وتجرّده من قناعه، من زيفه، ومن كلّ ما ادّعاه يومًا.

تلوّى، لا كوحشٍ جريح، بل كخدعةٍ انكشفت.

قال بصوتٍ مرهق، كحجرٍ يتفتّت تحت وطأة الحقيقة:

_كنت أضعف وأجبن من أن أقاتل ابنة الشّمس، فشيّدت التّنانين سورًا واختبأت خلفها دهورًا.

سعل دمًا، وكان الدّم كالحبر الأخير الّذي يكتب نهايته.

_ظننت أنّني سأفوز، خطّطت، انتظرت، لكنّها هزمت أقوى جنودي.

ارتجف صوته، وتلاشى بين ألسنة النّار:

_لكنّ انتصاركِ لن يكتمل، فها هي ابنتكِ تموت بين يدي من أحبّت.

وفي آخر شهقة، لم يمت كالتّنانين، لم ينفجر، لم يزمجر...

انطفأ كما تنطفئ الكذبة حين تلامسها الحقيقة.

تبعثرت بقاياه رمادًا، حمله الهواء بلا اكتراث، كأنّ الوجود نفسه لفظه خارج ذاكرته.

وفي اللّحظة ذاتها، ارتخت قبضة حيزوم حينما فكّ أثر التّعويذة بموت صاحبها، تراجع كمن أعيد إلى جسده بعد غيابٍ طويل، وعيناه تتّسعان رعبًا أمام ما اقترفت يداه.

نظر إلى كفّيه المغمورين بالدّم، ثمّ إلى قدر المسجّاة أمامه كزهرةٍ ذُبحت في ربيعها.

انهار واحتضنها، كأنّه يحاول أن يعيد روحها إلى مكانها، يمرّر أصابعه في خصلات شعرها، يرتّبها، يعتذر منها دون صوت.

قدر.... قدر، لا... لا تتركيني...

ضغط بيده على الجرح، يريد أن يوقف النّزيف، أن يوقف الزّمن، أن يوقف نفسه، لكنّ الدّم كان أصدق منه.

لامس وجنتيها، باردتين كما لم يعرفهما يومًا.

ارتجف صوته: _أنا هنا... أنا عدت، اسمعيني!

فتحت عينيها ببطءٍ كنافذةٍ أخيرةٍ على الدّنيا، وقالت بصوتٍ واهنٍ، يرتجف بين أنفاسها المتقطّعة:

_لا تلم نفسك... فكلّ ما حدث كان قدرًا مقدّرًا لي.

سعلت دمًا، ثمّ تابعت:

_أنت ضحيّة مثلي، كلانا لم نختر هذه الحياة، حملنا خطايا غيرنا كما تُحمل الأثقال.

توقّفت لحظة، تبحث عن نفسٍ ضائع، ثمّ ابتسمت ابتسامةً خفيفة:

_آسفة لأنّني أدخلتك في هذه الحرب منذ اليوم الأول.

أغمضت عينيها قليلًا، ثمّ فتحتها بصعوبة:

_سأرحل الآن، وربّما ألتقي عيّار.

ضحكت ضحكةً خافتةً كخيط نورٍ في العتمة:

_سأخبره أنّك لا تشتاق إليه، وسيقول: "لم أعهدك هكذا".

همست أخيرًا: _أمزح، نحن نحبّك، ونعلم كم تحبّنا.

ثمّ أرخت يدها ببساطةٍ مرعبةٍ... كما تسقط آخر ورقةٍ خريفيّةٍ حين تنتهي مهمّتها في آخر الخريف.

سكن كلّ شيء، اقتربت شمس، وجلست عند رأسها، تمدّ يدًا ترتجف تلامس وجه ابنتها، تتحسّس ملامحها كمن يحفظها للمرّة الأخيرة في سراديب الذّاكرة.

انحدرت من عينيها دموعٌ ليست كالدّموع، بل قطرات من نار، كلّ قطرة تسقط فتكاد تحرق الأرض تحتها.

همست، بصوتٍ مذبوح: _يا طفلتي... يا قدري...

رفع حيزوم رأسه، وعيناه غارقتان في ذهولٍ لا يُحتمل:

_كيف.. كيف حدث كلّ هذا؟

وكيف خرجتِ من اللّازمان؟

أجابته، وصوتها يحمل بقايا شمسٍ هزمها الكون:

_هذا ما كتبته طفلتي، الحقيقة الّتي أعادتني لعالمي، هي قادرة على تغيير قوانين الجنان بأسرها.

_أتقصدين أنّ كلّ ما كتبته تحقّق، ولذا انفكّ أسركِ؟

_نعم، لكنّني لا أعلم ماذا كتبت بعد ذلك!

ثمّ نظرت إلى جسد قدر، وارتعش صوتها:

_كان يجب أن تعود إلى عالمها، لو عادت لانتهى كلّ شيءٍ دون أن تدفع الثّمن.

هناك سرٌّ لم نعرفه.

نظرت إلى وجه ابنتها، وأردفت: _وربّما مات معها.

وساد الصّمت بينهما، بينما يتأمّلان براءة قدر قبل دفنها، كان الجوّ باردًا جدًّا، كأنّ الكون نفسه يعيش حدادًا.

حملها بين ذراعيه، وحلّقا معًا إلى قصر الجنان، انحنى فوقها، وكأنّ جسده نُزعت منه الأعمدة، يداه ترتجفان، لا من ضعفٍ، بل من عجزٍ لم يعرف له اسمًا... بينما شمس عاجزة عن تصديق موتها.

راح يضغط على جرحها، كأنّه يفاوض الدّم على البقاء، يقنع الحياة أن تعود خجلًا من إصراره.

نهضت شمس كأمٍّ أرهقها الانتظار، تجرّ أجنحتها كأنّها أثقل من السّماء نفسها، ثمّ جثت مرّة أخرى بجوار ابنتها، لم تبكِ هذه المرّة، وكأنّها تحضّر نفسها لانتقامٍ جبّار!

فالحزن حين يبلغ ذروته لا يجد طريقًا إلى الدّموع.

_كنت أعلم أنّكِ لن تختاري الطّريق السّهل يا طفلتي.

رفعت رأسها فجأة، وعادت ملامحها إلى صرامة باردة، كما لو أنّ قلبها أغلق بإحكام: _ادفنوها.

لم يفهم حيزوم الكلمة، أو لعلّه فهمها ورفضها.

رفع رأسه ببطء، وعيناه تشتعلان بذهولٍ جارح: _ماذا قلتِ؟

_ادفنوها.

قالتها شمس بيقينٍ صلب، كأنّها تقطع خيطًا لا يجب أن يُعاد وصله.

كانت أرض الجنان _لأوّل مرّة_ تبدو كأنّها لا تعرف كيف تحتضن جسدًا ميّتًا.

حُفر القبر، لا بترابٍ، بل بصدورٍ مثقلة، وأيادٍ ترتعش.

وحين وُضعت قدر في جوف الأرض... انكسر حيزوم.

للوهلة الأولى أبى أن يصدّق، ثمّ هوى على ركبتيه، وغرس كفّيه في التّراب، راح يحفر بيديه المجرّدتين، كأنّه ينازع الأرض على ملكيّتها: _أعيدوها!

صوته خرج لا كصوت إنسانٍ، بل كصهيلٍ ممزّق، صدره تحوّل إلى ميدان حرب، تشقّقت يداه، ونزفت حتّى خُضّب الثّرى بدمه، لكنّه لم يتوقّف.

اندفع اليمام الحارس، بأجنحتهم العريضة كجدرانٍ بيضاء، حالوا بينه وبين القبر، فصار يضربهم بقبضتين خاطفتين لا تكادان تُريان، كأنّه يقاتل القدر نفسه.

_ابتعدوا عنّي!

لكنّهم لم يبتعدوا، فانهار... سقط على التّراب وأسند جبينه إليه، كأنّه يضع رأسه على صدرها.

حين أرخى اللّيل ستائره، لم يغادر، بقي هناك يمرّر أصابعه فوق التّراب، ببطءٍ عجيب، كما لو أنّه يسرّح خصلات شعرها كلّما لامس حفنةً منه.
أغمض عينيه، كأنه يتخيّل ملمسها بين يديه، أخرج من جيبه زهرة ياسمين، وضعها فقو القبر، ثمّ أخرى، ثمّ أخرى، حتّى بدا القبر كالبستان.
_كنتِ تكرهين الياسمين ذابلًا، انظري، هذه حيّة كما تحبّين.
اقتربت غسق وجلست إلى جواره دون أن تتكلّم، الصّمت بينهما لم يكن فراغًا، بل امتلاءً لا يُحتمل، قالت أخيرًا، بصوتٍ خافت:

_لم تتركنا وحدنا فقط.

فهمس وعيناه على التّراب:

_تركتني أنا.

"أثيرٌ لم يطأه الجسد"

وفي مكانٍ آخر، حيث لا يصل البكاء ولا الأسماء، كان هناك شيءٌ يتحرّك، لا جسد، ولا ظلّ، بل أثر.

كأنفاسٍ يمرّ من بين الأشجار، يلامس الهواء، ويترك خلفه ارتعاشةً لا تُفسّر.

لم يشعر به أحد، لكنّهم، جميعًا، شعروا بشيءٍ ينقصهم، وشيءٍ آخر يرافقهم.

أمّا شمس، فلم تقف طويلًا عند القبر، استدارت، وخطت بعيدًا، لكنّ ظلّها لم يتحرّك معها كما ينبغي، وحين غابت عن الأنظار عادت، اقتربت من القبر، وانحنت... ولمست التّراب.

لم تقل شيئًا، لكنّ أصابعها غاصت فيه، أعمق ممّا يجب، أعمق... كأنّ الأرض ليست نهاية، بل غطاء.

ثمّ همست، بالكاد تُسمع: _لن أدعكِ ترحلين حتّى أتأكّد.

في أعماقٍ لا تصلها الأبصار، ولا تجرؤ عليها الأسئلة، كان هناك موضع لا يُسمّى مكانًا، ولا يُدرك زمانًا، كأنّه لبّ الحكاية حين تُجرّد من ألفاظها، وجوهر المعنى حين يتخلّى عن اللّغة.

هناك كانت قدر، لا جسدًا يرى، ولا روحًا تحلّق، بل حضورًا مائعًا، كفكرةٍ لم تكتمل، وكقانونٍ لم يُعلن بعد.

لم تمت، لكنّها لم تعد كما كانت، انسلخت من كونها "شخصيّة"، وصارت نفسًا يسري في صدور الحكاية، لأنها _في اللّحظة الأخيرة_ لم تكتب نهايةً، بل كتبت مأزقًا للكون.

كان بوسعها _لو شاءت_ أن تخطّ السّطر الّذي يُطفئ الخطأ بإفنائه، أن تقول: _لينتهِ كلّ شيء، فينتهي معه الوجع.

لكنّها رأت ما هو أعمق، وأدركت ما يعجز عنه العقل، أنّ نهاية الخطأ ليست خلاصًا، بل محوٌ لما كان يستحقّ البقاء معه.

فانحرفت عن الطريق الأقصر واختارت الأصعب، كمن يختار أن يحمل جرحًا بدل أن يداويه.

كتبت _بدمٍ لا يغفر له النّسيان_ حلًّا ثالثًا لا فناء فيه ولا بقاء كما هو، بل اندماجٌ يرتجف على حدّ التّناقض.

لكنّ الدّمج ليس قرارًا يُكتب بل ميزانًا يُقام، ولكلّ ميزانٍ كفّتان، ولكلّ كفّة ثمن.

كان لا بدّ من تضحيةٍ لا تُستردّ، وتوازن لا يختلّ، وقلب لا ينتمي إلى عالمٍ واحد...

لذا انفصلت، لا إلى موتٍ يُنهيها ولا إلى حياةٍ تُبقيها، بل إلى ما بينهما.

في أرض الجنان لم يعرفوا ذلك، لكنّ شيئًا كان قد بدأ، غير مرئيٍّ، ولا قابلًا للإثبات، غير أنّ الهواء نفسه صار يتردّد في الصّدر تردّدًا غريبًا، كأنّه يبحث عن إيقاعٍ فُقد فجأة.

حيزوم لم يعد كما كان، لم يكن جنونه صاخبًا، بل صامتًا على نحوٍ أشدّ فتكًا.

يمشي، يقف، يُقاتل... لكنّ داخله كان يئنّ، يحسّ بفراغٍ كبير، بشيءٍ غريبٍ لا يستطيع تسميته.

يمرّ بالقرب من الياسمين، فيضيق صدره بلا سبب، كأنّ الرّائحة تحمل سرًّا.

أحيانًا، يمدّ يده إلى الفراغ، كما لو أنّه اعتاد أن يمسك كفًّا لم يعد هناك، ثمّ يتجمّد، ويخفضها ببطء، كمن أدرك فجأةً أنّه يُخطئ في حقّ الغياب.

لم ينسَها، لكنّه لم يعد يملكها، صارت في ذاكرته إحساسًا بلا ملامح، وألمًا بلا حضور، وغسق تدرك أنّ هذا الفراغ ليس عاديًّا، وأنّ ما خُلع من قلب حيزوم لم يُنتزع عبثًا.

تحاول أن تمسكه قبل أن يتداعى، أن تربطه بما تبقّى منه، لكنّها كانت تشعر، في كلّ مرّة، أنّها تمسك بسراب.

أمّا شمس، فكانت الوحيدة الّتي لم تنخدع تمامًا، كلّما أغمضت عينيها، شعرت برجفةٍ خفيّة، كأنّ صوتًا بعيدًا يناديها من وراء حجابٍ كثيف.

همست لنفسها، مرّةً، بصوتٍ خافتٍ كالخشية: _لم تُمحَ...

ثمّ سكتت، كأنّ الكلمة نفسها أخطر من أن تُقال.

في تخوم النّسيان، بدأت ظلالٌ تتجمّع، تستعيد أشكالها ببطء، كأنّ الحكاية تنقّب في موتاها لتعيدهم إلى السّرد.

وكان اسمٌ بعينه، يرتجف بين العتمة والنّور... عيّار.

لم يعد كما كان، لكنّه لم يبقَ حيث وُضع.

وفي قلب الأحداث، حيث لم يصل أحد بعد، كان شيءٌ آخر ينتظر أن يُبعث، قلبٌ اقتُلع من جسدٍ طاغٍ، ولم يمت، كأنّ فيه سرًّا لم يُستخرج بعد، أو بابًا لم يُفتح.

شيءٌ فيه ينتمي إلى قانونٍ آخر، لا يخضع للموت، ولا يُطيع الحياة، وفي ظلّ هذه الفوضى الهادئة، كانت قدر تمرّ بينهم كأنفاسٍ خفيفة على الأعناق، كارتعاشةٍ في أطراف القرار، كفكرةٍ تلمع قبل أن تولد.

لم تعد البطلة الّتي تقاتل داخل الحكاية، بل اليد الّتي تعيد ترتيب قوانينها، والحكاية _الّتي ظنّ الجميع أنّها انتهت_ كانت للتوّ تبدأ من جديد.

انشقّ الصّباح على أرض الجنان، لا هو بالفجر الكامل ولا باللّيل المنقضي، بل منزلةٌ بينهما، كحال قلبٍ لم يبرأ بعد من فقدٍ عظيم.

كانت الشّمس ما تزال تتردّد في صعودها، نصفُها يُشرق، ونصفُها الآخر يحنّ إلى الغياب، فتنعكس صورتها على صفحة البحر المرتجف، فيبدو الضّوء مكسورًا... كغياب قدر.

جلس حيزوم على صخرةٍ عند الحافّة، حيث يلتقي الماء بالسّماء، وقد أسند كفّه إلى الأرض كأنّه يستند إلى ما تبقّى له من ثبات.

عيناه، تلك الّتي طالما حملت صهيل العزم، كانتا مثقلتين بليلٍ لا ينقضي، تفيضان حزنًا صامتًا، كغيمٍ أثقلته الأمطار، لكنّه يأبى أن يهطل دفعةً واحدة.

اقتربت غسق بخطا وئيدة، وجلست إلى جواره دون أن تقطع عليه صمته، طال نظره إلى الأفق، حيث تختلط الزّرقة بالضّوء، ثمّ قال بصوتٍ خافت كأنّه يخرج من عمقٍ بعيد: _أتعلمين يا غسق؟

أحيانًا أشعر أنّني لم أفهمها قطّ، رغم أنّني كنت أراها أقرب من أن تُجهل.

سكت لحظة، وكأنّه يستحضرها من بين الأمواج، ثمّ أغمض عينيه قليلًا، وقال: _كانت تحدّثني عن أشياء عجيبة، وكأنّها تراها أوضح منّا جميعًا.

تنفّس بعمق، ثمّ رفع رأسه نحو السّماء الّتي لم تكتمل بعد وقال:

_ذات مرّة، كنّا نقف تحت هذا الاتّساع نفسه.

وهنا انساب صوته كزمنٍ يُعاد بعذوبته ووجعه:

_كانت تُطيل النّظر إلى السّماء، وتُشير إليها بإصبعٍ نحيل، كأنّها تمسك خيطًا من نور، وتقول لي بصوتٍ خافتٍ يشبه ارتطام الحلم بحدود الواقع: «أتعلم؟ نحن لا ننظر إلى السّماء، نحن نقرؤها.

هي ليست سقفًا أزرق مثقوبًا بالنّجوم، بل أرشيفًا مفتوحًا للماضي، صفحاتُه من ضوء، وحروفه من نجوم».
سكتت لحظةً، ثمّ ابتسمت ابتسامةً فيها شيءٌ من الدّهشة:

«انظر إلى الشّمس، تبدو لك أعظم ما في السّماء، أليس كذلك؟

قرصٌ ذهبيٌّ يملأ عينيك، حتّى لتظنّ أنّ الكون قد اختُصر فيها.

لكنّ الحقيقة الأكثر غرابة... أنّه هناك نجومٌ لو وُضعت في مكانها، لابتلعتها كما تبتلع قطرة ماءٍ ورقة يابسة.

هناك نجمٌ يُدعى منكب الجوزاء، أحمر كقلبٍ مُتعب، ضخم كحكايةٍ لا تنتهي، وآخر الدّبران، يتوهّج كعينٍ ساهرةٍ في ليلٍ طويل، وهناك العملاق الّذي لا يكاد يُصدّق، يو واي سكوتي... لو اقترب منّا لابتلع المدارات بأكملها، وكأنّها لم تكن».

ثمّ التفتت إليّ بعينين فيهما سؤالٌ أعمق من السّماء:

«لكن... لماذا تبدو كلّها كنقاط؟»

وأكملت:

«لأنّ المسافة يا صديقي ليست مجرّد بُعد... بل حجاب كلّما ابتلع الشّيء، تلاشى حجمه في عيوننا، حتّى لو كان أعظم من خيالنا، نحن لا نرى الحقيقة، نحن نرى فقط ما تسمح به المسافة.

والأغرب من هذا كلّه، أنّ بعضها قد مات، نعم... مات!

لا كما نموت نحن، بل خمد، انطفأ، انتهى وقوده، وتلاشى وهجه في صمتٍ كونيّ.

بعضها انفجر في سوبرنوفا، كصرخةٍ أخيرةٍ تمزّق العدم، وبعضها انكمش حتّى صار قزمًا أبيض، بقايا نارٍ خمدت».

ثمّ سكتت قليلًا، لكن هذه المرّة لم يكن صمتها فراغًا يا غسق، قالت لي:

«نحن أيضًا... نمرّ في حياة بعضنا كما تمرّ النّجوم في السّماء، نضيء، نبهر، نملأ العيون حضورًا، ثمّ نمضي، وكأنّنا لم نكن، لكنّ أثرنا يبقى عالقًا، يتوهّج في ذاكرةٍ لم تتعلّم بعد كيف تُطفئ ما أحبّت».

في سردها آنذاك كان ألم خفيّ لم أدركه إلّا الآن، أتذكّر ما قالت:

«أحيانًا لا نرى حقيقة الأشياء إلّا حين تبتعد، ولا ندرك قيمتها إلا حين تتلاشى، كأنّ القرب يعمي، والغياب وحده يبصر، وكأنّ كلّ ما يدهشنا في هذه الدّنيا يدفع ثمنه، خفاءً أو فناءً».

ثمّ تنهّدت، وكأنّها تخرج من صدرها زمنًا كاملًا:

«حتّى الكلمات يا صديقي نحاول أن نرسلها، أن نودعها في قلوب من نحبّ، لكنّها تتأخّر، تتعثّر في طرقٍ لا نعرفها، تصل بعد أن نهدأ، أو نتغيّر، أو نختفي.

تمامًا كضوء نجمٍ انطفأ منذ زمن، لكنّه يصرّ على أن يصل متأخّرًا، جميلًا.

ومع ذلك، ما زلنا نراه، نراه يلمع، يبتسم، كأنّه حيّ، بينما هو في الحقيقة ذكرى، لأنّ الضّوء بطيءٌ بما يكفي ليكون رسولًا للماضي، يسافر عبر سنواتٍ وسنوات، ليصل إلينا متأخّرًا، حاملًا صورةً لما كان، لا لما هو كائن».

ثمّ نظرت إليّ طويلًا، وكأنّها تتأمّلني أو تودّعني دون أن أعي، وقالت:

«أتفهم الآن؟

حين ترفع رأسك إلى السّماء، أنت لا ترى الحاضر، أنت تتأمّل زمنًا انقضى، نجومًا قد لا تكون موجودة، وضوءًا قرّر أن يروي قصّته متأخّرًا».

خفضت يدها ببطء، وتركت الخيط الضّوئيّ يسقط في العتمة، ثمّ قالت:

«السّماء ليست سماءً يا صديقي... إنّها مقبرة مضيئة لأفلاكٍ انطفأت قبل أن نولد، إنّها ذاكرة».

خفض حيزوم رأسه، ومرّر يده على وجهه كمن يحاول محو أثر زمنٍ كامل، ثمّ قال بصوتٍ متهدّج:

_كانت تعي خطورة ما تُقبل عليه يا غسق، وأنا لم أرَ إلا بعد أن غابت.

ارتفع الموج قليلًا، كأنّ البحر يشاركه اعترافه، وارتعش الضّوء فوق سطحه، كذكرى تحاول أن تعود ولا تستطيع.

أمّا غسق، لا تعرف كيف تواسي صديقها بينما هي بأمسّ الحاجة لمن يواسيها، لكنّ عينيها كانتا تقولان:

_إنّ بعض الحكايات لا تنتهي حين تُروى، بل حين نفقد من كان يرويها.

ساد الصّمت بعد استرجاع تلك الّذكريات، صمت يُثقل الصدر كما يثقل الغيم سماءً على وشك البكاء.

ظلّ حيزوم محدّقًا في الأفق، لكنّ نظره لم يكن هناك، كان غارقًا في مكانٍ لا تصل إليه العيون.

تحرّك الموج عند قدميه، يقترب ثمّ يتراجع، كأنّه يحاول أن يوقظه من شروده، أو يعيده إليه.

تنفّس ببطء، ثمّ قال، دون أن يلتفت إلى غسق، وكأنّه يخاطب البحر أكثر ممّا يخاطبها:

_لم تكن السّماء وحدها مَحطّ حديثها، بيننا عمرٌ وذكرياتٌ لا تحصى، كان لها حديث آخر... مع هذا الامتداد الّذي أمامنا.

رفع يده قليلًا، وأشار إلى الماء، ثمّ أطرق رأسه، وبدأ صوته ينساب من جديد، لكن هذه المرّة كأنّه يخرج من عمقٍ غارق:

_كان البحر هادئًا على غير عادته حين جلست عند حافّته، أراقب الموج على الرّمل، وكلّ موجةٍ كانت تعيد إليّ صوتها، كأنّ الماء يحفظ ما نقوله ثمّ يردّه إلينا حين نصمت.

تذكّرتها فجأة، لم تكن هنا، لكنّ حضورها كان يملأ المكان، كأنّها ذابت يومًا في الأفق، وتركت أثرها في زرقةٍ لا تنتهي.

قالت لي يومها، ونحن نقف أمام هذا الامتداد الغارق في الأزل:

«أتعلم؟

الأرض ليست أرضًا ممهّدةً كما نظنّها، بل جرمٌ هائمٌ يسبح في فراغٍ صامت، كقلبٍ معلّقٍ بين خفقتين؛ وكلّ ما عليها من ماءٍ ويابسة، من مدنٍ وذكريات، ليس إلّا غلافًا رقيقًا يعانق سرًّا أعظم في الدّاخل».

ضحكتُ حينها، لا استهزاءً بل عجزًا عن استيعاب هذا الاتّساع الّذي كانت تنطق به بسهولة.

لكنّها لم تضحك، كانت تنظر إلى البحر وكأنّها تحتضنه بعينيها، وقالت:

«ترى هذا الماء؟

لا يسقط، لا ينسكب، لا يفرّ من حوافّ الأرض كما قد يخطر لك!

لأنّ هناك نواميس غيبيّة، وقدرة لدنيّة لا ترى، تُمسك بالوجود أن يزول، وتشدّ عتوّ اللّجة إلى ثباتنا».

في تلك اللّحظة، انتفض قلب قدر بآيات كأنّها نُقشت بنورٍ أزليٍّ على جدار ذاكرتها، فارتفع صوتُها الدّاخليّ عذبًا، خاشعًا، يتلو أسرار العلم الغيبيّ الّذي أُودع في روحها، قوله تعالى: ﴿وَعَلّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ الكهف ٦٥

ثمّ انساب صوتها متهدّجًا بالإعجاز الباهر وهو يرتّل صدى آية أخرى تحرس هذا الكون: ﴿إِنَّ اللّه يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ والأَرْضَ أَنْ تَزُوْلَا﴾ فاطر ٤١

ليتلاقى في أعماقها مع أثر آيةٍ ثالثة تفسّر كبح هذا الجموح الأزرق وتدبيره الخفيّ:

﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللّه بالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيْم﴾

هناك تجلّت الحقيقة عاريةً من أوهام الماديّة، فالرّباط الّذي يمنع البحر من الانفلات ليس مجرّد قوّة عمياء، بل هو نفاذ الأمر والقيوميّة الّتي تدبّر العوالم.

ثمّ التفتت وقالت:

«نحن لا نقف على الأرض يا صديقي، نحن معلّقون بها، كما تُعلّق الذّكرى في القلب، لا تراها، لكنّك لا تستطيع الإفلات منها».

ثمّ انحنت قليلًا، واغترفت بيدها ماءً، تركته ينساب من أصابعها ببطء، وقالت:

«كلّ قطرةٍ هنا تعرف طريقها، تعرف أين تنتمي، حتّى وهي تبدو حرّة...

وهكذا نحن، نظنّ أنّنا نختار، أنّنا نمضي حيث نشاء، لكنّنا _بطريقةٍ ما_ نعود دائمًا إلى مركزٍ لا نراه، إلى ثقلٍ داخليٍّ يجذبُنا بسلطانٍ لا يُمكن ردّه، دون أن نستأذنه».

سكتت لحظةً قبل أن تُكمل، وكان سكوتها أبلغ من صخب الكون:

«والمثير، أنّ هذا الكوكب يغلب عليه الماء، كأنّ الحياة اختارت أن تُكتب بالحبر، لا بالحجر».

لكن اليابسة، تلك القليلة بنسبتها الـ٢٩، هي الّتي نقف عليها، نبني فوقها أسماءنا، نظنّ أنّها الأصل، مع أنّها ليست إلّا استثناءً صغيرًا في بحرٍ لا نهاية له".

التفتت إليّ يومها، بعينين فيهما عمقٌ يشبه هذا الأفق:

«أتعرف ما يشبه ذلك؟

نحن، نعيش على مساحاتٍ ضئيلةٍ من اليقين، وسط محيطٍ هائلٍ من المشاعر الّتي لا نفهمها، نتمسك بما هو ثابت، لأنّنا نخاف أن نغرق فيما لا يمكن تسميته».

عاد صوت الموج يعلو، كأنّه يصفق لاعترافٍ متأخّر:

_وأنا الآن، بعد أن غابت... أفهم، أفهم كيف أنّ الماء لا يسقط، لأنّه يجد دائمًا ما يشدّه، وأفهم أنّني، منذ رحيلها، لم أسقط أنا أيضًا، رغم الفراغ، كأنّ شيئًا ما، خفيًّا كالجاذبيّة، لا يزال يبقيني معلّقًا بها، أدور حول ذكراها، كما تدور الأرض حول محورها، دون أن أراه، ودون أن أستطيع الإفلات.

الموج يتقدّم ثم يتراجع، كأنّ البحر يحاول أن يقول شيئًا ما ولا يكتمل.

وأنا أحاول أن أتذكّر ما لم تقله، ربّما كانت تعرف أيضًا أنّ بعض الحقائق لا تُقال كاملة، كما أنّ بعض المكنونات لا تُفشى، ومع ذلك هي الّتي تحفظ سرّ العالم كلّه.

انقطع صوته، لم يبقَ سوى البحر يضرب الشّاطئ كقلبٍ أنهكه البكاء، ويعود كأنّه يعتذر عن عجزه.

أغمض حيزوم عينيه، وهمس بصوتٍ بالكاد يُسمع:

_كانت تعرف كيف تزرع نفسها في كلّ شيء، في السّماء، وفي البحر، حتّى لم أعد أعرف أين تنتهي هي... وأين يبدأ العالم.

التفتت إليه غسق، وعيناها تغرقان بدمعٍ مكبوت، لكنّها لم تقل شيئًا، لأنّ بعض الفقد لا يُواسى بالكلام، بل يُحفظ، ويُنصت إليه.

رفعت غسق بصرها نحو الأفق، حيث كانت الشمس تكتمل ببطءٍ، لا استعجال فيها، ولا اكتراث لما ينهار تحتها.

تأمّلت ذلك التناقض الذي طالما حيّر الأرواح:

كيف يستمرّ الضّوء بينما تتعطل الحياة في صدورنا؟

ثمّ قالت بصوتٍ خفيض، كأنّها لا تخاطب حيزوم وحده، بل تخاطب هذا الوجود بأسره: _هنا الدّنيا.

سكتت لحظة، ثمّ أكملت وقد انسدل صوتها كوشاحٍ من وجعٍ رقيق:

_هنا، حيث الأمنيات تأتي ناقصة، كأنّها خلقت لتجرّب القلب، لا لترضيه.

وحيث مفاجآت البلاء تتسلّل إلينا، تمامًا حين نوهم أنفسنا أنّنا استقرّينا.

هنا نضحك، وقبل أن تكتمل ضحكتنا، تدركنا غصّة مباغتة، كأنّ الفرح لا يُؤذن له بالبقاء طويلًا.

خفضت عينيها نحو الأرض، ثمّ همست:

_هنا السّجن يا حيزوم، مهما اتّسعت المسافات، ومهما حلّقنا، نبقى معلّقين بأثقالٍ لا تُرى، بخساراتٍ لا يُعلن عنها أحد.

ثمّ رفعت رأسها مجدّدًا، لكن هذه المرّة لم تنظر إلى البحر، بل إلى السّماء، كأنّها تبحث عن وعدٍ مؤجّل:

_الإفراج ليس هنا، الإفراج يوم تطير الأرواح، وتجد مستقرّها الّذي لا يُنتزع منها.

و "هناك"... كلمة واحدة، لكنّها فتحت في الهواء أفقًا آخر:

هناك الجنّة، حيث لا شيء يسلبه الزّمان منك، لا فقد، لا تأخر، لا أشياء تصل بعد فواتها.

هناك، لا نحمل قلوبنا كعبء، بل كنعمةٍ مكتملة، لا نخاف أن نحبّ، ولا نخشى أن نفقد.

عاد صوت الموج، لكنّه بدا هذه المرة أكثر هدوءًا، كأنّه استسلم.

أمّا حيزوم، فبقي صامتًا، لكنّ دمعةً وحدة، ثقيلةً كاعترافٍ أخير، انحدرت على وجنته، كأنّه أدرك _ولو متأخرًا_ أنّ بعض الحكايات لا تُحقّق في هذه الدّنيا، بل تؤجّل... إلى حيث لا يؤجّل شيء.

نهضت غسق ببطء وأشارت لحيزوم أن يتبعها، لم يعترض، كان كمن يسير بجسدٍ حاضرٍ، وروحٍ ما زالت جاثيةٍ عند قبرٍ لم يبرد ترابه بعد.

عادا إلى القصر، هناك، لم يكن الضوء كما عند البحر، بل كان ينساب من أعمدة الرخام كخيوطٍ من ذهبٍ حيّ، واليمام تصطفّ على الجانبين كحرسٍ صامد، أجنحتها مضمومة كأنّها في صلاةٍ طويلة.

وفي صدر القاعة، جلست الملكة هيليكونيا، عينان كأفقٍ يعرف كلّ شيءٍ ولا يقول.

توقّف حيزوم عند المدخل، وكأنّ قدميه تأبيان التّقدّم، لم يكن يخشى الملكة، بل يخشى أن يسمع شيئًا يشبه الأمل.

تقدّمت غسق وحدها، ثمّ التفتت إليه وقالت بهدوءٍ ثابت:

_إلى متى ستبقى أسير اللّحظة الّتي انتهت؟

لم يجب... فاقتربت أكثر، وصوتها هذه المرّة لم يكن مجرّد كلماتٍ، كان يقينًا يُلقى في قلبٍ يوشك أن ينهار:

_يراك الله يا حيزوم، وأنت تلقّن قلبك:

﴿إِنّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ الله لَا يُضِيْعُ أَجْرَ المُحْسِنِيْن﴾

ارتعش طرف جفنه، لكنّه بقي صامتًا.

تابعت متقدمةً خطوةً أخرى: _يراك وأنت تهمس لنفسك:

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُوْنَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَاْب﴾

يراك وأنت تنتظر الفرج، وتتشبّث بوعد:

﴿إِنَّا وَجَدْنَاْهُ صَاْبِرًا نِعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّاب﴾

أخبر قلبك... قالتها غسق بخفوتٍ عميق:

_أنّ الله يرى صبرك، وأنّ العاقبة ستكون خيرًا، ولو بدا الطريق موحشًا الآن.

اقتربت الملكة هيليكونيا، ولم يكن في خطواتها صوت، كأنّ الأرض تحفظ هيبتها، فلا تجرؤ أن تئنّ تحتها، قالت، ونبرتها تحمل ثقل قرونٍ من الحكمة: _الخير فيك يا حيزوم إن لم تُمته.

ثمّ أردفت وهي تنظر إليه:

_أكمل مسيرك، دع عنك الرّكود، وانطلق، فالسّقوط ليس أن تتألّم، بل أن تختار البقاء في الألم.

شدّ قبضته، وكأنّ الكلمات بدأت تعيد إليه شيئًا من ذاته الّتي تحطّمت.

في الخارج، كانت الشمس قد ارتفعت أكثر، لكنّ ظلّها ما زال طويلًا، كأنّها تقول: _النور لا يأتي دفعةً واحدة.

وقف حيزوم عند شرفة القصر، ينظر إلى أرض الجنان الممتدة، إلى الأشجار الّتي شهدت ضحكها، إلى الطرقات الّتي حفظت وقع خطواتها، وهمس بصوتٍ خافتٍ لكنّه أكثر ثباتًا:

_لطالما سمعت ربّ متأخّرٍ أعانه الله فسبق.

تنفّس بعمق، ثمّ أغمض عينيه لحظة: _لم يفت الأوان، أليس كذلك؟

اقتربت غسق، ووقفت إلى جواره: _ما دمت تتنفّس فالفرصة قائمة.

وفي باحة القصر، كانت اليمام تحلّق هذه المرة، لا كحرسٍ، بل كعلامةٍ، دوائر من نور تُرسم في السّماء، كأنّها تعلن أنّ شيئًا ما يتغيّر.

قالت غسق: _تذكّر دومًا: "طاب القطاف لمن سعى".

ثمّ نظرت إليه بعينين لا تعرفان التردّد:

_إنّ الله إذا كلّف أعان، فلا تنظر إلى ثقل الطّريق، بل إلى من يعينك عليه.

جلس على الدرج الحجريّ، وأطرق رأسه، ثمّ قال بصوتٍ متقطّع:

_لكنّ الأرض سُحبت من تحت قدمي، وأنا ما زلت واقفًا.

سكت لحظة، ثم تابع وكأنّه يبوح لأول مرة:

_كأنّ الكون انسحب من عينيّ وتركني بلا وطن.

اقتربت غسق وجلست أمامه، وقالت تُطمئنه:

_كلّ مسؤوليّة ألقاها الله على عاتقك أنت لها، استعن بالله ولا تعجز.

في تلك اللّحظة، مرّت نسمة لم تكن كغيرها، نسمة تحمل شيئًا مألوفًا!

توقّف حيزوم فجأة، رفع رأسه وأغمض عينيه، واستنشق كلّ الهواء دفعةً واحدة، وكأنّه يعيد الحياة إلى صدره!

_هل شعرتِ بذلك؟!

نظرت غسق حولها، لكنّها لم ترَ شيئًا، أمّا هو، فكان قلبه يخفق بطريقةٍ مختلفة، كأنّ شيئًا ما مرّ بقربه، لامس روحه ثمّ اختفى.

همس، دون وعي: _قدر...؟

لكنّ الهواء عاد صامتًا، رفعت غسق نظرها إلى السّماء، وقالت:

_لا تستوحش طريق اليقين، ولو طال العسر.

ثمّ أردفت، كأنّها تخاطب قلبه لا سمعه: _ولا تقل مستحيل، ألم يقلها زكريّا؟

وكان الجواب: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّن﴾

وقف حيزوم ببطء، ولأوّل مرة، منذ الفقد، لم يكن في وقفته انكسار، بل شيء يشبه بداية الحرب، رفع بصره إلى السّماء، وقال بصوتٍ خافت، لكنّه واضح: _لن أتوقّف عن الدّعاء.

ثمّ أضاف، وكأنّه يعاهد نفسه: _لن أُهزم، حتّى لو ظننت أنّني انتهيت.

في مكانٍ ما، كان هناك أثرٌ خفيف، كذبذبة في نسيج العالم، وكأنّ روحًا لم تغادر تمامًا.

"ما وراء قضبان الجِنان"

لم تكن الجنان كسابق عهدها، كأنّ شيئًا ما انكسر في عمودها الخفيّ، فمال الضوء، وتبدّلت الظّلال، وصار لكلّ شيءٍ وجهان:

ظاهرٌ يطمئنّ... وباطنٌ يثير الرّيبة.

في تلك الأيّام الّتي تلت الفقد، كان حيزوم يمشي كمن يحمل قلبه بين يديه، لا يسقط، لكنّه لا يثبت أيضًا، كان يردّد في سرّه، كمن يتشبّث بخيطٍ أخير:

«اللهُ يملك الأبوابَ كلّها، صغيرها وكبيرها، قريبها وبعيدها، يسيرها وعسيرها».

ثمّ يُغمض عينيه، ويتمّ همسه:

«وإن شاء سيعطي، وإن كان بيني وبين عطائه ألفُ بابٍ وباب».

لكنّ الإدراك... ذاك الإدراك الّذي يهبط على القلب دفعةً واحدة، كان يثقله.

همس يومًا لغسق، وصوته يتهدّج كوترٍ مشدود:

_بلغتُ من الفهم ما لم أعد أريده، كأنّ النضج ليس نورًا فقط، بل عبء رؤيةٍ لا تُحتمل.

نظرت إليه غسق طويلًا، ثمّ قالت بهدوءٍ يسكب الطّمأنينة:

_سلامُ الله على قلبك، ما خلقك ربّك لينساك.

في مكانٍ آخر من القصر، كانت شمس بعيدة عن الكلّ، لكنّها لم تكن كما عرفوها، لم تعد تلك السّاكنة في نورها، بل صارت تتحرّك بخفوتٍ مريب، تغيب طويلًا وتعود بصمتٍ أثقل من الغياب.

مرّاتٍ كثيرة، كان حيزوم يلمحها من بعيد، تمضي نحو الممرّات العميقة، حيث لا يسلك أحد، ومرّة رآها تحمل شيئًا بين ذراعيها، ملفوفًا بعنايةٍ مفرطة، كأنها تخشى عليه من الهواء نفسه.

لم ينادِها، لكنّ الشّكّ بدأ يزرع جذوره في صدره... ولم يكن وحده من لاحظ.

في ليلةٍ خافتة، حين كان القمر شحيح الضّوء، وقف إلى جواره ظلّ، ظلّ لم يكن ينبغي له أن يكون، التفت حيزوم ببطء، وعيناه تتّسعان، وقلبه يسبق صوته: _عيّار؟!

تقدّم الرّجل من العتمة، والضّوء يلامس ملامحه كمن يتذكّرها بصعوبة.

لم يكن طيفًا ولا ذكرى، كان حيًّا، بكلّ ما في الحياة من دهشة.

ابتسم، تلك الابتسامة التي تشبه النجاة بعد غرقٍ طويل، وقال:

_أظننتَ أنّ الموت يختارنا ثمّ ينتهي الأمر؟

لم يقترب حيزوم فورًا، كأن عقله يرفض أن يصدّق ما تراه عيناه، لكن عيّار لم ينتظر، اندفع نحوه، واحتضنه بقوّةٍ كادت تكسر ما تبقّى من صموده.

وهنا... انهار، لم يبكِ كفارس، بل كبشرٍ استعاد شيئًا كان قد دُفن معه.

بعد أن هدأ ارتجاف اللحظة، جلسا معًا، وغسق تراقبهما بعينين امتلأتا دهشةً ويقينًا.

قال حيزوم بصوتٍ مبحوح: _كيف... كيف عدت؟

لقد رأيتك تموت، رأيتك تُسحب من الحياة كما يُسحب الوتد الأخير من خيمةٍ عصفت بها ريح الفراق!

سكت عيّار لحظة، ثم رفع رأسه نحو السّماء، كأنّه يبحث عن جوابٍ هناك، لا هنا، وقال بهدوءٍ غريب: _هناك أشياء لا نفهمها ونحن أحياء.

ثم أضاف، ونبرته تمتلئ يقينًا:

_ما خَلقك ربّك لينساك يا صديقي... كن مطمئنًا.

نظر إليه حيزوم، وقد بدأ قلبه يخفق بطريقةٍ مختلفة.

تابع عيّار: _لا تعلم إلى أيّ درجة الله رحيمٌ بنا، كيف يُسخّر لنا الأشخاص، الأحداث، الصّدف، المفاجآت، كيف يصرف عنّا ما نحبّ لشرٍّ لا نعلمه، ويقرّب لنا ما نكره لخيرٍ لا نراه.

ثم ابتسم وقال: _ظننت موتي نهاية، لكنّه كان بداية.

اقترب أكثر، وهمس:

_الله أكبر من أوجاعنا يا حيزوم، أكبر من كلّ ما ظننّاه نهاية.

في تلك اللّحظة لم يكن ما عاد هو عيّار فقط، بل عاد وبجعبته أسرار!

لكنّ الجِنان لم تمنحهم وقتًا طويلًا للفهم، في فجرٍ متوتّر، حين كانت السّماء بين انطفاءٍ وولادة، رُصدت حركةٌ غريبة.

كانت شمس تتسلّل نحو بوّابةٍ لم تُفتح منذ زمن: بوّابة الماروم.

وكانت تحمل كتابًا، لا... لم يكن كتابًا عاديًا، كان كأنّه ينبض.

تبادل حيزوم وعيّار نظرةً واحدة، فهم كلٌّ منهما ما لم يُقَل، تبِعاها، خطوةً... خطوة، حتّى كادت تلامس البوّابة، وهنا ...

"توقّفي".

ارتجفت، استدارت ببطء، وعيناها تحملان شيئًا بين الخوف والإصرار.

تقدّم حيزوم، وصوته هذه المرّة لم يكن متردّدًا:

_إلى أين، وماذا تحملين؟

تقدّم عيّار خطوةً أخرى، وعيناه تضيقان بشكٍّ حاد:

_ولماذا تخفين ذلك عنّا؟

لم تكترث، شدّت على الكتاب أكثر، كأنّها إن أفلتته سيتفكّك كلّ شيء، ورفعت نظرها إليهما، لكن قبل أن تتكلّم أشهر عيّار سيفه نحوها:

_لا مجال للفرار، عليكِ الاعتراف حالًا.

ما إن ضاق السّرُّ بصدر شمس حتى أثقله كجبلٍ من لهب، ولم يعد الصّمتُ ملاذًا بل صار خيانةً للأمل ذاته، ظنّت بأنّه إن تحرّكت في أروقة الجِنان كظلٍّ يهرب من عينيه لن يمسك بها أحد، ولكنّها الآن تحمل في يديها ما تبقّى من مصيرٍ لم يُحسم بعد:

قلب سنفاير... ذاك الذي خُضّب بدم الطّغيان، وما يزال ينبض بنارٍ خافتة كأنّه يرفض الفناء.

وفي هذه اللّيلة انكمش الضّوء، وانحنى القمر كشيخٍ أرهقه السّهر، وقفت عند بوّابة الماروم، والكتاب في كفّها يرتجف كما لو أنّه يعرف ما سيُكتب فيه، لكنّها لم تكن وحدها، كانت هناك آذانٌ تتلصّص في الظّلال، أنفاسٌ مكتومة تراقب، وعيونٌ لم تُكشف بعد، عيونٌ تعرف أكثر ممّا ينبغي، أما حيزوم وعيار لا تزال نظراتهما مشدودةٌ نحوها كوترٍ على وشك الانقطاع.

قال حيزوم، وصوته بين الرّجاء والرّيبة:

_ما الّذي تخفينه يا شمس؟

تردّدت لحظة ثم انكسر الحاجز، وقالت بصوتٍ أثقل من البكاء:

_لم تمت.

ارتجف الهواء، وأردفت:

_قدر لم تمت، أخفيتها، خِفتُ أن أزرع فيكم أملًا إن لم يُكتب له أن يُثمر، كنتُ أحاول أن أعيدها.

اقترب عيّار، وقد خفتت سُخريته لأوّل مرّة:

_وكيف؟!

رفعت شمس قلب سنفاير، وقالت:

_سنقدّمه قربانًا.

ثمّ تشابكت الأيدي، حيزوم، عيار، شمس، ثلاثة أرواحٍ على حافّة المعجزة، دخلوا بوّابة الماروم، هناك لم يكن الفضاء مكانًا حسّيًّا، بل فراغًا من نور، كأنّه رحمُ الوجود قبل أن يُخلق، وسكونٌ يبتلع الصّوت قبل أن يولد.

فتحت شمس الكتاب، فبدت صفحاته بيضاء ناصعةً كأنّها لم تعرف الحكايات بعد، رفعت قلب سنفاير وعصرته، فانثال قاني المصائر متدفّقًا، يقذف حمرةً كجحيمٍ مستعر، يسيل على الورق كما تسيل الأقدار على صفحات الأعمار، وخطّت:

«في هذا العالم لا شيء يُمنح بالمجّان، خذ قلبًا طاغيًا وأعد لي قلبًا طاهرًا.»

ما إن انتهت حتى انبثق من الكتاب شعاعٌ أحمر قاتم، كأنّه شقٌّ في جسد الحقيقة، ثمّ تبدّد كما تُبدّد الأسرار حين تُقال.

نظر حيزوم، ونبرته تتأرجح على حافّة رجاءٍ واهٍ: _هل عادت؟

أجابت شمس، وعيناها لا تزالان معلّقتين بالعدم: _ليس بعد.

"علينا إخراجها من القبر!" قالها حيزوم كمن يقاتل الزّمن.

ضحك عيّار بذهول: _قبر؟!

كيف تعود وهي مدفونة؟!

التفتت شمس نحوهما، وقالت بهدوءٍ غريب:

_لم تكن في القبر، لقد أوهمتكم بذلك، إنّها في شرنقة حياةٍ اصطناعيّة.

طرفت عينا عيّار مرّتين، ثمّ قال بارتباكٍ ساخر: _شرنقة اصطناعيّة؟!

أذكر أنّ قدر قالت يومًا:

«إنّ الذّكاء الاصطناعيّ ليس إلّا جهلًا متقنًا يرتدي قناع المعرفة!»

وكزه حيزوم بعنف: _ليس وقتك!

دخلوا إلى حيث ترقد قدر، خلف جدارٍ من زجاجٍ شفّاف، كانت ممدّدة، كأنّها نائمة في حضن الضّوء، جسدها ساكن لكنّه لا يشبه الموت، كان أشبه بتعليقٍ بين نبضتين، بين عالمين، بين "كانت" و"ستكون".

وقفوا بالسّاعات، والوقت يمرّ ببطءٍ مؤلم، كأنّه يجرّ نفسه على جراحه، لا حركة...لا إشارة... لا حياة.

تنهد عيار فجأة، ووضع يده على بطنه: _أتعلمون؟

الجوع أيضًا مصيبة تستحقّ الاحترام... ما رأيكم أن نأكل؟

نظر إليه حيزوم نظرة قاتلة...

فقال: _ماذا؟!

سآكل وجبتين نيابةً عنها، هذه أقلّ واجبات الصّداقة!

دخل القصر، وما إن خطا عيّار داخله، حتى انفجرت الأضواء، وارتفعت الأصوات: _مفاجأة!

كانت غسق قد أعدّت احتفالًا بعودته، اليمام مصطفٌّ كحرسٍ ملكيّ، والملكة هيليكونيا تراقب بابتسامةٍ مهيبة.

ضحك عيار، واتّسعت عيناه:

_اليوم لن نتوقّف عن الطعام حتّى نُنهي المائدة!

تعالت الضّحكات... ضحكةٌ متعبة، لكنّها صادقة، ضحكةٌ خرجت من بين أنقاض الحزن، كزهرةٍ عنيدة.

جلسوا، أكلوا، تبادلوا كلماتٍ خفيفة، كأنّهم يحاولون خداع الألم.

لكن، في منتصف الضّحك انكسرت زجاجة ماء، توقّف عيار، ارتجفت شفتاه، ثمّ... بكى، بكى كما لم يفعل من قبل.

قال بصوتٍ مبحوح:

_أشتاق إليها، كان عليها أن تقاوم الموت قليلًا حتّى أعود، أم أنّها رحلت خوفًا من منافسة فارسٍ مثلي؟

ضحك، لكنّ الضّحكة خرجت ممزّقة.

في انبثاق الصّباح، حين ابتسم الضّوء في كبد السّماء الزّرقاء ابتسامةً خجولة، كان القصر على غير عادته؛ يقِظًا، متوتّرًا، كأنّ جدرانه تسمع نبض الانتظار وتردّده في صمتٍ ثقيل، لم يذق أحدهم طعم النّوم، ولم تستكن روحٌ لراحة، فقد كانوا جميعًا معلّقين بين أملٍ هشّ وخوفٍ يتربّص، وما إن لاحت خيوط النّهار الأولى، حتّى هرعوا مسرعين نحو المخبأ... حيث ترقد قدر، ساكنةً بثباتٍ عميق، كأنّها قطعةٌ من سكونٍ لا يُمسّ، لكن ما إن بلغوا العتبة... حتى تجمّدوا.

كانت هناك... الملكة هيليكونيا، تقف عند الهالة الزّجاجية، ويداها ممدودتان نحو الجسد الرّاقد، كأنّها توشك أن تنتزعه من بين الحياة والموت.

صرخت شمس، وصوتها ارتطم بالجدران كصاعقة: _إياكِ!

ابتعدي عنها!

ما الّذي تفعلينه؟!

ثم أضافت، وقد اشتعلت عيناها غضبًا: _وكيف علمتِ بالمخبأ أصلًا؟!

عندها، استدارت هيليكونيا ببطءٍ مهيب، كأنّها لا تعبأ بثقل اللّحظة ولا بنظرات الاتّهام الّتي انصبّت عليها.

جالت ببصرها في الوجوه واحدًا تلو الآخر ثم توقّفت عند قَدَر، وابتسمت ابتسامةً باردة خالية من كل أثرٍ للرحمة.

قالت، بصوتٍ هادئٍ يحمل في طيّاته اعترافًا طال انتظاره:

_لقد فعلتُ كل ما بوسعي منذ زمنٍ بعيد، لم يكن الطّريق يسيرًا، بل اقتضى منّي جهدًا مضنيًا...

نسجتُ الخدع، وأتقنتُ المكر، واحتملتُ الصّمت حين كان أشدّ فتكًا من البوح.

ثم تقدّمت خطوة، ونبرتها تزداد حدّة:

منذ ثمانية عشر عامًا... كنتُ أعلم أنّ شمس بريئة، لكنّني اخترتُ أن أصمت، تعمّدتُ نفيها إلى عالم اللّازمان كي يخلو لي العرش، كي أبسط سلطتي على أرض الجِنان دون منازع.

رفعت رأسها بشيءٍ من الاعتداد، وقالت بصرامةٍ لا تقبل النقاش:

_هذه الأرض لا يليق بها ملكٌ سواي.

توقّفت لحظة، ثم التفتت نحو قدَر مجدّدًا، وقد تحوّل صوتها إلى قسوةٍ عارية:

_وبعد كلّ تلك السّنوات، كلّ ذلك الصّبر، كلّ تلك التّضحيات، تأتي طفلةٌ بشريّة، تدّعي أنّها "المنشودة"؟!

انفرجت شفتاها عن سخريةٍ لاذعة:

_تلك الضّعيفة تحلم بأن تنتزع عرشي؟

ثم اشتدّ بريق عينيها، وقالت بحزمٍ قاطع:

_الملك، العرش، السلطة، كلّها لي وحدي.

اقتربت أكثر من الهالة، وكأنّها تتحدّى الجميع:

_أمّا هي فلا يليق بها إلا الزوال، وإن اضطررتُ سأقتلها.

صمتت لحظة، ثم ختمت ببرودٍ قاتل:

_لن أسمح لها أن تسلبني الجِنان، هي ليست الملكة.

ثم رفعت ذقنها بكبرياءٍ صارخ: _بل أنا.

ما إن أطبقت هيليكونيا كلماتها الأخيرة، حتى انخلع السّكون من أركان الجِنان، وتبدّل الهواء من سكينةٍ مترقّبة إلى توتّرٍ مشحون، كأنّ الأرض نفسها أدركت أنّ عهدًا يُطوى، وآخر يُنتزع بالقوّة.

لم تمهلهم لحظة، رفعت كفّها، فانشقّ الفضاء عن صفوفٍ من الحرس، خرجوا من العدم كما لو كانوا مخبّئين في شقوق الزّمن، وجوههم جامدة، وخطواتهم لا تعرف التردّد، لم يكونوا من اليمام، ولا من حرس القصر المعروفين، بل قوّةٌ أخرى، ظلّت مستترةً تحت سلطانها الحقيقيّ.

قالت ببرودٍ قاطع: _انتهى زمن الانتظار.

في اللّحظة ذاتها، تقدّم حيزوم، لم يتكلّم، لم يساوم، كانت ملامحه كافية لتعلن الحرب.

امتشق سيفه بحركةٍ حاسمة، وانقضّ دون تردّد، كأنّ كل ما فيه _غضبه، فقده، عجزه_ قد اجتمع في تلك الضّربة الأولى، لم يكن يقاتل خصمًا، بل يقاتل كلّ ما سُلب منه.

لكن، قبل أن يتوغّل أكثر، أمسك به عيّار من كتفه بقوّة، يشدّه إلى الخلف: _لا تندفع هكذا!

كان صوته هذه المرّة خاليًا من المزاح، حادًّا، يقظًا، عيناه تتحرّكان بسرعة، تلتقطان التّفاصيل، تقرآن الخفايا!

همس له، بنبرةٍ منخفضة: _هي ليست واثقة كما تدّعي انظر إليها جيدًا.

في الجهة الأخرى، كانت شمس قد اندفعت نحو الهالة، تقف بينها وبين الخطر كجدارٍ لا يُخترق، كفّاها على الزّجاج، وعيناها معلّقتان بوجه قَدَر.

لكن الهالة لم تعد كما كانت، ارتعش الضّوء في أطرافها، وبدأت طبقاتها تتخلخل، كأنّ شيئًا في الدّاخل يضغط عليها من عالمٍ آخر.

شهقت شمس: _لا... ليس الآن!

ازداد الاضطراب، لم تتحرّك قَدَر لكنّ وجودها تحرّك، اهتزّ الهواء، وتبدّل الإحساس بالمكان، وكأنّ شيئًا غير مرئيّ بدأ يتمدّد خارج حدود الجسد، لم تكن عودة ولا موتًا، كانت حالةً ثالثة غير مفهومة.

تراجع بعض الحرس خطوة، وقد تسلّل التردّد إلى صفوفهم، في تلك اللّحظة، ضيّقت هيليكونيا عينيها، لم تبدُ مندهشةً بقدر ما بدت منزعجة.

وهنا التقط عيّار الخيط، وقال بصوتٍ منخفض، حاسم: _إنّها خائفة!

التفت إليه حيزوم، وكأنّه لم يسمع الكلمة جيّدًا: _ماذا؟

_لو كانت بالقوّة التي تدّعيها لما استعجلت، هي تريد حسم الأمر الآن قبل أن يحدث شيء لا تستطيع السّيطرة عليه.

في الخلف كان شيءٌ آخر يتحرّك، لم يره أحد، لم يسمعه أحد، لكن أثره كان واضحًا.

اضطربت بوّابة الماروم، واهتزّ خطّها النوريّ، كأنّها تفقد توازنها، تقطّعت الإضاءة للحظات، وتبدّل الإيقاع الزمني في المكان، وكأنّ الجِنان نفسها بدأت تخرج عن انتظامها.

همست شمس، وقد أدركت الخطر: _القربان لم يكتمل...

وفي لحظةٍ خاطفة، انطلقت هيليكونيا نحو الهالة: _لن أتركها تعود!

لكن هذه المرّة، لم يكن الطّريق خاليًا، تقدّم حيزوم أمامها، السّيف في يده، وصوته أشدّ ثباتًا: _خطوة واحدة وستندمين.

توقّفت، تبادلا النّظرات، لم تعد المواجهة مؤجّلة، لكن قبل أن يتحرّك أيٌّ منهما دوّى في المكان اهتزازٌ أعنف من السّابق، ارتجفت الأرض، وانشقّ الضوء في سقف الجِنان، وظهر صدعٌ خفيّ، كأنّ الواقع نفسه بدأ يتصدّع، صمت الجميع، ثمّ قال عيار ببطء، وقد اتّضح له ما لم يُدركه قبل: _هذا ليس بسببها فقط.

نظر نحو الفراغ، وكأنّه يحاول أن يرى ما وراءه:

_هناك من يتلاعب بما يحدث من الداخل.

تصلّبت ملامح شمس، وتحوّل الصراع في لحظة من معركةٍ على جسدٍ راقد إلى معركةٍ على عالمٍ كاملٍ يوشك أن ينهار.

الآن، لم يعد في الحكاية متسعٌ للتّأجيل، ما كُشف قد كشف، والميزان بدأ يميل نحو حافّةٍ لا عودة منها...

تراجع بعض الحرس دون وعي، وارتبكت صفوفهم، كأنّ يقينهم نفسه قد سُحب من تحت أقدامهم، أمّا هيليكونيا، فقد اشتدّ بريق عينيها، لا خوفًا، بل غضبًا من أمرٍ بدأ يفلت من قبضتها.

قالت بحدّةٍ متزايدة:

_لا تنخدعوا، هذا اضطرابٌ عابر، وأنا وحدي القادرة على ضبطه.

لكنّ صوتها لم يكن يقينًا كاملًا.

في المقابل، تقدّم حيزوم خطوة أخرى، هذه المرّة بثباتٍ أشدّ، وقد هدأ اندفاعه وتحول إلى تركيزٍ حادّ: لن تمسّيها.

رفع سيفه، لا مهدّدًا فقط، بل حاجزًا فاصلاً بين مصيرين، وقبل أن تردّ، اهتزّت الهالة فجأة.

لم يكن اهتزازًا عاديًّا، بل رجفةً عميقة، كأنّ شيئًا في الدّاخل يحاول العبور، انطفأ الضّوء للحظة ثمّ عاد، لكن بشكلٍ مختلف.

أغمضت شمس عينيها، ثم همست بصوتٍ خافت: _إنّها... تسمعنا.

تردّد في المكان أثرٌ خفيّ، لا يُسمع بالأذن، بل يُحَسّ كأنّ حضورًا لطيفًا مرّ بينهم، يلامس أرواحهم، ارتجف نفس حيزوم، تشدّدت أصابعه على مقبض السّيف، لا خوفًا، بل لأنّه شعر بها: _قدَر...؟

لم تأتِ إجابة، لكنّ الإحساس لم يخطئ، في تلك اللّحظة، تراجع عيّار خطوة، يراقب كلّ شيء بعينٍ أدقّ، ثمّ قال فجأة، بنبرةٍ حاسمة:

_لا أحد يتحرّك.

نظر إليه الجميع والذّهول يتلاعب بأعينهم...

_هناك شيء يحدث داخلها، وإذا تدخّلنا الآن، قد نفسده.

اشتدّ توتّر هيليكونيا، ورفعت يدها مجدّدًا، هذه المرّة بنفاد صبرٍ واضح:

_انتهى هذا العبث!

لكن، قبل أن تأمر، انشقّ الضوء من داخل الهالة، خطٌّ رفيع من النّور الأحمر القاتم اندفع من صدر قدر، ثم تفرّع، كأنّه يبحث عن شيءٍ مفقود، ارتدّت شمس خطوة، وقد اتّسعت عيناها: _القلب...

نظر عيّار بسرعة: _ماذا؟

_قلب سنفاير... القربان بدأ يعمل، لكنّه لم يكتمل.

ازداد النّور اضطرابًا، وتحوّل إلى نبضٍ متقطّع، كأنّه يحاول أن يستقرّ لكنّه يفشل، وفجأة، انخفض الضّوء وخمد، تجمّد كل شيء.

قال حيزوم، وصوته انخفض إلى حدٍّ يكاد يُسمع: _لا...

لكنّ شمس لم تتحرّك، كانت تنظر بثباتٍ غريب، كأنّها تدرك ما لم يصل إليه الآخرون بعد.

ثم قالت بهدوءٍ ثقيل: _لم تفشل...

التفت إليها عيّار: _ماذا تعنين؟

_لم تفشل... لكنها لم تُكمل وحدها.

ثم أضافت، ببطءٍ مدروس:

_القربان فتح الطّريق، لكنّ العبور ليس بيدنا.

ارتبك حيزوم: _إذًا بيد من؟

رفعت شمس نظرها نحو الهالة: _بيدها.

وفي تلك اللّحظة، ارتجف الهواء مرّة أخرى، لكن هذه المرّة لم يكن الاضطراب خارجيًّا، كان صادرًا من الدّاخل، من حيث ترقد قَدَر، حيث بدأ الصّراع الحقيقي.

لم تفتح قدر عينيها، ولم يتحرّك جسدها، بقيت غارقةً في سباتٍ عميق، لكنّ قلبها عاد يقرع أبواب الحياة من جديد.

استدارت شمس فورًا، كأنّها انتزعت نفسها من اللحظة: _لن يمسّها أحد.

وقفت أمام الهالة، ثابتةً كحاجزٍ لا يُخترق، وقد تحوّل كلّ ما فيها إلى يقظةٍ خالصة.

في الجهة الأخرى، لم تنتظر هيليكونيا، رفعت ذراعها، فانقضّ جنودها كالسّيل، يملؤون الفراغ بحضورٍ قاتم، وتندلع المواجهة دون إنذار.

اندفع حيزوم أوّلًا، سيفه يشقّ المسافة بينه وبين العدوّ، حركته دقيقة، ضربةٌ تليها أخرى، لا مجال فيها للخطأ، لم يعد يقاتل باندفاعٍ أعمى، بل بوعيٍ مشدود، كأنّ كل خطوةٍ منه محسوبة على حافّة النّهاية.

أمّا عيّار، فقد انسلّ بين الصّفوف كطيفٍ قاتل، لا يُرى إلا حين يسقط خصمه، يضرب حيث لا يُتوقّع، ويختفي قبل أن يُلاحق، لم يعد يبتسم، ولم يعد يمزح، **كان وجهًا آخر للحرب.**

ووسط ذلك، ارتفعت غسق، لم تكن تقاتل كالبشر، ولا كالمحاربين، بل كغيمةٍ تمّ استفزازها حتّى البرق.

أصابتها ضربةٌ عابرة في كتفها، لكنّ ما سال منها لم يكن دمًا، كان انهمارًا خاطفًا، كأنّ جرحها انفتح على سماءٍ ممطرة... ثمّ تبدّل كلّ شيء.

لمعت أطرافها، وارتجف الهواء حولها، وخرج من موضع جرحها خيطٌ من برقٍ خاطف، تمدّد، ثم انفجر في محيطها، يضرب كلّ من يقترب، لا كضربةٍ عابرة، بل كغضبٍ سماويّ لا يُمسّ.

تحرّكت بين الرفاق، وكل خطوةٍ منها تخلّف وميضًا حادًّا، كأنّها تمشي وهي محاطةٌ بعاصفةٍ لا تهدأ.

صرخ أحد الجنود قبل أن يسقط: _ابتعدوا عنها!

لكنّ الأوان كان قد فات، ورغم ذلك لم يكن ميزان القتال متكافئًا.

كانت أعدادهم تتزايد، وضغطهم يشتدّ، والحلقة تضيق شيئًا فشيئًا.

تراجع حيزوم خطوة، يتنفّس بثقل، وقد أصابته ضربةٌ جانبية.

وقف عيّار إلى جواره، يراقب بحذر، وعيناه تبحثان عن مخرج.

قال بصوتٍ منخفض: _هذا لن يصمد طويلًا...

وفي تلك اللّحظة، سكن الهواء، توقّف كلّ شيء كأنّ الزمن نفسه تلقّى أمرًا بالتوقّف، ارتبك الجنود، تعثّرت خطواتهم، وانخفضت أسلحتهم دون أن يفهموا لماذا.

ثمّ ظهر، لم يأتِ من باب، ولم يهبط من سماء، بل كان كأنّه كان هناك دائمًا، ثمّ اختار أن يُرى... عمّار.

وقف بهدوءٍ مطلق، وهيبةٍ لا تحتاج إلى إعلان، نظرته وحدها كانت كافية لتبديل المعادلة، ارتجفت وجوه الجنود، ثمّ انحنوا واحدًا تلو الآخر، انحنوا دون أمرٍ يُسمع، ودون تردّد.

تجمّدت هيليكونيا في مكانها، وصوتها خرج مكسورًا: _ما... هذا؟!

تقدّم خطوة، صوته لم يكن مرتفعًا، لكنّه كان قاطعًا: _انتهى الأمر.

نظرت إليه بعينين مضطربتين: _أنا الملكة!

أنا من حكم هذه الأرض!

أجابها بثباتٍ لا يقبل الجدل:

_حكمتِ، لأنّني سمحتُ لكِ أن تظنّي ذلك.

ساد الصمت، وتابع:

_كل ولاءٍ رأيتِه... كان مرآةً خدعتكِ، وكل طاعةٍ نلتِها... كانت اختبارًا لكِ.

ثم رفع بصره إليها: _وهذه نهايته.

تراجعت خطوة، وقد انكسر يقينها أخيرًا: _لا... لا يمكن...

لكنّ الحقيقة لم تنتظر قبولها، رفع عمّار يده، لم يكن في حركته عنف، لكنّ أثرها كان قاطعًا، تجمّد جسدها، ثم بدأ يتلاشى، لا دفعةً واحدة، بل كما يتطاير الرّيش حين تُفقد الروح الّتي كانت تجمعه.

تبعثرت أطرافها، وتناثرت كخفّةٍ بيضاء، تتلاشى في الهواء، قطعةً بعد قطعة، حتّى لم يبقَ منها شيء سوى فراغٍ كان يشغله الغرور.

عاد الصّوت، عاد الهواء، وعاد العالم... لكن ليس كما كان.

وقف الرّفاق، أنفاسهم متقطّعة، وعيونهم معلّقة بذلك الرّجل الذي أنهى ما لم يستطيعوا حسمه.

التفت عمّار نحوهم ثم قال بهدوءٍ عميق: _الطّريق لم ينتهِ بعد.

وفي الخلف... خلف الزّجاج... كانت قَدَر ما تزال بين عالمين.

عندما انطفأت آخر صرخةٍ في ساحة القتال، وسكنت الرّماح بعد عويلها، بقي الهواء مشدودًا كوترٍ لم يُحسم أمرُه بعد؛ فلا المنتصر صدّق نجاته، ولا المنهزم استوعب سقوطه.

وقفت غَسَق بين الرّكام، أنفاسها تتقطّع، وعيناها تبحثان عمّا يتجاوز المشهد... حتى استقرّ بصرها عليه.

قالت، وصوتها يختلط بالعتب والنّجاة:

_لقد تأخّرت يا عمار، ظننتُ أنّنا سنُهزم، وأنّ السّيف سيبلغ قَدَر قبل أن تبلغنا.

لم يُجب فورًا، كان واقفًا بثباتٍ لا يشبه البشر، كأنّ الأرض نفسها تتّكئ عليه، وعيناه تمسحان المدى، لا ليطمئنّ، بل ليتأكّد أنّ كل شيء جرى كما أراد.

بدأت الوجوه تتلاقى، متردّدة، مثقلة بالأسئلة.

حيزوم لا يزال قابضًا على سيفه، كأنّه يخشى أن يكون ما حدث وهمًا آخر، وعيّار ينظر بين الحاضرين بعينٍ لا تعرف المزاح هذه المرّة، وغسق تتقدّم خطوة، كأنّها تحمل عبء الحقيقة وحدها.

قالت بهدوءٍ حاسم: _لم يكن غائبًا، كان حاضرًا منذ البداية.

توجّهت الأنظار إليها وهي تكمل حرث الوهم لتنثر بذور الحقيقة:

_هو من فتح الأبواب، وهو من أغلقها، هو من نسج الخيوط وتركنا نمشي بينها، لم يتدخّل لأنّ عليه أن يرانا نصل بأنفسنا.

سكتت لحظة، ثمّ أردفت:

_كان يعلم أنّ قَدَر ستبلغ الحقيقة، ولم يمنعها، لأنّه أراد لها أن تُدرك، لا أن تُلقَّن.

لكنّ كلّ ذلك تلاشى حين التقت عينان بعد فراقٍ طال حتّى كاد يُمحى من الذاكرة.

شمس... وقفت هناك، لا كملكةٍ ولا كقوّةٍ، بل كامرأةٍ أنهكها الانتظار.

رأت عمّار... لا كما رآه الآخرون، بل كما عرفته أوّل مرة.

خطت نحوه خطوة ثمّ أخرى، كأنّ المسافة بينهما ليست أرضًا، بل عمرًا كاملًا، ولمّا بلغا بعضهما، لم تكن هناك كلمات، فقط انكسارٌ دفينٌ وجد أخيرًا من يحتويه.

احتضنها احتضانًا لم يكن لقاءً، بل استرجاع حياةٍ سُلبت، انفجرت دموعها، لا كدمعٍ عابر، بل كفيضانٍ احتبس سنينًا، وغاصت في صدره كمن يعود إلى وطنٍ ظنّه اندثر.

قالت، بصوتٍ مكسورٍ ينهار بين أنفاسها: _**ابنتنا... كانت ضحية حبّنا.**

شدّها إليه أكثر، كأنّما يحاول إعادة ترتيب الزّمن بذراعيه، وعيناه اللّتان ما عرفتا اللّين يومًا، خنقتهما العبرات.

لم يكن عمّار في تلك اللّحظة صانع العوالم...

بل رجلًا خسر ما لا يُعوّض، تراجع قليلًا، ووضع يده على كتفها، كمن يردّها من حافّة الانهيار، ثم التفت إلى الباقين، صوته هذه المرّة لم يكن أمرًا، بل نبأً: _ما جرى لم يكن عبثًا، ولا ما سيأتي سيكون يسيرًا.

صمت، كأنّه يزن الكلمات قبل أن يمنحها لهم، ثمّ قال:

_لا تأتي الفتوحات الربّانية إلّا بكثرة الخلوات الإيمانيّة.

مرّت الجملة بينهم كرجفةٍ خفيّة، لم يفهموها كلّها، لكنّهم شعروا بثقلها.

في ذلك الوقت، كانت قدر ترقد في سكونها العميق، وقلبها _الّذي عاد ينبض_ لا يزال رهين إيقاعٍ خافت، كأنّه يتعلّم الحياة من جديد.

شمس اقتربت منها، وضعت كفّها على صدرها، تشعر بذلك النّبض الضّعيف، وكأنّها تمسك بخيطٍ رفيع يفصل بين الفقد والعودة.

همست: _لن أتركِكِ هذه المرّة، لن أفعل.

كان الهدوء مؤقّتًا، هشًّا، وحيزوم، واقفًا على بُعد، ينظر إلى قَدَر، ولا يدري أين يبدأ الأمل وأين ينتهي الخوف.

عند الأطلال، حيث يبهت الصّخب، وتنكفئ الحروب إلى ظلالها، جلس حيزوم وعيّار على صخرة تشهد لهما بما كانا، لا بما صارا.

كان المساء ينسدل على أرض الجِنان ببطءٍ متعب، والرّيح تمرّ بين الأعمدة المتهدّمة كأنّها تعيد قراءة ما كتب ثم محي.

صمتا طويلًا... ذلك الصّمت الّذي لا يحتاج إلى تفسير، لأنّه ممتلئ بما يكفي ليرهق الكلام.

ثم قال عيّار، وهو يقلّب الحصى بين أصابعه، بنبرةٍ لم يألفها فيه حيزوم:

_أتعلم أنّني بلغتُ من الإدراك ما يُثقِل القلب؟
فالنضجُ أحيانًا عبءُ رؤيةٍ لا تُحتمل.

لم يلتفت إليه حيزوم فورًا، اكتفى بأن يزفر ببطء، كأنّه يوافقه دون أن يمنحه هذا الانتصار.

أردف عيّار، بابتسامةٍ باهتة: _كنّا أغبياء... أليس كذلك؟

رفع حيزوم حاجبه: _تكلّم عن نفسك.

ضحك عيّار ضحكةً خفيفة، ثمّ قال: _لا... بل عنّا معًا.

كنّا نظنّ أنّ أعظم مشاكلنا هي أنّ طعام القصر بارد، أو أنّك لا تفهم النّكات مهما شرحتها لك.

قال حيزوم ببرود: _لأنّها ليست مضحكة.

_بل لأنّك بلا ذوق، مجرّد من الحسّ الفكاهيّ!

ثم أردف وهو يشير إليه بإصبعٍ اتّهامي:

_أتذكر يوم سرقت لك سيفك وخبّأته؟

رمقه حيزوم بنظرةٍ حادّة: _كيف أنسى وقد كدت أُعدم بسببك؟

قهقه عيّار: _وكان وجهك يومها... أقسم أنّه كان يستحقّ المخاطرة!

هزّ حيزوم رأسه، لكن شفتيه انفرجتا عن بسمةٍ غافلة.

خيّم الصّمت عليهما لبرهة، ثمّ قال حيزوم، بصوتٍ أخفض:

_كنّا بخير... رغم كلّ شيء.

تمتم عيّار وعيناه شاخصتان في الفراغ: _كنّا فارغين... لا بخير.

ثم تابع: _الراحة الرّاكدة مقبرة الرّوح، والسّكينة الّتي لا تصهل فيها المخاطر هي محض وهم.

تنهّد، ثم ألقى الحصى بعيدًا:

_لم نكن نعرف أنّ الحياة لا تُقاس بمدى هدوئها، بل بقدرتنا على الصّمود حين تثور.

التفت إليه حيزوم هذه المرّة: _وتراها تستحق؟

كلّ ما خسرناه... وكلّ ما سنخسره؟

ابتسم عيّار، لكنّ ابتسامته هذه المرّة لم تكن ساخرة:

_لا أعلم... لكنني أوقن أنّنا عبرنا برزخًا، ولم تعد ملامحُ أرواحنا كما كانت.

ثم مال نحوه قليلًا، وقال بنبرةٍ خفيفة تعود فيها روحه القديمة:

_على الأقلّ أصبحت أكثر وسامةً بعد الموت.

نظر إليه حيزوم بدهشة: _ماذا؟

_أجل، أظنّ أنّ الموت حسّن ملامحي، أصبحت أكثر غموضًا، وهذا يجذب الفتيات.

أجابه حيزوم ببرودٍ قاتل:

_تنسى دائمًا أنّ هذه الأرض عاقر، لا تطؤها خطوات النّساء، فلا فتيات هنا ليجذبهنّ موتك.

صمت عيّار لحظة... ثمّ قال:

_حسنًا، هذا مجرّد قانون كونيّ صغير يمكن تجاهله.

ضحك حيزوم هذه المرّة بوضوح، ضحكةً خرجت رغمًا عنه، كأنّها نجت من تحت ركام الأيّام.

نظر عيّار إليه، وقال بهدوء:

_اشتقتُ لهذا... لأن نضحك دون أن يكون خلف الضّحكة جرح.

ثم سكت... وهمس، كأنّه يخشى أن يفسد اللّحظة: _واشتقتُ لها...

لم يحتج لذكر الاسم، حيزوم خفَتت ابتسامته، وعاد نظره إلى الأفق البعيد، وقال بعد صمت: _هي هنا بطريقةٍ ما.

أجابه عيّار: _أعلم، لكنّ هذا لا يكفي.

هبّت نسمةٌ باردة، حرّكت الغبار حولهما، كأنّ الأطلال نفسها تُصغي.

قال عيّار، وهو ينهض:

_لنعد، لا أحبّ الجلوس طويلًا في أماكن تذكّرني بأنني كنت سعيدًا.

وقف حيزوم إلى جانبه، ونظر مرّة أخيرة إلى ما تبقّى من الماضي، ثمّ قال:

_سنصنع شيئًا جديدًا.

ابتسم عيّار: _رجاءً هذه المرّة بدون مآسٍ إضافية.

ردّ حيزوم: _لا أعدك.

تنهّد عيّار: _كنتُ أعلم منذ البداية أنّك سبب كلّ مشاكل حياتي.

ثم سار الاثنان بين وجعٍ لم يلتئم، وضوءٍ خافتٍ يُشبه الأمل.

في الجناح الهادئ، حيثُ ينساب الضّوء خافتًا كأنّه يخشى أن يوقظ الألم، والرّوح تحوم، كأنّها لم تحسم بعد إلى أين تنتمي.

جلست شمس بقربها، لا تفارقها، وعلى مقربةٍ منها وقف عمّار صامتًا أوّل الأمر، كأنّ حضوره نفسه يحتاج إلى وقتٍ ليُصدَّق.

طال الصّمت بينهما، ثمّ قالت شمس، بصوتٍ هادئٍ يختبئ فيه عمرٌ من الحنين: _أتعلم؟

أحبُّ الألفة الّتي لا تحتاج إلى تفسير، وتلك الأشياء الّتي تعود إليّ كما عهدتُها، لا تتبدّل، يكفيني كتابٌ أعرف صفحاته، فأعود إليه بقلبٍ مطمئنّ، وأماكن لا أستبدلها، ووجوه لا أبدّلها.

لا لأنّ الجديد لا يروق لي، بل لأنّ المألوف يعرفني... مثلك تمامًا.

خفضت بصرها نحو قدر، ومدّت يدها تتحسّس كفّها برفقٍ بالغ، كأنّها تخشى أن تؤلمها حتى في غيابها.

_أحبّ التكرار إذا كان وُدًّا، وأحبّ الاعتياد حين يكون أمانًا.

سكتت لحظة، ثم أردفت بصوتٍ مكسور: _لكنّنا حُرمنا من ذلك.

اقترب عمّار خطوة، وجلس على الطّرف الآخر، يقابلها، وعيناه لا تفارقان وجه ابنتهما.

قال بهدوءٍ مثقل: _حُرمنا من أبسط ما يُمنح لغيرنا بلا سؤال...

لم نرها تكبر، لم نعدّ خطواتها الأولى، لم نكن هناك حين تعثّرت ولا حين نهضت.

تنفّس بعمق، كأنّ الكلمات تُثقل صدره:

_كبرت بعيدًا عنّا، تعلّمت الحياة دون أن نستند إليها، أو تستند إلينا.

رفعت شمس رأسها نحوه، وعيناها تلمعان بدمعٍ حارق:

_كانت زهرةً، وكان يجب أن تنمو بيننا، أن نراها تميل نحو الضّوء، كما تميل زهور التّوليب نحو الشّمس، تستمدّ منها الصّبر، وتتعلّم المثابرة من دفئها.

ارتجف صوتها: _لكنّها كانت تبحث عن نورها وحدها.

_رغم أنّني كنت بقربها، يؤوينا سقفٌ واحد، إلّا أنّني كنت بعيدًا كلّ البُعد عنها، لم أسقِها من الحبّ إلّا اسمه، خدعتُها طوال تلك السّنوات بأنّني جدّها، رأيتها تكبُر وحدها، رأيت اليُتم في عينيها، رأيت حاجتها للأب رغم أنّني حيّ.

في تلك اللّحظة، سرى في المدى أثر خفيّ، كأنّ الهواء نفسه قد تبدّلت أنفاسه.

دمعة واحدة انسابت من مآقي قدر، واهنة، صامتة، لم تلمحها شمس، لكنّ عمّار رآها، فتجمّد في مكانه لوهلة، ثمّ هبّ مسرعًا، كأنّ قلبه سبق خطواته إليها.

انحنى فوقها، ومدّ يده يمسح دمعتها برفقٍ يكاد لا يُلمس، وقال بصوتٍ خافت، لكنّه ثابت: _أعلم... أعلم أنّكِ تسمعيننا.

اقترب أكثر، كأنّه يخاطب روحًا لا جسدًا:

_أشعر بكِ، أشعر بروحكِ تجول في هذا المكان، كأنّكِ هنا أقرب ممّا نظن.

أغمض عينيه لحظة، ثم أردف:

_أشعر بأناملكِ تربت على كتفي، وأكاد أجزم أنّ صدى صوتكِ ما زال يتردّد في أروقة روحي.

فتح عينيه، وفيهما يقينٌ لا يتزعزع:

_ستعودين، وأنا أثق بكِ.

وضع كفّه على جبينها، برفقٍ أبويّ عميق:

_كلّي يقين أنّكِ لم ولن تستسلمي قط.

خلفه، كانت شمس تراقب المشهد، اقتربت ببطء، وجلست إلى جواره، وأمسكت يد قَدَر بين يديها، كأنّها تحاول أن تعيد إليها الحياة عبر دفئها.

وفي ذلك السّكون لم يكن أحدهم يتكلّم، وكانت روح قدر تلوذ بهذا السّكون، تستقبل لوعتهم، وتقتسم معهم مرارة الوجع دون كلام.

في تلك اللّيلة، حين اكتمل الهلال على هيئةٍ شاحبةٍ كعرجونٍ قديم، اهتزّ الهواء فجأة، لا بعاصفة، بل بنداء، نداءٍ لا يسمع، بل يُستشعر.

كأنّ جاذبيّة ما تشدّهم نحو مركز الحقيقة، حيث اجتمع كلّ الرفاق عند بوّابة الماروم، وكأنّها أطلقت نداءً جماعيًّا لهم.

ثمَّ فتحت البوابة، ارتجفت صفحات الكتاب الّذي حمل من عالم الماروم، ذلك الّذي احترق ولم يبقَ منه إلّا الأثر، كجرحٍ لم يندمل، وفجأة، انبثق من العدم ضوءٌ خافت، لا يشبه ضوء الشّمس، ولا نور القمر، بل أشبه بذاكرةٍ تحاول أن تتجسّد.

تقدّم الضّوء ببطء حتى تشكّل كلمات، كلمات لم تُكتب بالحبر، بل بما هو أعمق، بما سُحِب من قلب الحكاية نفسها... حينها فهم عمار.

اقترب، وعيناه تتّسعان، لا دهشةً، بل إدراكًا، وقال بصوتٍ خفيض:

_لم تَكتب النّهاية، لقد أعادت تعريف البداية.

التفتت إليه شمس، ونبضاتها تتعلّق بشفاهه ترقّبًا لفكّ طلسم السّرّ:

_ماذا كتبت؟

أغمض عينيه لحظة، كأنّه يقرأ حروفًا لا تظهر إلّا تحت بصيرة قلب مؤمن، ثم قال:

_كتبت، أنّ الجِنان تستردّ ميزانها الأوّل، فكلّ اعوجاجٍ في قدر هذا العالم لا بدّ أن يستقيم، وكلّ حقٍّ انتزعه الطّغيان لا بدّ أن يعود إلى نصابه، وما سُلب في ليل الخديعة يُستردّ في فجر العدالة.

ارتجف صوته قليلًا:

_كتبت عودة الرّاحلين، لا كخرقٍ لقوانين الموت، بل كإعادة للنّظام الأزليّ، الّذي دنّسه الخلل.

هنا تقدّم عيّار خطوة، وكأنّ الكلمات اصطدمت بروحه: _لهذا... عدت؟

نظر إليه عمّار، وأومأ ببطء: _لم تكن صدفة، بل استدعاء.

لكنّ الضوء لم يخفت، بل ازداد كثافة، كأنّ ما كُتب لم ينتهِ بعد.

أكمل عمّار، وصوته صار أثقل:

_كتبت أنّ هذا العالم _مهما بلغ من الجمال_ محض خيالٍ عابر، وأنّ الجِنان لا يمكن أن تكون دائمة، لأنّ الدّيمومة ليست من شأن هذا الوجود.

شهقت شمس، كأنّها فهمت ما لم تُرد فهمه.

أردف: _كتبت أنّ الحياة هنا فانية، وأنّ الجِنان الحقّ ليست هنا.

خفض صوته، كأنّه يلامس قداسة المعنى:

_بل عند الله... حيث لا حرب، لا فقد، لا خيانة، ولا قلبٌ يُكسَر ليُثبت أنّه كان حيًّا.

تقدّم الضّوء أكثر حتّى صار قريبًا من قَدَر، ثمّ تشكّل السّطر الأخير، ذلك الّذي نجا من الاحتراق، ذلك الّذي بقي شاهدًا على كلّ شيء.

همس عمّار، كأنّه يقرأ قدرًا لا نصًّا: _**لبّيك... إنّ العيش عيش الآخرة.**

في تلك اللّحظة لم يحدث انفجار، ولا معجزةٌ صاخبة، بل حدث ما هو أعمق... ارتجف صدر قَدَر.

نبضة ليست ككلّ النبضات، نبضةٌ كأنّها جاءت من خارج الزّمن، من حيثُ كُتبت الحكاية، لا حيثُ جُسّدت واقعًا.

ارتفعت أنفاسها قليلًا كأنّ روحها تذكّرت الطريق، قال عمّار وعيناه لا تفارقانها:

_إنها لا تستردّ أنفاسها نزولًا عند رغبتنا، بل لأنّها كتبت أن تعود.

وأضاف، بصوتٍ يليق بحقيقةٍ تُكشف لأول مرة:

_هي لم تعد مجرّد سطرٍ عابرٍ في الحكاية، بل غدت هي القانون الّذي يحكمها.

وبين السّطر والمعنى، بين الدّم والحرف، بين النّهاية والبداية، كانت قَدَر تستيقظ.

لم تستيقظ حين عاد قلبها للنّبض، ولا حين سالت دمعتها، ولا حتّى حين ناداها صوت أمّها، لأنّها كانت داخل ما تبقّى من الكتاب، لا أرض تحتها، ولا سماء فوقها، بل فضاءٌ من حروفٍ مبعثرة، تتشكّل وتذوب كأنّها تبحث عمّن يقرؤها.

مدّت يدها فمرّت أصابعها عبر كلمةٍ، كانت الكلمة: "عودة".

همست: _"أنا كتبتكِ، أليس كذلك؟"

لكنّ الكلمة لم تُجب.

كانت تسمع دائمًا صوت ضحكة عيّار، صمت حيزوم، قلق غسق، دفء شمس، وصوت عمّار وهو يقول: _ستعودين وأنا أثق بكِ.

ولأوّل مرة، انساب صوتها خافتًا كأنفاس الفجر:

_إن عدت سأكسر ما كتبت، أم سأُتمّه؟

عودتها، ليست هروبًا من الموت، بل تضحية ثانية.

في العالم الحقيقيّ، ارتجف جسد قَدَر فجأة، شهقت شمس:

_عمّار...!

لكنّه لم يُجب، كان يحدّق فقط، تسامى جسد قدر رويدًا عن مضجعها، كأنّما تجذبها قوّة علويّة غيبيّة من أعماقها، وحين انفتحت حدقتاها، بدت نظرتها مغايرةً تمامًا، نظرةً يغشاها عمق سحيق وثقل أزليّ، كأنّما توجس روحها من هذا الرّجوع.

وفجأة اندفع عيّار: _أخيرًاااااااااااااا!!!

ارتمى بجانبها، يكاد يُسقطها من مكانها:

_كنتُ على وشك أن آكل وجبتين يوميًّا حدادًا عليكِ! تخيّلي حجم التّضحية!

نظرت إليه قَدَر ابتسمت وقالت: _وأكلت؟

أجاب فورًا: _طبعًا، لا يجوز أن نهدر النِّعم.

اقترب حيزوم ببطء، لم يتكلّم، فقط وقف أمامها كأنّه يتأكّد أنّها ليست حلمًا، قالت له: _تأخّرت.

ارتجف صوته: _كنتُ هنا دائمًا.

غسق، الّتي ظلت صامتة، قالت: _هل... أنتِ أنتِ؟

نظرت إليها قَدَر طويلًا، ثمّ قالت: _أنا أكثر ممّا كنت.

نظرت للجميع وقالت بهدوءٍ:

_هناك شيء لم أخبركم به، النّهاية الّتي كتبتها لم تكن نهاية، بل بداية لحربٍ لم تبدأ بعد.

تنفّس عيّار بعمق: _ممتاز، عدنا رسميًّا للمشاكل.

ثمّ أردف: _لكن قبل أيّ حرب هل يمكننا تناول الطعام؟

لأنّني بصراحة أقاتل على معدة فارغة منذ فصلين.

ضحكت قَدَر بوهنٍ:

_حسنًا لنأكل، لكنّك لن تقترب من حصّتي هذه المرّة.

اقتربت شمس خطوة من قدر، حدّقت بها كأنّها تخشى أن تكون هذه اللحظة خديعةً أخرى من القدر، ثمّ انكسرت المسافة دفعةً واحدة، ارتمت عليها، احتضنتها احتضانًا لا يشبه اللّقاء، بل يشبه استرجاع العمر المسلوب، وصوتها يخرج مختنقًا: _ابنتي...

لم تُجب قَدَر فورًا، فقط أغمضت عينيها بين ذراعيها، كأنّها وجدت أخيرًا ملجأها الّذي لم تعرفه من قبل، دام العناق بينهما طويلًا قبل أن يدركوا مرور الوقت، ثم ابتعدت شمس وتقدّم عمّار ببطء، لا لأنّه عاجز، بل لأنّ اللّحظة أكبر من أن تُعاش بسرعة.

وقف أمامهما، وعيناه لا تفارقان ملامحها، ثم مدّ يده وتردّد، كأنّه يخشى أن يلمسها فتختفي، لكنّه لم يتراجع، وضع كفّه على رأسها، بحنانٍ أثقل من كلّ الكلمات، وقال بصوتٍ خافتٍ متّزن: _عدتِ أخيرًا.

رفعت قدر رأسها، نظرت إليه طويلًا، ثمّ نهضت، وخطت نحوه خطوةً واحدة ثم احتضنته احتضانًا صامتًا، لكنّه كان كافيًا ليقول ما لم يُقَل طوال السّنين، كان كافيًا ليدفن شوق تلك السّنوات التي خاضتها دون أبٍ، لم يكن احتضانًا بقدر ما كان اعتذارًا من كليهما على الماضي، هو يعتذر عن تقصيره وكذبه، وهي تعتذر عن جحودها وتقصيرها تجاهه.

قال بينما لا يزال يطوّق جسدها بين ذراعيه:

_بعد الآن، سأهب حياتي فداءً لسعادتكِ، لن تكوني يتيمة وأنا حيّ، لن تذرفي دمعة، بل ستعيشين حقّك كابنة لديها أبوان، سأعوّضكِ عن كلّ تلك السّنوات الّتي حرمتك منها، سأكون لكِ أبًا، سندًا، ملجأً، عكّازًا، مستمعًا، منصتًا، محبًّا، جبلًا، داعمًا، سأكون كلّ الأشياء التي تمنيتِ وجودها، لن تعيشي اليتم بعد الآن، لتكن روح أبيكِ فداءً لعينيكِ العسليّتين يا قدري.

وأخيرًا، بعد أن انتهى نظر إليها فوجدها غارقةً بدموعها، حتّى أنّ كلماته أثّرت بالجميع، فوجدهم أيضًا يذرفون الدّموع ويشهقون!

_إيّاك نسيان وعدك يا أبي، سأحرص على تذكيرك به دائمًا.

اقتربت غَسَق، وعيناها تلمعان بدمعٍ بلّوريّ، لم تقل شيئًا، وضعت يدها على كتف قَدَر كأنّها تقول: _كنتِ بيننا كلّ لحظة.

أمّا عيّار، وقد شعر أنّه بحاجة أن يرحّب بها مرّة أخرى إذ أنّ الأولى ليست بكافية، ظلّ واقفا بعيدًا، يحدّق بالمشهد، ثمّ قال بنبرةٍ حاول أن يجعلها عاديّة ليخفّف الحزن:

_حسنًا هذا مؤثّر أكثر ممّا توقّعت، أعترف، أثّرتم بي.

ثمّ اقترب، وأردف:

_لكن، لا أحد سيتحدث عن معاناتي النّفسيّة خلال غيابكِ؟

أنا الّذي اضطررتُ للعيش بدون منافسة في الطّعام!

نظرت إليه قدر بابتسامة منعشة:

_لن تضطر لفعل ذلك بعد اليوم، بل وسآكل وجباتك كلّها بقدر الّتي أكلتها لأجلي.

واختفت نبرة المزاح، ثمّ قالت بصوتٍ هادئٍ مختلف:

_لم أعد بسبب القربان، وهناك حقيقة مفجعة يجب قولها لكم.

التفتت الأنظار إليها وهي تقول: _قلب سنفاير لم يكن السّبب.

تقدّم عمار قليلًا: _إذًا؟

_عدتُ لأنّني كتبت ذلك، لم أكتب نجاتي فقط، بل كتبت عودة كلّ ما اختلّ...

تغيّر وجه غسق: _تقصدين؟

أغمضت قَدَر عينيها لحظة، ثمّ قالت بوضوح:

_كتبت عودة الأموات، كلّ من سقط بسبب هذه الحكاية.

قال حيزوم، بصوتٍ خافت: _حتّى هم؟

فتحت عينيها، ونظرت إليه بثبات: _حتّى هم.

ثم سكتت قليلًا، وأردفت:

_في غيبوبتي، لم أكن غائبة كلّيًّا، ولم أكن وحيدة نهائيًّا، كنتُ هناك في عالم الماروم، لكن ليس كجسد، بل كأثر.

رأيت الحروف مبعثرة، تائهة، كأنّها تبحث عن ترتيبها، كنتُ ألمّ شتاتها، وحين تتآلف الكلمات، تتجلّى لي رسائل.

رفعت بصرها إليهم: _رسائل منكم.

نظرت إلى حيزوم أولًا، وقالت: _أوّل جملة قرأتها كانت لك، كنتَ تقول:

«أنا لا أهاب الموت، لكنّني أخشى غيابكِ حين أقف عاجزًا عن القتال لأجلكِ»

ثم التفتت إلى غسق: _وأنتِ قلتِ:

«إن عدتِ يومًا، لا تعتذري، فقط عودي كما كنتِ، فحضوركِ هو كلّ ما أرتجيه»

خفضت غسق رأسها، والدّمع يثقل جفونها.

ثم نظرت إلى شمس: _كنتِ تقولين:

«لو خُيّرتُ بين حياتي وعودتكِ، لاخترتُ أن أبدأ بكِ من جديد»

اقتربت شمس، واحتضنتها.

ثمّ رفعت بصرها إلى عمّار: _كنتَ تقول:

«أنا لم أحمِكِ من الألم، لأنّني أردتُكِ أن تكوني أقوى منه»

أغمض عينيه، ولم ينكر.

وأخيرًا نظرت إلى عيّار، ابتسمت: _وأنت كنتَ تقول:

«إن لم تعودي، سأضطر لأن أصبح أفضل شخص في هذا العالم، وهذا أمرٌ مرهق جدًا، لذا عودي بسرعة»

انفجر عيّار: _كنتُ أمزح!

أقسم أنّني كنت أمزح!

ضحك الجميع ضحكةً قصيرة، لكنّها صادقة.

لكن قدر لم تبتسم، قالت بهدوءٍ حاسم:

_كنتُ معكم، وكنتم معي، لكن ما كتبته لن يمرّ بسلام، الّذين سقطوا لن يعودوا كما كانوا، لن يعودوا للصّفح، بل للانتقام...

سيتّحدون، هيليكونيا، سنفاير، أنكالاجون، وكلّ من هُزم، سيعود هذه المرّة بوعيٍ جديد، لن يستهينوا بنا مجدّدًا، سيخطّطون، سيحشدون، سيبنون جيشًا لا يرحم.

ثمّ نظرت إليهم واحدًا واحدًا:

_وهذه المرّة لن تكون معركة نجاة، بل معركة بقاء.

مرّت تلك الليلة على أرضِ الجِنان كأنّها آخر ما تبقّى من الحلم قبل أن يبتلعه الفجر.

ورغم أنّ القلاع امتلأت بالأنفاس الدّافئة، والطّرقات عادت تضجّ بخطوات الأحياء بعد أن كان الموت يربض فوقها كغرابٍ أسود، إلّا أنّ الخوف ظلّ يتسرّب إلى القلوب خلسةً، كما يتسرّب البرد إلى بيتٍ أطفأ أهله النّيران وناموا مطمئنّين، فما كلّ انتصارٍ آمن، وما كلّ عودةٍ تعني انتهاء الفقد.

لقد كلّفتهم النّجاة ما يكفي من الانكسارات ليخشوا الفرح نفسه، كيف إن عادت الحرب مرّةً أخرى؟

كيف إن اتّحدت الخبائث الّتي ظنّوها رمادًا؟

كيف سيصمد القلب، وهو بالكاد نجا من موتٍ واحد؟

كانت سماء الجِنان تلك اللّيلة تشبه أمًّا عاقرًا رُزقت بعد عمرٍ طويلٍ بطفل، ثم سحق وليدها تحت أقدام القدر قبل أن تحفظ ملامحه.

سماء يختلط فيها الامتنان بالفاجعة، والطّمأنينة بالخوف، والنّجاة بندبةٍ لا تشفى.

أمّا قدر لم تستطع النّوم، وكيف يزور النّوم فتاةً قضت دهرًا كاملًا غافيةً بين الحياة والموت؟

كانت دائمًا ابنة اللّيل، تعشق السّهر كما تعشق الفراشات الضّوء، وتنتظر عودة الشّمس كلّ صباحٍ وكأنّها وعدٌ شخصيّ بينها وبين السّماء، كان الشّروق يواسيها، يخبرها، دون كلام، أنّ اللّيل مهما استبدّ لا يستطيع ابتلاع النّهار، وأنّ الألم _مهما طال_ سيأتي يومٌ ويتراجع أمام زحف الأمل كما تتراجع الجيوش المهزومة.

خرجت من جناحها بهدوء، بينما القصر غارقٌ في سكينةٍ رخوة، ومضت نحو ركنها المعتاد... تلك المكتبة المعلّقة بين السّماء والغيم، حيث الكتب تُشيّد منازلها فوق السّحاب، وحيث النّجوم تُعلّق كالقناديل فوق الرّفوف العتيقة.

هناك، حيث الهواء معطّرٌ كأنثى زرقاء ترقص بين النّسمات، فيقع النّسيم أسيرًا لها، وينجبان معًا رياحًا عاشقةً تُصيب كلّ من يستنشقها بعدوى الحنين.

في منتصف تلك المكتبة، كانت تتدلّى أرجوحةٌ غريبة، لا تشبه شيئًا من صنائع الأرض، صنعت من أغصان الكرز المتشابكة، وزيّنت بتوليبٍ أبيض وأجنحة فراشاتٍ شفّافة تلمع كلّما مرّ الضّوء فوقها.

لم تكن أرجوحةً للجلوس، بل حضنًا معلّقًا في الهواء.

تمدّدت قدر فوقها ببطء، وانسابت للخلف كريشةٍ استسلمت لتهويدة الرّيح، وانسدل شعرها الأسود دفعةً واحدة، شعرٌ متمرّد، كثيف، مموج، كأنّ الليل نفسه فُكّ من ضفائره وأُلقي فوق كتفيها...

شعرٌ يجعل المرء يذكر الله لفرط ما فيه من فتنةٍ بريئة.

أغمضت عينيها نصف إغماض، ثمّ أشارت إلى إحدى الشّهب الصّغيرة التي تخدم المكتبة، فأخذت تنفث نسائم هادئة تدفع الأرجوحة إلى الأمام والخلف برفق، وكانت تلك الحركة أكثر ما يبعث الطمأنينة في روحها، كأنّها طفلةٌ لا تستطيع النوم إلّا إذا حملتها السّماء بين ذراعيها، وفي إحدى زوايا المكتبة، استقرّت الآلة الموسيقيّة الفيكتوريّة الّتي عشقَتها منذ اللّحظة الأولى الّتي أهداها إيّاها حيزوم.

لقد فعل المستحيل ليأتي بها، قطع أراضيَ لم تطأها الخيول، وسرقها من قصرٍ مهجورٍ في أقصى حدود الجِنان، فقط لأنّ قَدَر مرّةً قالت إنّ الموسيقى القديمة تجعل قلبها يشعر وكأنّه عاش حياةً أخرى لا يتذكّرها.

اقتربت إحدى الجنّيّات الصّغيرات، وفهمت الإشارة فورًا، فأدخلت القرص الأسود المستدير داخل الآلة.

وما هي إلّا لحظات... حتّى انساب الصّوت في أرجاء المكتبة... هادئًا... دافئًا: "قالت له: صِفني... فقال لها اسمعي

شعركِ ليلٌ ساهرٌ... يمتدّ كالموج السّحيق بأضلعي

يا نفحة الرّيحان... يا سرّ البهاء المنطوي"

توقّفت الشّهب عن الطّيران، وسكنت الجنّيّات في الهواء، حتّى الكتب، بدت كأنّ صفحاتها تنصت، لكنّ قَدَر لم تكن وحدها، فمنذ أن خرجت من جناحها كان حيزوم يتبعها بخطواتٍ متردّدة وقلبٍ يكاد يفرّ من بين أضلعه.

لقد جاء اللّيلة ليقولها، ليقول الكلمة الّتي ظلّت عالقةً في حلقه منذ عرفها... "أحبّك".

لكنّه، كلّما اقترب، تراجع، كان يخشى أن يخسرها إن باح، ويخشى أكثر أن تبقى المسافة بينهما كما هي إن صمت، فاكتفى بمراقبتها من بعيد، يتأمّل انعكاس الشّهب فوق بشرتها، يتأمّل شعرها وهو يرقص مع الهواء، يتأمّل ملامحها المسترخية فوق الأرجوحة وكأنّها أميرةٌ أفلتت من كتاب أساطير، وكان يظنّ أنّه يختبئ جيّدًا، إلى أن وجد نفسه فجأة أمامها، لا يعرف كيف اقترب، كأنّ قدميه خانتاه ومضتا إليها وحدهما.

مدّ يده ببطء ولامس أطراف أناملها النّائمة، ثمّ انحنى قليلًا، يستنشق عبيرها، وعيناه تنبضان مكان قلبه.

وفجأة... قالت قَدَر دون أن تفتح عينيها:

_متى ستنتهي من النظر إليّ؟

تجمّد واختنق الهواء في صدره، ثم تابعت، بصوتٍ كسولٍ تغلّفه ابتسامة:

أظنّ أنّي لو تركتك ستبقى تحدّق بي حتّى يطلع الصّباح.

ابتلع ريقه بعسر، وتصبّب العرق فوق جبينه كعادته كلّما اقتربت منه أكثر ممّا يحتمل قلبه، وحين حاول سحب يده المرتبكة من بين أصابعها، شدّت هي على يده فجأة، فتوسّعت عيناه، وقالت، وهي تفتح عينيها أخيرًا لتغرس نظرها في ارتباكه: _إلى أين؟

ثم اعتدلت قليلًا فوق الأرجوحة، وتسلّل المرح إلى صوتها:

_ألا يفترض بك أن تصارحني؟

صمت، فضحك قلبها قبل شفتيها وأكملت:

_أم أنّك تريدني أن أخطو الخطوة بدلًا عنك؟

اقتربت منه أكثر، وهمست بنبرةٍ جعلت العالم كلّه يبدو أبعد من أن يُسمع: _وهذا لا يليق بفارسٍ شجاع مثلك يا حيزوم.

حينها، اعتدل حيزوم في وقفته كمن لسعته الكلمات أكثر ممّا لسعته الحروب، ثمّ قال وهو يتلعثم، وقد خانه اتّزان صوته: _أنتِ ماكرة.

رفعت قدر حاجبها بدهشةٍ مصطنعة، بينما انعكس ضوء الشّهب فوق عينيها الواسعتين، فأكسبهما لمعانًا مشاغبًا.

أكمل مرتبكًا: _لماذا تتحدّثين بهذه الصراحة المطلقة؟

هذا... هذا يربكني كثيرًا.

ابتسمت، تلك الابتسامة الّتي تشبه الأبواب نصف المفتوحة، لا تمنح الطّمأنينة كاملة، ولا تسمح بالهروب، ثمّ قالت وهي تتّكئ أكثر على الأرجوحة المتمايلة:

_لأنّني لا أحبّ الاختباء كثيرًا، ولا أُجيد الصّمت طويلًا، وأحبّ الصّراحة حين تخدم مصالحي الشخصيّة والعاطفيّة.

توقّف الزّمن داخل رأسه عند الكلمة الأخيرة... "العاطفيّة"، رددها كأنّه يتذوّقها لأوّل مرّة: _ع... عاطفيّة؟

ثم رفع عينيه إليها بسرعة: _هل... هل تقصدين ذلك حقًّا؟

مالت رأسها نحوه ببراءةٍ قاتلة، وقالت:

_لا أدري يا حيزوم... ماذا يجول في ذهنك أصلًا؟

وما الّذي تظنّ أنّني أقصده؟

ثمّ نهضت من فوق الأرجوحة بخفّة، وابتعدت عنه بضع خطوات بين رفوف الكتب المعلّقة، بينما ظلّ هو واقفًا مكانه، غارقًا في فوضى أفكاره كغريقٍ يحاول الإمساك بخشبة.

وحين أوشكت أن تختفي خلف أحد السّلالم السّحابيّة، التفتت نحوه أخيرًا وقالت بصوتٍ خافتٍ لكنّه أصاب قلبه إصابةً مباشرة:

_إن كنتَ تقصد الحبّ، فنعم... حقًّا.

ثم أسرعت مبتعدة، ولأوّل مرّة... لأوّل مرّة منذ أن عرفها، لم يتراجع، كأنّ شيئًا داخله انكسر، أو ربّما تحرّر، أسرع خلفها بخطواتٍ متعثّرة، حتّى أمسك يدها قبل أن تبتعد أكثر.

استدارت إليه متفاجئة، فوجدته يحدّق بها بعينين ترتجفان من شدّة ما تختبئ فيهما المشاعر، وقال بصوتٍ خرج مبحوحًا من فرط ارتباكه:

_هل... تحبّينني يا قدر؟

اتّسعت ابتسامتها قليلًا، وقالت وهي تحاول التّهرّب من الجواب عمدًا:

_لم تخرج هذه الكلمة من فمي يا حيزوم.

تنفّس بعنف، ثم مرّر يده في شعره بتوتّرٍ ظاهر وقال:

_كفاكِ لعبًا بي، فأنا لم أعد أحتمل، أنا أحبّكِ حقًّا منذ أوّل لقاءٍ بيننا

سكت لحظة، كأنّ الاعتراف انتزع شيئًا من روحه ثم أكمل بصوتٍ أخفض:

_ومنذ ذلك اليوم وأنا أكبح هذا السّيل داخلي، أتراجع كلّ مرّة خوفًا من خسارتكِ، أحيانًا كنتُ أقنع نفسي أنّ بقاءكِ صديقةً خيرٌ من أن أخسركِ بكلتا الصّفتين.

بدأ صوته يضعف شيئًا فشيئًا، بينما عيناه تهربان منها للمرّة الأولى:

_ثمّ... من أنا أصلًا؟

ضحك بمرارةٍ خافتة:

_لم يسبق لبشريّة أن أحبّت كائنًا مثلي، نصفُ إنسانٍ ونصفُ جواد، سليلُ السّلالتين، ابنُ الدّمين، كائنٌ عالقٌ بين الفروسيّة والبشر، منحدرٌ من عِرقين، مخلوقٌ شُقّت روحه بين هيئة الإنسان وصهيل الخيل...

أنا لستُ إنسانًا كاملًا أعترف، ولا جوادًا كاملًا.

خفض رأسه، وقال بصوتٍ مثقل:

_كنتُ أخشى أن تنظري إليّ يومًا كخطأٍ شنيع لا يصحّح.

ساد الصّمت للحظات حتّى اقتربت منه قَدَر ببطء، ثمّ رفعت يدها نحو وجهه، ولأوّل مرّة منذ عرفها كانت نظراتها خالية تمامًا من المزاح، مرّرت أناملها على وجنته برفق، وقالت: _أتدري ما مشكلتك يا حيزوم؟

رفع عينيه إليها بصمت، فابتسمت ابتسامةً صغيرة، ثم همست:

_أنّك ترى نفسك بعين العالم... لا بعيني.

ارتجف شيءٌ ما داخله، وأكملت:

_أنا لم أرَ فيك يومًا هيئةً غريبة، كلّ ما رأيته فارسًا يحمل قلبًا أنقى من كثيرٍ من البشر.

ثم ضحكت بخفّة وأضافت:

_كما أنّ فكرة أن يغار الجميع لأنّ فارسي يستطيع الرّكض أسرع من الرّيح تبدو مغرية بصراحة.

اتّسعت عيناه بصدمةٍ خجولة، قبل أن يضحك رغمًا عنه، ضحكةً خرجت لأوّل مرة منذ زمن، نقيّة، دافئة، خالية من الخوف.

وفي تلك اللّحظة كانت الشّهب تدور فوقهما ببطء، والموسيقى القديمة ما تزال تنساب في أرجاء المكتبة، والكتب المعلّقة تتمايل كأنّها تُبارك اعترافًا انتظرته السّماء طويلًا.

قطع حيزوم على نفسه عهدًا لم يسمعه أحد، لكنّ السّماء كلّها شهدته، أقسم في سرّه أنّ قَدَر ستكون زوجته مهما كلّفه الطريق من فواجع، وأنّه سيقاتل العالم بأسره إن اضطرّ، وسيُريق عمره قطرةً قطرة في سبيل الوصول إليها، فالحبّ النقيّ لا يُمنح للجبناء، والعلاقات التي تُشبه الطّمأنينة لا يحميها إلّا أصحاب القلوب الشجاعة، وكان حيزوم _رغم كلّ ما فيه من ارتباكٍ وخجل_ فارسًا خُلق ليُضحّي، لا ليهرب، ولأوّل مرّة منذ عرف قَدَر لم يشعر بالخوف من المستقبل، بل شعر أنّ حياته كلّها بدأت الآن فقط... **لكنّ الجِنان لا تسمح للفرح أن يطول كثيرًا.**

فما إن صدحت الطّيور في السّماء، حتّى بدا تغريدها غريبًا على نحوٍ مقلق، لم يكن عذبًا كما اعتادت آذانهم، بل بدا كصفّارات إنذارٍ بعيدة، وكأنّ أسراب الطّيور تحاول أن تحذّر الأرض ممّا يقترب منها.

تلاشى دفء اللّحظة فجأة، وساد الصّمت، ثمّ ارتجفت السّماء.

هرع الجميع إلى الخارج، وما إن تجاوزوا أبواب المكتبة المعلّقة، حتّى تجمّدت الأنفاس في صدورهم.

كانت أرض الجِنان تتغيّر، السّماء شاحبة كثوبٍ أبيض دُفن طويلًا تحت الوحل، والبرق يضرب أطراف الغيم بلا توقّف، كأنّ السّماوات تتشاجر فوق رؤوسهم، أمّا أشجار الجِنان فقد بدأت تموت، ثمارها اسودّت فجأة، أوراقها ذبلت كما يذبل القلب بعد خيانةٍ عظيمة، والألوان الّتي كانت تملأ المكان بالحياة انطفأت بين ليلةٍ وضحاها، حتّى بدا كلّ شيءٍ باهتًا، مُنهكًا، كأنّ روح الأرض نفسها بدأت تتعفّن ببطء.

والغيوم كانت تتكدّس فوق بعضها بكثافةٍ مخيفة، كجيوشٍ هائلة ترفض التّراجع عن ساحة الحرب.

لمعت عينا غَسَق وهي تراقب المشهد، ثم قالت بصوتٍ منخفضٍ لكنّه محمّل باليقين: _الخطر يقترب.

التفت الجميع إليها فأكملت:

_علينا العودة إلى الداخل ووضع خطّة قبل أن يصلوا إلينا.

وقبل أن تُكمل حديثها التفتت قَدَر نحو عمّار، كانت نظراتها تحمل ألف سؤالٍ مؤجّل، ثمّ قالت بهدوء: _كيف أمكنك البقاء بيننا كلّ هذا الوقت؟

ألم يكن وجودك صعبًا؟

كنتَ دائمًا تظهر كطيفٍ لثوانٍ ثمّ تختفي، فما الّذي تغيّر؟

ساد الصّمت لبرهة، والبرق يشتعل خلف وجه عمّار، فيمنحه ملامح أشبه بالأسرار القديمة... تنهّد ببطء، ثمّ قال:
_ثمّة أمورٌ كثيرة لا تعرفينها يا طفلتي، ويفضَّل أن تبقى كذلك.

تقلّصت ملامح قَدَر قليلًا، لكنّه أكمل بنبرةٍ أثقل:
_بعض الحقائق لا تنفع معرفتها، بل قد تُفسد القلب دون أن تُغيّر المصير.

أرادت أن تسأله المزيد لكن عيّار قاطعهم فجأة وهو يصفق بكفّيه بعشوائيّة: _حسنًا!

يكفي هذا الجوّ الكئيب، أشعر وكأنّنا في جنازة وليست حربًا!

التفت الجميع إليه فقال وهو يشدّ ياقة ثوبه بثقةٍ مبالغٍ فيها:

_لنضع خطّة واضحة، أنا وحيزوم وعمّار سنتكفّل بالتّنانين.

ثم ضرب قبضته بكفّه وأضاف: _وسننهيهم بقبضة يد، طبعًا.

رفع حيزوم حاجبه بصمت بينما أكمل عيّار بكلّ جدّيةٍ مصطنعة:

_وربما فاتكم أمرٌ مهم، وهو أنّني بعد الموت أصبحت أكثر شجاعة.

ثم أشار إلى نفسه بفخر: _لذلك اطمئنّوا لن تُهزموا ما دمتُ معكم.

اقترب من قدر وهمس بصوتٍ يسمعه الجميع عمدًا:

_وإن شعرتم بالخوف أثناء الحرب اختبئوا خلفي.

لم تتمالك غسق نفسها من الزّفير السّاخط، أمّا قدر فضحكت رغم التوتّر، لكنّ عيّار تابع وكأنّه قائدٌ عسكريّ حقيقي: _أمّا أنتنّ..

وأشار إلى قَدَر وغَسَق وشمس: _فستتكفّلن بهيليكونيا.

تغيّرت ملامح غَسَق فورًا وقالت بحدّة:

_ولِمَ ثلاثتنا ضدّ خصمٍ واحد بينما أنتم تواجهون جيش التنانين كاملًا؟

أنتم بحاجةٍ إلى عددٍ أكبر.

لوّح عيّار بيده بلا مبالاة وقال:

_يا صديقتي... قوّتكن بالكاد تكفي لهزيمة الملكة أصلًا.

ثم أضاف وهو يتراجع خطوة خوفًا من ردّة فعلها:

_ولا أريد أن أجعل الحرب أصعب عليكنّ ممّا هي عليه.

ضيّقت غسق عينيها نحوه، فابتلع ريقه فورًا وأضاف بسرعة:

_طبعًا... هذا لا يعني أنّكنّ ضعيفات!

بل يعني أنّ الملكة مخيفة بشكلٍ غير لطيف إطلاقًا.

ضحكت قدر رغمًا عنها، حتّى شمس ابتسمت ابتسامةً صغيرة وسط ذلك الخراب، لكنّ عمار ظلّ صامتًا، كان يحدّق في السّماء فقط، وكأنّه يرى ما هو أبعد من الغيوم، أبعد من البرق، أبعد من الحرب القادمة نفسها، ثمّ قال أخيرًا بصوتٍ جعل الجميع يلتفت إليه: _إنّهم لا يقتربون وحدهم.

ساد الصمت واشتدّ الرعد ثم أكمل: _هناك شيءٌ آخر يتحرّك معهم...

شيءٌ أقدم من التنانين، وأشدّ ظلمةً من أنكالاجون نفسه.

وفي اللّحظة الّتي أنهى فيها جملته، اهتزّت أرض الجِنان اهتزازًا عنيفًا وسقطت إحدى أشجار النّور العملاقة في الأفق... كأنّ الحرب أعلنت وصولها رسميًّا.

خيّم على القاعة صمتٌ ثقيل، كأنّ الجِنان بأسرها تحبس أنفاسها مترقّبةً ما سيولد من رحم هذه اللّيلة، كان المطر يضرب النوافذ البلّورية بعنفٍ، والسّماء تزمجر فوق القلاع كوحشٍ جريحٍ يبحث عمّن مزّق كبرياءه.

أمّا داخل القصر، فقد التفّ الرّفاق حول الطّاولة الحجريّة المستديرة، تتوسّطهم خريطةٌ عظيمة مرسومة بمدادٍ أزرق يشعّ كالعروق الحيّة.

تقدّم عمّار، وبسط كفّه فوق الخريطة، فاهتزّت الخطوط فجأة، وارتفعت منها مجسّمات ضوئيّة لجبال الجنان وغاباتها وأنهارها.

قال بصوتٍ عميقٍ تشبه نبرته صدى الكهوف القديمة:

_لن ينتصروا بالقوّة وحدها، بل بالفوضى، سيفصلوننا عن بعضنا، ويجعلون الخوف يقاتل نيابةً عنهم.

رفع إصبعه نحو الجهة الشماليّة من الخريطة، حيث ارتفعت قممٌ سوداء كأنيابٍ خارجة من جوف الأرض:

_التنانين ستعبر من وادي الرّماد، هيليكونيا ستقود جيش اليمام من السّماء، أمّا جيش الظّلال فسيهاجم القصر مباشرةً.

ضيّق حيزوم عينيه، ثم قال: _إذن نمنعهم من الاتّحاد.

ابتسم عمار ابتسامةً خافتة، وقال:

_تمامًا، سنقسّم المعركة قبل أن يقسّمونا هم.

مدّت غسق يدها فوق البحر المرسوم بالخريطة، فاهتزّ الماء الضوئيّ، وارتفعت منه أمواجٌ شفّافة:

_أستطيع حجب القسم الشرقيّ بسحبٍ عاصفة، لن يتمكّن اليمام من الرؤية هناك.

قال عيار فورًا: _وأنا سأستدرج التّنانين نحو الممرّ الحجريّ، الأماكن الضيّقة تخنق أجنحتهم، وتجعلهم يقاتلون كالجرذان.

رمقته شمس بنظرةٍ متحفّظة: _ذلك انتحار.

فرد كتفيه وقال بثقةٍ مغالية:

_بل بطولة، وهناك فرقٌ شاسع بين الأمرين يا سيّدتي.

زفر حيزوم بضيق، بينما ارتسمت على شفتي قدر ابتسامةٌ صغيرة بالكاد ظهرت، ثمّ تقدّمت نحو الخريطة، وأشارت إلى قلب القصر:

_هيليكونيا تريدني أنا، لن تهتمّ بالبقيّة ما دمتُ أمامها.

قال حيزوم بسرعةٍ حادّة: _مرفوض.

التفتت إليه بهدوء: _استمع أوّلًا، سنستغلّ غرورها، أنا وشمس وغسق سنجذبها إلى السّاحة العليا... بعيدًا عن الجيش.

_وأثناء ذلك؟

قال عمّار: _نحن الثّلاثة سنقضي على التّنانين وقادة الظّلال قبل أن تصل التّعزيزات.

صمت الجميع لحظة، كانت الخطّة خطيرة... مرعبة... لكنّها الوحيدة الممكنة.

قالت غسق أخيرًا: _إن سقط أحدنا...

قاطعها عيار فورًا وهو يصفّق بيده:

_لن يسقط أحد، أرجوكِ لا تبدئي خطابات التّضحية الآن، ما زلتُ صغيرًا ووسيمًا ولا أرغب بالموت قبل أن أعثر على فتاةٍ تُقدّر مواهبي.

رمقه حيزوم ببرود: _أيّ مواهب؟

أجاب عيّار بثقة: _الجوع مثلًا.

ورغم احتقان الخوف... ضحك الجميع، ضحكة قصيرة، متعبة، لكنّها كانت كافية لتعيد إليهم شيئًا من إنسانيّتهم وسط هذا الخراب القادم.

بعد ساعاتٍ قليلة، كانت أروقة القصر تضجّ بصليل الدّروع ورنين السّيوف، والخدم يهرعون بين الممرّات يحملون الأسلحة والرّماح وأقواس النار.

واحدًا تلو الآخر، بدأ الرّفاق يرتدون هيئة الحرب.

كانت غسق تلفّ ذراعيها بشرائط فضيّة تتلألأ كوميض البرق، وشمس ترتدي درعًا ذهبيًّا تنبعث منه حرارةٌ خفيّة، كأنّ الشمس نفسها سُجنت داخله.

أمّا قدر فوقفت أمام المرآة الطّويلة تربط خصلات شعرها الأسود، بينما كانت رماحها مصطفّةً قرب الجدار كأنّها تنتظر الإذن بالعاصفة.

وفجأة... تقدّم فارسٌ طويل القامة من نهاية الرواق، بلغ طوله حدًّا جعل الدروع تبدو أصغر من أن تحتويه، وامتدّت كتفاه العريضتان كأنّهما شُيّدتا للحروب وحدها، كان جسده مفتولًا بقسوة السّنين التي قضاها بين المعارك، حتّى غدت عضلاته أشبه بحديدٍ صُقل تحت مطارق الدم والنار.

رفع كفّه ببطء، ووضع الخوذة فوق رأسه، فانسدل شعره الأسود الطويل بين أنامله للحظة، قبل أن تبتلعه الخوذة تاركةً عينين لوزيّتين عسليّتين تشعّان بثباتٍ خطير، وحاجبين كثيفين، ورموشًا تلقي ظلالًا قاتمة فوق جفنيه.

ثمّ شهر سيفه، وثبّته حول خصره بحركةٍ واثقة، وقال بصوتٍ جهوريٍّ تتكسّر عند حافّته رهبةُ الحرب: _قد انتهيت.

ما إن استقرّ صوته في أذن قدر، حتّى شعرت كأنّ فراشاتٍ خفيّة أخذت تداعب سمعها، التفتت إليه، وتأمّلته بنظرةٍ مطوّلة، ثم قالت بابتسامةٍ جانبيّة: _يبدو أنّك متحمّس للحرب يا فارسي.

تجمّد مكانه، رمش مرّتين، ثمّ قال بارتباكٍ خفيف: _ماذا قلتِ للتو؟

أمالت رأسها بمكر: _لا أظنّ أنّ في أذنيك وقرًا، لذا التّكرار لن يفيد.

شعر للحظة أنّ قلبه نسي كيف يخفق، ثم قرّر أن يبادلها اللّعب نفسه، فقال مقتربًا خطوة: _ومن أخبركِ أنّني مهتمّ بسماعها مرّةً ثانية؟

لكنّه ما لبث أن شعر أنّ المزاح لا يليق برقتها، فوخزه قلبه بندمٍ صغير، واستدرك بسرعة:

_أجزم أنّ كلّ الحروب الّتي خضتها في حياتي لم تأسرني كما تفعل عيناكِ، ولا فتك بي اقتراب شيءٍ منّي كما يفتك بي قربك.

ساد الصّمت للحظة، الصّمت الّذي يسبق ارتباكَ الأرواح حين تُكشف أسرارها دون استعداد.

وفجأة...

_احم... احم.

استدارا معًا، كان عيّار واقفًا عند الباب، يعقد ذراعيه ويهزّ رأسه بأسفٍ مصطنع: _سأمثّل بأنني لم أسمع شيئًا.

صدفة فقط... صدفة بريئة جدًا.

وللعلم، حتّى لو فاتني هذا المشهد، فنظراتكما مفضوحة منذ زمن.

اتّسعت عينا قدر فورًا، بينما احمرّ وجه حيزوم تحت الخوذة.

قالت بسرعة وهي تلتقط رمحها:

_حسنًا، سأذهب لأستعجل البقيّة وأحضر سهامي أيضًا، فهناك بعض الأشخاص أفكّر بإنهاء مزاحهم برمحٍ واحد.

قهقه عيّار عاليًا: _ها قد عادت بطلتنا القاتلة!

لكنّه ما إن ابتعدت، حتّى اقترب من حيزوم وربت على كتفه بمكر، ثمّ همس: _مبارك يا فارسي.

اصطفّ الرّفاق فوق الشرفة العلوية لقصر الجِنان، وقد ارتدوا عدّة الحرب كاملة، بينما كانت الرّياح تعصف بأطراف الرّايات المعلّقة على الأبراج كأنّها تنذر بقرب ساعةٍ مفصليّة ستُكتب بمداد الدّم والنّار.

ساد المكان صمتٌ متوتّر، لا يقطعه سوى هدير الغيوم المتراكمة في أعالي السّماء، كلّ عينٍ كانت معلّقة بالأفق، كلّ يدٍ كانت تستقرّ فوق مقبض سيفٍ أو رمحٍ أو قوس، وكلّ قلبٍ كان ينتظر الإشارة الأولى لولادة المعركة.

وفجأة... دوّى في السّماء صوتٌ هائل، ليس زئيرًا ولا صرخةً ولا هديرَ رعد، بل شيءٌ أعظم من ذلك كلّه، صوتٌ بدا وكأنّ طبقات السّماء نفسها قد انشقّت لتفسح الطّريق لوافدٍ قادمٍ من أسطورةٍ أقدم من الزّمان.
ارتفعت الأبصار نحو الغيوم، وما هي إلّا لحظات حتّى بدأت السّحب تتباعد عن بعضها ببطء، كستائر مسرحٍ كونيّ يُزاح عنها الحجاب.

ثم ظهر، طائرٌ عملاق، طائرٌ من فرط ضخامته بدا كجزيرةٍ طائرة تشقّ الفضاء، امتدّ ذيله خلفه كجدولٍ من الريش الرماديّ المتدفّق، بينما ارتفع فوق رأسه تاجٌ من الرّيش الطّويل، غير أنّ أكثر ما أثار الرّهبة في النّفوس كانت عيونه، فكلّ ريشةٍ من ذلك التّاج كانت تحمل عينًا مستقلّة، عشرات العيون، بل مئاتها، تفتح أجفانها وتغلقها في انتظامٍ مهيب، وتومض بألوانٍ مختلفة كنجومٍ حيّة تراقب العالم، وحين فرد أحد جناحيه فقط...

غمر ظلّه ساحة القصر العلوية بأكملها، فانطفأ ضوء الشّمس عن الرّفاق للحظة، وغرقت الأرض تحت عباءةٍ من الظّلال المهيبة.

تراجع بعض الحرّاس خطوةً إلى الوراء، وأمسك آخرون بأسلحتهم دون وعي، حتّى عمّار نفسه رفع رأسه متأمّلًا ذلك الكائن بصمت، أمّا عيار فبقي فاغرًا فاه كطفلٍ يشاهد معجزةً للمرّة الأولى.

ثمّ هبط الطّائر ببطء، وكان هبوطه أشبه بنزول جبلٍ من السّماء، ارتجفت الأرض تحت مخالبه، وتناثرت دوائر الغبار حوله، وعندها... ظهرت شمس، كانت تقف فوق ظهره الشّاهق كملكةٍ خارجة من صفحات الحكايات الأولى، انسدلت خصلاتها الذّهبية خلفها، بينما انبعث من حليّها وهجٌ ذهبيّ جعلها تبدو كأنّها قطعةٌ من ضوء الفجر تجسّدت في هيئة امرأة.

هبطت بخطواتٍ واثقة، ثم قالت: _هذا هو الغيثق.

نظرت العيون إليها بترقّب، فأكملت:

_سيكون سندنا الأخير إن انكسرت الموازين، يستطيع أن ينقلنا من عالمٍ إلى آخر بلمح البصر، وإن بلغت الحرب حدًّا يستحيل معه الانتصار أو النجاة، فسيكون طريقنا إلى الخلاص.

ثم رفعت يدها نحو الطائر العملاق:

_لكنّه لا يستطيع القيام بذلك إلّا مرةً واحدة كلّ أربعٍ وعشرين ساعة، لذلك... لن نستدعي عونه إلّا إذا أوشك الأمل على الانطفاء.

سكتت لحظة، ثمّ أضافت:

_كما أنّه قادرٌ على حمل جيشٍ كامل دفعةً واحدة.

ساد الصّمت، كان الجميع لا يزالون يحاولون استيعاب حجم ذلك الكائن الأسطوريّ، إلّا عيار، فقد تقدّم بخطواتٍ واثقة وهو يطالع الغيثق من أسفله إلى أعلاه، ثمّ وضع يديه على خصره وقال: _يا إلهي...

يبدو أنّني وجدت أخيرًا من يستحقّ منافسة قوّتي وربما أتغلّب عليه أيضًا فأنا لا أُضاهى أصلًا.

التفت إليه الجميع، ثم انفجروا بالضّحك رغم ثقل اللحظة، حتّى الغيثق نفسه أدار إحدى أعينه الضّخمة نحوه، وكأنّه يشكّك فيما سمعه للتوّ.

قال حيزوم: _أنت بالكاد تستطيع منافسة شهيّتك.

فردّ عيار فورًا: _الشهيّة موهبة لا يملكها الجميع.

ثم أضاف وهو يشير إلى الطائر: _لكنني أعترف أنّه خصمٌ محترم.

اقتربت قدر ببطء، كانت تحدّق بالغيثق كما يحدّق طفلٌ في حلمٍ خرج من الخيال ليقف أمامه، وما إن بلغت جواره حتى انحنى الكائن العملاق نحوها، ببطء، بهدوء، بإجلالٍ غريب... حتّى لامست مقدّمة منقاره الأرض أمامها.

ساد الصّمت من جديد كأنّ الجميع شهد طقسًا مقدّسًا لم يفهموا معناه.

مدّت قدر يدها ولامست ريشه برفق فأغمض الغيثق عشرات العيون المنتشرة فوق تاجه في لحظةٍ واحدة وكأنّه يحيّيها.

ابتسمت قدر ابتسامةً صغيرة وقالت: _لم أرَ في حياتي هيئةً كهذه!

ما أعجب قدرة الخيال حين يحلّق.

ثمّ رفعت بصرها نحو السّماء وأردفت بخشوع:

_وإن كان هذا من تصوّر البشر... فلنا أن نتخيّل كم ستكون خلقة الله أبدع وأعظم وأسمى، سبحان من علّم الإنسان ما لم يعلم، سبحان من علّمه كيف يصنع وكيف يحلم، وسبحان من جعل للعقول أجنحةً تعبر بها حدود المستحيل.

ساد الصّمت بعد كلماتها، حتّى الرّياح خفّ هديرها للحظات، وكأنّ الجِنان نفسها أصغت لذلك التّسبيح، ثمّ... فتح الغيثق جناحيه كاملين، ولأوّل مرّة، رأى الرّفاق حجمه الحقيقيّ، امتدّ الجناح الأيمن فوق الأبراج، وامتدّ الأيسر فوق الغابات البعيدة.

وفي تلك اللّحظة أدرك الجميع حقيقةً واحدة:

أنّ الحرب القادمة لم تعد حربًا بين فرسانٍ وأعداء، بل أصبحت حربًا بين مصائر، وأنّ الأساطير الّتي سمعوها يومًا... قد بدأت الآن فقط.

تقدّم عمّار إلى الرّفاق بخطواتٍ هادئة، وقد التفّت حوله عباءةٌ سوداء مرصّعة بخيوط المرجان الأحمر القاتم، حتّى بدا كأنّه يحمل قطعةً من اللّيل فوق كتفيه، وفي يده عصا معقوفة الرّأس تتربّع فوقها جوهرةٌ خضراء تشعّ ببريقٍ غامض، كأنّ داخلها غابةٌ كاملة من الأسرار.

رمقها حيزوم بنظرةٍ جانبيّة ثمّ قال:

_لست كبيرًا بما يكفي لتحمل معك عصًا هزيلة كهذه.

ارتسمت على شفتي عمّار ابتسامةٌ خفيفة ثمّ أجاب:

_ليست عكّازة يا فتى.

ورفعها قليلًا أمامه:

_بل شيءٌ أعظم ممّا تظن، وسترى بنفسك أثرها حين تبدأ الحرب ويحين وقت إسقاط الطّغاة.

وقبل أن يضيف شيئًا آخر، تقدّمت غسق خطوةً إلى الأمام، كان القلق ظاهرًا في عينيها على نحوٍ لم تستطع إخفاءه، قالت بصوتٍ خافت:

_أترون حقًّا أنّنا قادرون على هزيمتهم؟

ثمّ نظرت نحو الأفق البعيد، حيث كانت الغيوم السّوداء تتكاثر فوق حدود الجنان: _عددهم يفوق عددنا أضعافًا، وربّما تفوقنا قوّتهم كذلك، أشعر أحيانًا أنّ الهزيمة مكتوبة قبل أن تبدأ المعركة، وكأنّ حتفنا ينتظرنا هناك ولا سبيل للفرار منه.

ساد الصمت للحظات، ثمّ اقتربت قدر منها وربّتت على كتفها برفق وقالت: _وهل تعلمين كيف انتصر الصالحون على الطغاة عبر التّاريخ رغم قلّة عددهم؟

التفتت إليها غسق: _أخبريني.

ابتسمت قدر ابتسامةً هادئة وقالت:

_في كتاب الله قصّةٌ أحبّها كثيرًا، قصّة قومٍ خرجوا للقتال وهم أقلّ عددًا وعدّةً من عدوّهم، وكان أمامهم جبّارٌ يملك جيشًا يملأ الأرض رهبةً.

أطرقت برأسها قليلًا وكأنّها تستحضر الكلمات من مكانٍ بعيد، ثم تابعت:

_لم يكن خوفهم مختلفًا عن خوفك الآن، ولم تكن قلوبهم من حجر، كانوا بشرًا يخشون الموت كما نخشاه نحن، لكن، حين واجهوا الحقيقة أدركوا أمرًا عظيمًا، أنّ النّصر لا يُقاس بعدد السّيوف، ولا بكثرة الجيوش، ولا بضجيج الرّايات، بل بما يسكن القلوب من يقين.

ارتفعت عيناها نحو السّماء وقالت:

_لقد ذكر الله أنّ فئةً قليلةً غلبت فئةً كثيرةً، بإذن الله.

وأكملت بصوتٍ أكثر عمقًا:

_لم تقل الآية إنّهم غلبوهم بقوّتهم، ولا بمهارتهم، ولا لأنّهم كانوا الأفضل تجهيزًا...

بل بإذن الله، وكأنّ السرّ كلّه مختبئ في هذه الكلمات القليلة.

ثم التفتت إلى غسق مباشرة: _أتعلمين ماذا يعني ذلك؟

يعني أنّ الإنسان مطالبٌ بالسّعي لا بالنّتيجة، أن يحمل سلاحه ويثبت في مكانه ويؤدّي ما عليه، أمّا ما وراء ذلك فليس بيده.

أطرق عمّار رأسه موافقًا، فأكملت قدر:

_أولئك القوم لم يكونوا يضمنون النّجاة، ولم يدخلوا الحرب وهم متأكّدون من العودة، لكنّهم دخلوها وهم يعلمون أنّ الحقّ يستحقّ أن يُدافع عنه ولو كان الطّريق إليه مليئًا بالأشواك.

ارتجفت أنفاس غسق قليلًا فقالت: _وما الّذي قالوه قبل القتال؟

ابتسمت قدر:

_دعوا الله أن يسكب عليهم الصّبر سكبًا، وأن يثبّت أقدامهم، وأن ينصرهم على الظّالمين.

ثم أضافت بهدوء:

_لم يطلبوا حياةً طويلة، ولا كنوزًا، ولا نجاةً مضمونة، طلبوا الصبر أولًا، لأنّ الصّبر هو الجسر الذي يعبر به المؤمن نحو كلّ شيء.
شعرت غسق وكأنّ شيئًا من الاضطراب انسحب من صدرها، وكأنّ الكلمات أعادت ترتيب الفوضى داخل روحها.

عندها ضرب عمار الأرض بعصاه ضربةً خفيفة، فأضاءت الجوهرة الخضراء للحظة، وقال بصوتٍ ثابت:

_لا أحد يعلم كيف ستنتهي هذه الحرب، لكنّني أعلم شيئًا واحدًا، إنّ الهزيمة الحقيقيّة لا تكون حين يسقط الجسد، بل حين يستسلم القلب قبل أن تبدأ المعركة.

عندها اعتدل الجميع في وقفتهم، وانصرف الخوف قليلًا عن الوجوه، ففي تلك اللّحظة... لم يعودوا ينظرون إلى كثرة العدوّ، بل إلى عظمة القضيّة الّتي يقاتلون من أجلها.

"صراع القدر"

في الموضع الذي تُغشى فيه ملامح الثَّرى تحت قناعٍ من الضّباب، وحيث يتضوّرُ تراب الوهم جوعًا لالتقام جثث الحقيقة...

وقف كلٌّ بدروعٍ يعلم أنّها لن تحصنه من مشاعره، يراقبون اللّيل الّذي طوى الضّياء طيّ السّجِلّ للكتب، يشحذ نجومه مستوفزًا ليفترس ذاته، وتتوزَّعُ أبصارهم في المدى الّذي خلع عنه رداء الجهات.

لم تكن قدر بحاجةٍ إلى تأمّل القبس الّذي يرثي ظلمتهم، فقد كان ليلها نهارًا، ولا إلى سبر المسرح الّذي تسدل عليه أثواب أرواحهم، فقد كان امتدادًا سوداويًّا لأحلامها الكئيبة، قرأت في عصف الرّيح أثر الفراشة، وفي النّور تضحية الشّمس، وفي رائحة الموت حياةً طال طهوها.

ترى الفريق لا يطمح للخلاص بقدر ما يصبو إلى الظّفر، وأيّ فوزٍ هذا الّذي يلجئها للثّأر منه إن كانت الملحمة الحقيقيّة تدور في سويداء قلبها؟

الزَّئير لغة نبضةٍ كظمتها بين الحجُرات، وقراع السيوف احتضار المنى في حضرة الرّجاء، وسنابك الخيل تقدح في ذهنها شرر الحنين، ممّا أنساها أن تتساءل عن المعركة، وبات شغلها الشّاغل:

أيصلحُ فؤادها أن يكون مقبرة؟

كانت ثابتةً في مقدّمة الصَفّ، وقد استقرَّ رمحها بين أناملها، بينما تهدَّلت من كتفيها عباءةٌ خفيفة طفقت الريح تعبثُ بأطرافها.

لم تكن ترنو إلى الجحفل، بل إلى المسافة الفاصلة بينهما، تلك المسافة الّتي لم تعد أرضًا، وإنّما مُهلة أخيرة منحتها السّماء لمن سيكتب بدمه السّطر المجيد.

إلى جوارها وقف حيزوم، صامتًا يحدّ البصر في الأفق، ثم يلتفت إليها خفيَةً، وكأنَّ في أساريره سؤالًا يخشى أن يعلم جوابه.

لمحته قدر، فابتسمت ابتسامةً ضئيلةً لم تبلغ ناظريها.

قالت: _ما بك؟

أجاب: _أتحقّق فقط من أنكِ ما زلتِ هنا.

_وأين سأكون؟

_لا أعلم... أنتِ بارعة في الرّحيل دون أن تستأذني أحدًا.

ولجت كلماته إلى موضعٍ في قلبها لم يكن محصَّنًا.

ثمّ قالت بهدوء: _هذه المرة لن أرحل وحدي.

لم يجب، لكنّ يده تحرّكت ببطء، واستقرّت فوق مقبض سيفه.

وفي الصّفوف الخلفيّة، كان عيّار يشدّ حزامه للمرّة الثّالثة، ثمّ نظر إلى نفسه في صفحة درعه المصقولة وقال: _أظنّ أنّني أبدو مخيفًا.

قالت غسق دون أن تلتفت: _تبدو كمن نسي لماذا جاء.

_جئت للحرب.

_وأنت تصلح لكلّ شيء إلّا الحرب.

رفع رأسه محتجًّا: _هذا افتراء تاريخي، وسأطالب بتصحيحه بعد انتصارنا.

التفت حيزوم إليه: _إن بقي لك لسان بعد الحرب.

ابتسم عيّار:

_وإن بقي لك شعر بعد أن ترى ما سأفعله بالتنانين، فلا تنسَ أن تشكرني.

أمّا عمار، فكان واقفًا خلفهم، ممسكًا بعصاه ذات الجوهرة الخضراء، وقد غلّف الصمت ملامحه.

اقتربت منه شمس وقالت: _هل تراهم؟

أجاب: _أراهم.

_وهل ترى النصر؟

نظر إلى أبنائه وصحبه، ثمّ إلى كبد السّماء: _أرى ما هو أعمق من النصر.

_ماذا؟

_أرى ما سيبقى منهم بعد أن تنتهي الحرب.

سكتت شمس، فأردف:

_بعض المعارك لا تُقاس بمن انتصر فيها، بل بمن خرج منها وما زال قلبه يعرف الرّحمة.

وقبل أن تفيض بجواب، خبت إحدى المشاعل.

ثمّ خبت الثّانية، ثمّ الثّالثة، ارتبك الفريق...

لم تكن الرّياح هي الّتي أطفأتها، فقد بقيت النّار مضطرمةً في أطرافها، لكنّها انقبضت بغتةً إلى الداخل، كأنّ يدًا خفيّةً قبضت على لهبها.

رفع عمّار رأسه: _جاءوا.

خرجت الكلمة من فيه وادعة، بيد أنّها وقعت في المكان وقوع النّذير.

وفي اللّحظة عينها، دوّى من بعيدٍ صوتٌ لم يكن زئيرًا، ولا صهيلًا، ولا صراخ بشر، كان مزيجًا مهوّلًا بين ذلك كلّه، ارتجَّت له جدر القصر، وتراجعت الطّير عن أفنانها، وانحنت الأغصان تحت عصفه، وانشقَّ الضَّباب في أقصى الأفق عن سوادٍ كالح.

ثم بدتِ الأجنحة...

واحد، ثمّ آخر، ثمّ العشرات، ثمّ المئات، جحفل كامل انبثق من قلب العماء.

تنانينُ بأجسادٍ ملتوية، وأفواهٍ تمجّ ألسنة اللّهب، وفرسانٌ مدجّجونَ بالسّلاح، وخلائق لم ترَ أرض الجنان لها شبيهًا منذ استهلَّت ذاكرتها.

تقدّم في جبهتهم ظلٌّ عملاق، فلمّا دنا، انكشف عن سنفاير.

خلفه امتدَّت سطور التّنانين، وعلى أحد جانبيه بدت رايةٌ دهماء تحمل شعار هيليكونيا، وفي الجانب الآخر، لمع رمز أنكالاجون.

تبادل الرّفاق النّظرات، قال عيّار: _حسنًا... يبدو أنّهم لم يأتوا للتّفاوض.

قال حيزوم: _وهل توقّعت منهم أن يأتوا لتناول العشاء؟

_كنت أتمنّى ذلك.

شدّ قبضته على سيفه: _كنت سأطلب وجبتين.

تنفّست غسق ببطء، ثم قالت: _عيّار.

_نعم؟

_اصمت.

_حاضر.

ثمّ تمتم: _ولكن بعد الحرب أطالب بوجبتين.

لم يسمعه أحد، لأنّ قدر كانت قد تقدّمت خطوة، ثبّتت رمحها في الأرض، وانحنى طرف عباءتِها تحت الرّيح، ثمّ رفعت عينيها نحو الجيش القادم.

ارتفعت راية العدوّ في السّماء وضرب أحد التّنانين الأرض بمخالبه، ثمّ جاء الصّوت من بعيد: _يا قدر!

تجمّد الأثير، عرفت الصّوت... سنفاير.

_استعدّي الآن لرؤية ثمن ما كتبتِ.

امتشق عيّار سيفه وهو يقول: _حسنًا... انتهى وقت الوجبتين.

ثمّ رفع عمّار عصاه واشتعلت الجوهرة الخضراء في رأسها، وانشقّت الأرض تحت أقدام جيش الجنان عن خطوطٍ من الضّوء امتدّت في كل اتّجاه.

قال عمار: _لا أحد يتقدّم قبل الإشارة.

نظر إليه عيّار: _وهل لديك إشارة محددة؟

_نعم.

_وما هي؟

أجاب عمار: _حين أقول: الآن.

ابتلع عيّار ريقه: _يا لك من حكيم.

ثم التفت إلى حيزوم: _أشعر أنّني سأندم على صداقتي بك.

قال حيزوم: _تأخّرت في اكتشاف ذلك.

وفجأة... رفع عمار عصاه، ارتجفت السّماء، وانطفأت آخر نجمة، ثم قال: _الآن.

وانفجرت أرض الجنان بالنار.

"في جَوف الملحمة"

انشقّت أحشاءُ الأغوار عن ألسنةٍ ضاريةٍ من اللّهب، وتطايرت الصّخور في أثير الفضاء، وتداعت أركان الصّرح المنيف تحت وطأة زلزالٍ خاسف، بينما انبثقت جحافل العدوّ من بين ثنايا الدّخان الهابي، كأنما أسقطت عن السّعير أقفاله دفعةً واحدة.

ومن طبق العتمة السّاجي، هبطت التّنانين هبوط الصّواعق، تقدّمها سنفاير، تتقدّ حراشفه كجمر الغَضا، وتلاه أنكالاجون كاللّيل المظلم، تكتنفهم سائر التّنانين الّتي بُعثت من رمام الموت، كما عاد كل شائهٍ أحيته كلمات قدر إلى سبل الوجود.

وفوق هذا الهول كافّةً، جنّحت هيليكونيا.. ملكة اليمام.

تسربلت بلأمةٍ من ريشٍ أسود كحلك الدجى، وحفّت بها أسراب اليمام الجاري، حاملةً بين براثنها القواطع والمدى، بينما تراصّت في الأفق كتائب المُرتزقة الّذين استأجرهم الباطل، حتّى استحال المدى بحرًا من السّلاح لا ساحل له.

زأر جنديٌّ من أقصى الصفوف: _الكرّ الكرّ!

فاطّردت الأجساد واقتحموا.

تصادمت السّيوف بالسّيوف، وشاجرت الرّماح الدّروع، ووقعت حوافر الخيل تدكّ الجلاميد، وارتفعت أصوات المقاتلين بزئيرٍ رعديّ كاد يعصف بسماء المكان.

وكان عمّار أوّل من افتتح الملحمة، رفع عصاه، ثمّ ضرب بها جبين الأرض، فانبثقت منها ومضة كهربائيّة زمرّديّة شقّت الأفق شقًّا، وهوت صواعقها من عنان الجوّ، فأورت نارًا ممدودةً بين الأرض والسّحاب، حتّى خُيِّل إلى النّاظر أنّ الرعد قد أفزّ من مرقده ليذود عن صاحبه.

استشرى أنكالاجون، وهدر، فانخسفت الأرض تحت وطأته.

قال عمار بسكينةٍ كالسّيل: _هذه الكرّة لن تلتجئ خلف مجَنّ.

واندفعا للتّلاقي.

كانت عصا عمّار تقرع مخالب أنكالاجون فتتطاير شراراتٌ ذهبيّة وخضراء، بينما يمجّ التّنّين الجمر من فمه، فيردُّ عمار عاديته بضرباتٍ لاهبة، كل حركةٍ منها تحرث الفضاء بصاعقة، وتذر في الصّخر أخدودًا يتوهّج.

وفي الجانب الآخر، كان عيّار وحيزوم يجالدان جنود النّار المجنّحة.

قال عيّار وقد جرَّد سيفه:

_تولّ أمر عدّهم، وسنطالب بوجباتٍ بعدد الرّؤوس الّتي نقطعها.

ثم أردف وهو يرمق حيزوم:

_لكنّني أخشى أن يزلّ أحدنا في حساب هذا البلاء.

ابتسم حيزوم رغم قسوة الموقف، وانقضّا كالشّهابين.

كان حيزوم يصالي الوحوش قبُلًا، وعيّار يحوف بدرعه حولًا، فكلّما هوى تنّينٌ نحو أحدهما، بدهه الآخر بسيفٍ صقيل.

ضرب حيزوم رأس أحدهم الّذي يمجّ سمًّا ولظى حتّى انفصل عن عنقه، فادّركه عيّار بحسامه كأنّه حتم القضاء.

تساقط الفوجُ تحت وطأة فارسين كانت البسالة قبل الحديد لَبوسًا يحصنهم من البأس، لم يملكوا الوقت لمسح العرق الّذي يقطر من جباههم، فتناثر في الهواء قطرات لم تتخلّ عن ومضة الحياة، بينما أشلاء التّنانين تتساقط كِسَفًا من سماء الأساطير، وكلّما خرّ أحدهم اضطربت رواسي الأرض، حتّى بات الرّماد شاهد قبر اللّهيب.

وبين صهيل الخيل وصليل السّيوف، كان النّهر القاني يجري بين الأقدام حتّى خالط التراب، واستحالت المعركة زلقًا من غزير الدّماء.

أمّا شمس وغسق، فقد غمرتهما زمرة الجند، نشرت شمس جناحَيها النّاريّين، فاضطرم المدى، وهوت على قادة الأعداء، في حين كانت غسق تستنزل المطر الدّاكن، فتفرغ فيهم الشّهب جملةً واحدة.

كان البرق يهوي، والنّار تتسامى، والموت يتخللّ السّطور.

قالت غسق وهي تلهث: _ما أكثر هذه الجراد!

فأجابتها شمس:

_لا تعتدّي بالعدد، بل انظري إلى ما تدّخره جنانكِ من قوّة.

ثمّ رفعت كفّها وادَّركتا القتال، تساقط الأول، ثمّ الثّاني، ثمّ الزّمر إثر الزّمر، حتّى ما عادت ملامح شمس تعرف إلا من خلال اللّهب، ولا ملامح غسق إلا عبر سحاب الدّم المنهلّ مع المطر.

وفي الضّفّة الأخرى، كان عيّار قد قرع ما عجز عن عدّه، كان وجهه مشبعًا بالدّم، ويداه ترتجفان من شدّة التّعب، لكنّه لم يستسلم.

قال: _لم يبقَ إلّا واحد.

تلقّى عيّار المشقّة، ثمّ كرّ بغتةً وارتفع، وغرس سيفه في عنق الرّأس الأخير، عَجَّ الوحش، وأفرغ عيّار ما تبقى في جسده من روح.

التفت إلى حيزوم وساقاه أشبه بأغصانٍ جرّدها الخريف من أوراق طاقتها، أسند ركبتيه إلى الأرض، وقبل أن ينطق، نهض التّنين الّذي ظنّ أنّه قضى عليه، وفرى بمخلبه صدر عيّار.

تجمّد النّبض في عروق عيّار، نظر إلى المخلب المغروس في ضلوعه، يحسب المسافة بين إدراكه للموت وإدراك الموت له، ثمّ ألقى نظرةً أخيرة على حيزوم كأنّه يدّخر من أثره حنينًا جمًّا، وخرّ صريعًا.

_عيّار!

لم يأتِه صدى...

نادى كمن يناشد زاويةً من الشّمس في دائرة اللّيل، باتت الدّموع غشاوةً تعزل عنه ساحة المعركة، لكنّها تصوّر له أدقّ تفاصيل الجسد الجسور الّذي هوى أمامه على الثّرى، وانثعب الدّم من الفؤاد.

تجهّم وجهه، ولم يبقَ في ناظريه سوى السّعير، انقضّ على الجثّة الهامدة للتّنين، فمزّقه بمخالبه تمزيقًا، فرَّق جناحيه، وفشخ فكّيه، وهتك حراشفه، لم يعد فيه ما يحطّم، وما زال يكرّ عليه بالضّرب كالمجنون حتّى حوّله إلى ركامٍ من الأشلاء، لم يستنشق فيها نفسًا، كأنّما كان الغضب هو الّذي يتنفّس بدلًا عنه.

ثمّ جثا عند جثمان عيّار: _لا تتجاسر على رحيلٍ الآن!

لكنّ عيّارًا كان قد أمسى رهين الصّمت.

وفي الجبهة المقابلة، كان القراع بين عمّار وأنكالاجون قد بلغ أقصى الهول. رفع عمّار عصاه ليستمطر صاعقته الأخيرة، إلا أنّ أنكالاجون كان يرقب تلك اللّحظة، فراغ بغتةً، وبطش بالعصا بمخلبه، فتطايرت جذاذًا...

سقط عمّار على التّراب.

اشتعلت عينا أنكالاجون بالحقد، وتقدّم في جبروت، كان الدّخان ينثُّ من فمه بطيئًا، والشّر يترقرق في عينيه كبئرين لا قاع لهما.

حاول عمّار النّهوض، لكنّ قدم التّنّين الصّخريّة هوت على صدره، صدر صوتٌ خفيٌّ لعظامٍ تتكسّر، ثمّ فقأ عمار دَمًا غزيرًا من فمه.

صرخت شمس: _عمّار!

ارتدّت الأبصار قاطبة، توقّفت قدر للحظة، وتمهّلت غسق، وحتّى حيزوم رفع طرفه عن عيّار.

لكنّ أنكالاجون ضاعف الضّغط، ثمّ حين رفع قدمه، كانت قوى عمّار قد انحلّت، هبَّ الرفاق لنجدته، بيد أنّ المنيّة كانت أسرع.

انطرح عمّار على الأرض، وعيناه تجوبان الفضاء بحثًا عن قدر، فلمّا اصطدمت عيناه بعينيها، استهلّت شفتاه عن ابتسامةٍ واهنة، لكنّها كانت تفيض بحنان الأبوّة الّذي عجزت الملحمة كلّها عن خنقه.

قال بصوتٍ يحتضر: _بنيّتي... قدر...

انهمرت دموعها كالسّيل.

_تذكّري أنّ الوحدة، ليست إلا وهمًا، وستقهرينها... ما دام القلب في صدركِ حيًّا.

ارتعش لسانه:

_سأكون معكِ... كما كنّا، سأحيا في كيانكِ، ولن تكوني وحيدة أبدًا.

توقّف النّفس هنيهة: _سأرعاكِ من ملكوتي البعيد.

ثم أردف:

_فرجائي الوحيد... أن تستمطري ليَ الرّحمة، وأن توقدي سراجًا في كبد السّماء كلّ ليلة... ليبدّد عتمتي في برزخي المظلم.

أغفى جفناه، وسكنت يده، وفاضت الرّوح.

_أبي!

انبثقت الصّرخة من أحشاء "قدر" كأنّها تُقلع من أقصى غائرٍ في روحها.

خرَّت على ركبتيها..

ثم طفقت تبكي، تبكي حتّى انخنقت الكلمات في حلقها، وحتّى غدا نشيجُها أعجز من أن يحمل الفاجعة، وحتّى قَدَّت صيحتها مجرى الهواء.

أما أنكالاجون، فأطلق قهقهة شماتة: _كفاكم مهزلة!

أسقطوا السّتار عن هذه الأكذوبة.

رفع رأسه في تيهٍ وعظمة: _إنّكم رعاديد!

كان حريًّا بكم الاستسلام بدلاً من مواجهة خصمٍ في بأسي.

ساد صمتٌ رهيب كالموت، ثمّ وضعت قدر كَفَّها على الثَّرى، وانتصبت... بتؤدة.

كان الدّم الهاطل ما يزال يلطّخ وجهها، وعيناها غارقتان بالعبرات، لكنّها وقفت كالجبال الرّواسي الّتي لا تزعزعها العواصف.

رمقت أنكالاجون ببصرها وقالت: _الحرب لم تبدأ إلّا الآن.

خطت خطوة: _ولَتذوقَنّ الموت مرّتين على يديّ.

ثم انتضت سيفها: _مرّةً لثأر دم والدي...

خطوةً أخرى: _ومرّةً لكلّ حيفٍ طالنا بسببك.

انكفأت التّنانينُ تراجعًا للحظة، ثم تقدّمت هيليكونيا: _وما نصيبي أنا؟

نظرت إليها قدر: _وأنتِ على الإثر.

تقدّمت هيليكونيا، وشهرت سيفها.

وفي تلك اللّحظة بالذّات، انتصب حيزوم، وغسق، وشمس، وحافوا بـ"قدر"، فتشكّلوا في هالةٍ دائريّة كقرص شمسٍ اشتعل ليذود عن ضيائه ضدّ الظّلام.

كان عيّار منطرحًا على الأرض بين كومة من جثث التّنانين، لا يملك من أمره شيئًا، فتح عينيه بأسىً وثقل، كان يتمنّى لو مَكَّنه الشّموخ من النّهوض، ليخوض معهم آخر الغمار... لكنّ الجسد خذل المنى.

همس: _تمنّيت.. لو أنّني بلغت السّاعة الموعودة معكم.

ثم أسبل جفنيه.

وانهال أنكالاجون وهيلكونيا معًا، وتفجرت الكَرَّة الثانية، كانت أعتى من الأولى... أقسى... وأشدّ كلوحًا.

اندفعت قدر نحو هيليكونيا، فتصادم السّيفان، وارتجّ الحديد ارتجاجًا مهولًا.

كانت الملكة خفيفةً أكثر مما حسبت قدر، انعطفت هيليكونيا في لمحة، ومررت شفرتها على خصر قدر، تمزّق الثّوب، وانفرج الجرح، وتدفّق الدّم.

تراجعت قدر خطوة، وضغطت يدها على الموضع النّازف.. لكنّها لم تسقط.

صرخت هيليكونيا: _أتحسبين أنّكِ كفءٌ لقهري؟

رفعت قدر رأسها: _لم أبدأ بعد.

وانقضّت...

تلاقى سيفها بسيف الملكة، يرتفعان، ويهويان، ويتشابكان، حتّى لم يعد يشقّ سكون المعركة إلا صليل السّيوف وأنين الصّدور.

وفي النّاحية الأخرى، هجم تنّينٌ نحو غسق، حاولت الابتعاد عنه، لكنّ الاشتعال لفح يديها كلتيهما.

اضطرمتا، صرخت غسق، وسقطت الدّموع كمطرٍ أحمر على الأرض، ما عادت تطيق رفع ذراعيها، أسرعت شمس إليها، وأمسكت بها وانتزعتها من أتون المعركة: _استريحي!

_ولكنّني أقدر على...

_لا!

شدّتها إليها: _لا نحتمل ثكلاً آخر.

نظرت غسق إلى جثمان عمار... ففهمت، فسكنت.

وهكذا، لم يبقَ في لهيب الملحمة إلا قدر، وشمس، وحيزوم، ثلاثة فرسان، ثلاثة أفئدةٍ مفجوعة بالفقد، وثلاثة أجسادٍ ينثعب منها الدم. كانت كفّ قدر مخضبةً بالدّم، وخصرها ينزف بشدّة، وظهرها قد تلقّى جرحًا آخر لم تستبن عمقه إلّا حين شعرت بالدّم يدرج على ساقها.

وكان حيزوم قائمًا فوق أرضٍ قد غصّت بأشلاء التّنانين، يلهث للمرّة الأولى منذ اندلاع المعركة، وعيناه لا تزيغان عن قدر، أمّا شمس، فكان جناحاها يتوهّجان ثائرين، ووجوه خصومها قد غسلت وجهها بالدّماء.

"سقوط الطغيان"

لم تعد الحرب تذكر رحمةً ولا تمنح هدنة، كانت أرض الجنانِ قد خلت من ملامحها القديمة، السّيوف غارقةٌ في لظى الدّماء، والحجارة مضمّخةٌ بما سال عليها من أرواح المقاتلين، والدّخان يتصاعد كأعمدةٍ من الثّكل فوق القصر، فيما ظلت السّماء معلّقةً على شفا المعركة كأنّما تنتظر حكمًا أخيرًا يُخطُّ تحتَ سرادقها.

وفي قلب ذلك الخراب، كانت هيليكونيا لا تزال واقفةً كالطّود العاتي، لم يبقَ حولها من أسرابِ اليمام إلا بقايا جند، ومع ذلك لم تداخلها ذرّةٌ من تراجع، رفعت سيفها نحو قدر، وانبعث صوتها كأنّه نذير شؤم:

_انتهى زمنكِ.

وقبل أن تطأ قدمُ قدر الأرض لتتحرّك، شقَّ الأثير صوتٌ انبعثَ من خلفها... كان صوتَ شمس: _بل انتهى زمنكِ أنتِ.

استدارت هيليكونيا في حذر، كانت شمس تقف على مسافةٍ غير بعيدة، وقد خفت بريق جناحيها لبرهة، ثم أغمضت عينيها واستسلمت لذهول اللّحظة، سكنت الريحُ بغتةً، وركد القتال في السّاحة، حتى إنّ قدر التفتت إليها بذعر الأمل.

فتحت شمسُ عينيها، وانفرج جناحاها وامتدّا كالبرق في كبد السّماء، جناحًا يتبعه جناح، حتى اكتمل خلف ظهرها مئةُ جناحٍ ناريّ، تتشابكُ أطرافها في دائرةٍ هائلة من اللّهب المتأجّج، ويعلو بعضها فوق بعضٍ حتّى بدت كأنّها بابٌ سماويٌّ شُرّع على قلب بركانٍ ثائر.

ارتفعت الحرارة حتّى كادت تصهر الحديد، وتراجعت الجموع ذعرًا، حتى إنّ هيليكونيا رفعت ذراعها لتتّقي وهج الوجه.

صرخت وهي تصارع الخوف: _ما هذا؟!

لم تجبها شمس، بل مدّت ذراعيها كأنّما تصافح الموت، فاندفعت الأجنحةُ دفعةً واحدة، وانفجر اللّهب في السّاحة انفجارًا مهولًا.

لم تكن نارًا من نيران الأرض، بل كانت جمرةً متأجّجةً اقتُطِعت من قلب الشّمس ذاتها، انطلقت من جناحيها واجتازت المدى في أسرع من الخاطر، ثم اصطدمت بهيليكونيا صدمةً حاسمة.

اشتعل ريشُها الأدهم، فصرخت صرخةً شقّت حجب الفضاء، وحاولت التّحليق، لكن السّعير سبقها إلى أطراف جناحيها، فتساقط الرّيش الأسود حولها ريشةً تلو أخرى، حتّى غدت السّماء تمتلئ بأشلاء ما كانت تتباهى به من عزّةٍ وسلطان.

هوت هيليكونيا وسقطت على أرض الجنان، عاريةً من ريشها، مجرّدة من هيبتها، ومن كلّ طغيانٍ أقامته فوق أرواح الخائفين.

حاولت النّهوض والتّعلّق بالحياة، فلم تسعفها قواها، ثمّ سكنت سكون الأبد، وانتهت ملكة اليمام، لم يبقَ منها إلّا جسدٌ خمدت فيه أنفاسُ الطّغيان، وريشٌ متناثرٌ يطير في أرجاء السّاحة كرماد الأساطير.

أمّا شمس، فما إن أطفأت حريق جناحيها حتى تراجعت خطوةً إلى الخلف... ثمّ أخرى، وخارت قواها المتعبة، فبادرتها قدر وأمسكت بذراعها قبل أن تحتضن الأرض.

قالت شمس بصوتٍ خافت يقطر تعبًا: _اتركيها... لقد انتهت.

ثم رفعت عينيها المجهدتين نحو قدر: _بقي هو.

كان أنكالاجون يزأر في النّاحية الأخرى زئيرًا يرجُّ أركان الوجود، فاستوى حيزوم إلى جوار قدر، وكانا وحدهما في مواجهة ذلك الهول.

تقدم التّنّينُ وقد غسلت الدّماءُ حراشفه الكالحة واشتعلت النيرانُ في جوفه، وقال مستهزئًا: _أتتخيّلين عالمًا وهميًّا سينقذكِ من حتفكِ؟

ثم أطلق ضحكةً تهتك حجاب السكون: _يا لكِ من معتوهة!

ثبّتت قدر رمحها في كبد الأرض وقالت:

_العالم الحقيقيّ ليس أقلّ سوءًا منكم.

رفعت عينيها الثابتتين إليه:

_أمّا عن عائلتي وأصدقائي، فوجودهم حقيقيّ ما دمت أؤمن بذلك.

سكتت برهة، ثم أردفت بنبرةٍ كالصّلب:

_المسمّيات تُطلق على المظاهر، أما المكانة فهي وحدها ما تجعل الوهم حقيقة والحقيقة وهمًا.

ازداد أنكالاجون زئيرًا وجنونًا، لكنّها لم تتزحزح قيد أنملة:

_أما أنت، أيّها اللّعين...

رفعت رمحها في وجه العتمة:

_فلا يشرّفني حتّى أن أضعك في رواية خياليّة.

اقترب منها خطوةً تُزلزل الأرض: _ماذا قلتِ؟

ابتسمت ببرودٍ يعلو فوق الهول: _قلت إنّك لا تليق بجوهر الخيال.

ثم أشارت برأس الرّمح إلى صدره:

_مكانك في العالم الافتراضيّ، هذا فقط ما تنتمي إليه.

اندفع نحوها كالجبل الهاوي، لكنّها لم تتقهقر، بل قالت:

_وأشفق عليك أيضًا.

توقف لحظةً كأنّما أصابته كلمة: _لأنّك لم تذق طعم الحبّ.

تغيرت ملامحه المظلمة، فأكملت:

_وكيف لمن جُبلت طينته بالشّرّ أن يفيض على من حوله بالحبّ؟

ثم أضافت: _وهل تعرف أصلًا ما هي العائلة؟

ارتجفت أنفاسه المسمومة:

_لقيط مثلك وُضع على أطراف الصّفحات، لينتهي به المطاف مقتولًا.

ثم قبضت على رمحها بقوةٍ كادت تفلق خشبه: _الشّرّ في خيالي لا ينتصر.

اندفعت نحوه كالسّهم المنطلق:

_وتأكّد أنّ عالمي نفسه يموت فيه الأشرار موتًا مخزيًا!

صرخ أنكالاجون صرخةً تحبس الأنفاس: _سأقتلكِ.

قالت بثبات: _لا قيمة لك، صدّقني.

ثم رفعت الرّمح: _والآن... ذق ما صنعت يداك، أيّها النّتن!

انقضّت عليه وبدأت تنهال عليه بالضّربات؛ ضربةً، ثم أخرى، ثم ثالثّة.

كان الرّمح يخترق حراشفه القاسية ثم يعود ليمزّق موضعًا آخر، بينما كان حيزوم يهاجمه كالصّاعقة من الجانب المقابل.

لم يكن أنكالاجون خصمًا يستهان به، بل كان يقاتل بكلّ ما بقي في كيانه من بطشٍ وجبروت، لكنّ قدر وحيزوم كانا قد بلغا تلك المرحلة الّتي يتجرّد فيها الجسدُ من آلامه، إذ كانت الإرادةُ وحدها هي الّتي تحرّك الفولاذ في أيديهما، يحاربان كفرسين أُعدّا لملحمة الموت منذ أن كُتب أوّل سطر في كتاب مصيرهما.

وفي لحظةٍ خاطفة كالقدر، باغت أنكالاجون قدر؛ التفّ حولها كالأفعى، ثم رفع مخلبه وانقضَّ.

شهقت قدر، وسقطت ضفيرتاها الطّويلتان على التّراب المضمخ بالدّماء.

توقّفت وحدّقت فيهما بذهول، لم يكن الجرحُ قد أصاب جسدها، بل ضرب شيئًا في أعماق قلبها، هاتان الضّفيرتان اللّتان طالما فاح منهما عبق الياسمين، واللّتان كانتا من أحبّ أسرارها إليها، واللّتان افتتن حيزوم بروعتهما منذ أوّل لحظةٍ وقعت عيناه عليها.

انطفأ النّورُ في عينيها لبرهة، وخارت قواها تمامًا، فأغلقت جناحيها واستسلمت للسّقوط.

اندفع حيزوم إليها كالمجنون: _قدر!

حملها بين ذراعيه وهي ترتجف كعصفورٍ أصابته القارعة، وضمّها إلى صدره كأنّما يريد أن يردَّ بكيانه كلّ حيفٍ نزل بها.

لكن أنكالاجون لم يمنحهم مهلةً للرحمة، إذ انقضَّ كالصّخرة ونابت مخالبه الخمسة القاسية في ظهر حيزوم، حتى اخترقت أطرافُها صدره وخرجت للعيان.

تجمّد الدّمُ في عروق قدر، وشهقت صرخةً خنقها الهول: _حيزوم...

جثا حيزوم على ركبتيه فوق الثّرى، ومع ذلك لم تفلت يداه طيفَها؛ شدّ ذراعيه حولها بآخر رمقٍ في حياته، وحجب جسده ليكون درعًا دونها، بينما كان الدّمُ ينثعبُ كالنّهر من صدره وظهره، أمّا هو فلم يكن يحمل في ذاكرته الموشكة على الانطفاء إلا فكرةً واحدة: ألا يمسَّها أذى.

رفع عينيه النّاتئتين بالألم نحوها، وابتسم ابتسامةً عذبة تُغالِب الموت:

_لا تخافي...

ثم انحنى فوقها أكثر ليتلقّى الموت بدلًا عنها:

_ما دمتُ أحملكِ، فلن يسقط عليكِ شيء.

رفع أنكالاجون مخلبه السّاطي ليوجه ضربة الفناء الأخيرة، وفي تلك اللّحظة الحرجة تحديدًا... تبدّلت هيئةُ السّماء، وسكتت أنفاسُ الرّيح، ثم دوى رعدٌ يفتت الصّخور، وانفتحت الغيومُ عن آخرها.

انهمر المطرُ بغزارة، لكنّه لم يكن ماءً يروي، بل كان مطرًا من دم، قطراتٌ قانئةٌ تهطلُ على أرض الجنان، بينما تشكّل فوق السّاحة ضبابٌ أسودُ كثيف يبتلع الرّؤية.

رفع الجميعُ رؤوسهم بذهول، ثم هبط المخلبُ الأسود، وفجأةً... انفجرت الأرض!

تناثرت أشلاءُ أنكالاجون في بلاط المعركة، وتفتّت جسده الهائل إلى أجزاء صغيرة تناثرت في السّاحة كبذورٍ سوداء خبيثة لفظتها أرضٌ طاهرة لا تريد إنباتها.

ساد صمتٌ رهيب، صمتٌ لم يقطعه إلّا صوتُ هطول المطر الأحمر.

ثمّ... دوى صوتٌ مهيب يجلجل في الأفق:

_كان عليَّ فعلها من البداية.

التفت الجميعُ، كان سنفاير واقفًا في الهالة، يرفع رأسه ببطءٍ ووقار.

حدّقوا فيه غير مستوعبين لما جرى، فقال عيّار من مكانه الملقى على الأرض:

_أرجوكم أخبروني أنّني لا أرى تّنينًا طيّبًا بعد أن أذاقوني الموت عدّة مرّات!

تقدم سنفاير خطوةً رزينة وقال: _لقد غيّرتموني.

نظرت إليه شمسُ وعيناها تتساءلان: _ماذا؟

أجابها والنّبرة تخلو من كبريائها القديم: _أنتِ يا شمس.

ثم انخفض صوته كمن يبث سرًّا:

_لقد قدّمتِ قربانًا في عالم الماروم، أعطيتِهم قلبًا أسود يضخّ الشرّ والطّغيان، وطالبتِهم بعوضٍ عنه قلبًا طاهرًا نقيًّا.

سكت لحظة، ثم أطرق رأسه خجلًا من ماضيه:

_قلب سنفاير... إنّه قلبي.

ثم رفع عينيه المليئتين بالأسى إليها: _أتذكرين؟

لم تجبه شمس، فتابع بصوتٍ ينبض بالحياة: _تحقّق مناكِ.

وضع كفّه الضخمة على موضع صدره:

_وها أنا أختبر للمرّة الأولى شعور أن أكون تنّينًا يحبّ الخير، ويؤازر أهله، ويحارب الظّلم.

ارتعشت عيناه المتوهّجتان، وتجمّعت دموعٌ ناصعةٌ على حافّة جفنه:

_لم أعرف يومًا كيف يكون القلب حين لا يطلب الدّماء... حتّى هذه اللحظة.

ثمّ نظر إلى جسد أنكالاجون المتناثر في أرجاء السّاحة، وسقط الصّمتُ الثّقيلُ مرّةً أخرى.

قال سنفاير بنبرة رجاء: _أتمنّى أن تغفروا لي.

لم تجبه قدر، فقد كانت لا تزال غارقةً بين ذراعي حيزوم النّازفتين، تنظر إلى وجهه عاجزةً عن استيعاب حجم الفاجعة.

أمّا شمس، فاقتربت منه بخطواتٍ موزونة وحدّقت طويلًا في جوهر عينيه، ثم قالت: _لم أقدّم قلبك لتصبح طيّبًا.

أجاب بوعي: _أعلم.

_قدّمته لأعيد ابنتي.

خفض رأسه بوقار: _وقد أعادني أنا أيضًا.

ثم نظر نحو قدر المكلومة: _وربّما كان ذلك هو الثّمن الّذي لم أفهمه.

ارتجفت أنفاس شمس، وللمرّة الأولى لم تر أمامها الوحش الّذي جالدته، بل رأت الكائن الّذي اختبأ خلف ظلمات الشّرّ طويلًا ثم خرج إلى النّور أخيرًا، وفي تلك اللّحظة الفاصلة، كان واضحًا للجميع أنّ أنكالاجون لم يكن الفصلَ الأخير في هذه الحرب، بل إن سقوطه فتح بابًا للخير.

انقشعت غاشية الملحم الدّامية عن أجسادٍ مزّقها الكلال، فتقدّم "سنفاير" _التّنّينُ الّذي طُهِّر قلبه بقربانِ عالم الماروم_ ليمدّ يد العون للرّفاق بعد أن دكّ أشلاء أنكالاجون.

وحمل على عاتقيه الصّديقين المصابين، "حيزوم" الّذي اخترقت مخالب الشّرّ صدره ليفتدي محبوبته، و"عيّار" الّذي أوهنته ضربات الوحوش ونجا من براثن المنيّة بأعجوبة.

وفي تلك الأثناء، كانت شمس تطوّق قدر بذراعيها الواهنتين، وتتعاونان بخطىً كليلة على إكمال الطّريق سيرًا على الأقدام، إذ نَضَبَ رحيقُ القوّة في أجساد الجميع، وغدت الأجنحةُ عاجزةً عن ركوب المتون، بينما كانت "غسق" _الغيمُ المتجسدُ شجنًا_ تتهادى فوق رؤوسهم كسرادق من كآبة، تظلّلُ انكسارَهم بخيوطِ الظّلامِ الدّامي.

«في بعض الأحيان، تمنحكَ الحياةُ أجنحةً في
فضاءٍ لا تملكُ فيه القدرةَ على التَّحليق»

عادوا إلى رحاب القصر، يتقدّمهم جثمان الأب عمّار محفوفًا بمهابة الملائكة المجنّدة الّتي تحمله إعزازًا وتكريمًا لروحه الّتي قضت تحت أقدام الطّغيان.

وبينما كانت الجراحُ تُضمّد في أجساد الفرسان الباقين، انزوت شمس وقدر لتهيئة "عمّار" لمرقده الأخير، يغسلان بالدّمع والماء طُهر جسده والذّكرياتُ تقرعُ صدورهما قبل أن يواريه التّراب.

وما إن انتهت مراسم الدّفن وانفضّ الجَمع، حتى عاد الثّكالى يجرّون أذيال الفقد، يغمرهم صمتٌ موحش لا تكسره سوى زفرات الحنين المكتومة، وكأنّ الأرض كفّت عن الدوران حزنًا عل الرّاحل الذي انطفأت جوهرتُه الخضراءُ بموته.

في تلك الأثناء، مَضت قدر بخطىً مجهدة حتّى جلست على حافّة الجبل، تترصّد الأفق عيناها الباكيتان.

لم يتركها حيزوم وحيدة، بل تبع أثرها وهو يئنّ تحت وطأة الطّعنة، يلتقط أنفاسه بصعوبة بالغة من فرط التّعب والألم، جلس بالقرب منها، يحرسها بنظراته المشوبة بالخوف، خشية أن يدفعها اليأسُ أو فظاعةُ المأساة إلى إيذاء نفسها.

قرأت قدر الهلعَ المستتر في عينيه، فالتفتت إليه وأجابته بنبرةٍ غلّفها الأسى الصارم: _لا تقلق يا حيزوم، لستُ بتلك السّذاجة الّتي تدفعني لألقي بنفسي من شاهق هذا الجبل... لو فعلتُ، لحُرِمتُ لِقاء من أحبّ في الجنان، ولكانت سقَر مصيري والمستقرّ.

كان حيزوم يصغي إليها بقلبه قبل أذنيه، بينما يداه المرتعشتان تعبثان في حنوٍّ غائب بتلك الضّفائر المقطوعة المضمخة بالدّماء التي التقطها من ساحة المعركة؛ الضّفائر الّتي لم تفارقه قط، ويفوح منها رغم رماد الحرب رحيقُ الياسمين العبق.

أشاحت "قدر" بنظرها عنه، والدّمعةُ حائرة مسترخية على أطراف رمشها، تقاوم السّقوط، ثمّ همست كمن يناجي طيفًا:

_كم تمنّيت لو أنّ مدية الموت ذبحتني عوضًا عنهم، للمرّة الأولى، أختبر ذلك الشّعور، شعور فتاةٍ يُضحّى بروحها، كيف استطاعت النّجاة في تلك اللّيلة الظلماء؟

نظر إليها حيزوم بدهشةٍ امتزجت بالوجع البليغ وقال متعجبًا:

_عمّن تتحدّثين يا قدر؟

أجابت وعيناها ترنوان إلى المدى البعيد، حيث تلاشت جحافل الظّلام:

_عن فتاةٍ خطّت روايةً عن مأساتها، فكانت كالشّمسِ تُوءَد، وكالنّور ينشز ويتهاوى...

تحدّثت فيها عن غصّةٍ تجرّعتها بسبب والدها، يوم أن قصّ شعرها الطويل نكايةً في براءتها، وانتقامًا من طهرها.

منذ قرأت كلماتها، وظللت عامًا كاملًا، كلما مررت بالمشط في خصال شعري، تراءى لي انكسارها، فبكيت عليها بدل الدّموع دمًا.

ثم التفتت إليه، وقد تفجّر بركان الحقيقة الفاجعة في صدرها المثقل بالأسرار: _أتعلم يا حيزوم؟

لطالما حملت في صدري كرهًا عظيمًا للآباء، وكنت أحمد الله بكرةً وأصيلًا لأنّني نشأت بلا أب، لكنّني اليوم، واليوم فقط، بعد أن انقشع غبار الصّراع، استبنت الحقيقة المرّة، اكتشفت أنّ عمّار، ذلك الجدّ الّذي كان يرعاني ويحوطني بعطفه ويقودنا في المعركة، هو أبي حقًا، وليس جدّي!

كيف لي أن أغفر له هذا الحرمان الّذي طوّق به عمري؟

من منحه الحقّ ليتّخذ القرارات نيابةً عنّي، ويحجب عنّي هويّتي طوال هذا المدى؟

انظر إليه الآن، لقد رحل وتوسّد التّراب قبل أن تنطق شفتي بكلمة (أبي)...

مات قبل أن أجرّب شعور أن يكون لي والدٌ يشدّ أزري، ويقف كالجبل الأشمّ في ظهري، يحميني من غوائل الزّمن والتّنانين.

ثمّ همست بنبرةٍ امتزج فيها التّهكّم بالمرارة:

_أتراهم يظنّونني سأكفكفُ دمعي لمجرّد أنَّ العالمَ بأسره بات ممدودًا أمامي، بينما غابَ والدي الّذي كان يُشكّل لي ذلك العالم؟

واهًا لهم!

حتمًا سأبكي.. فما نفعُ المدى الفسيح إنْ خَلا من خُطاه؟

وما قيمةُ الوجودِ إن غاب عنه مَن كان يوجدهُ في نفسي؟

التفتتْ نحو حيزوم وعيناها تعتذران عن دماء ظهره:

_أعتذر على ما حلَّ بكم بسببي، مذ وطئت قدمي رِحابكم، لم تذق أجفانُكم طعمَ الطّمأنينة، ولا عرفت عيونُكم سبيلًا للرّاحة.

ليت الفضول في تلك اللّيلة الغابرة لم يفتح لي بوّابات هذا العناء، ولم يدفعني لولوج هذا الدّرب.. ولكن، أتعلم يا حيزوم؟

لو عاد بي قطارُ العمرِ إلى الوراء، وعدت أقفُ على العتبةِ ذاتها، لولجتُ عالمَ الجنانِ مرّةً بعد مرّة، ولَمَا تردّدتُ ثانيةً واحدة، فلستُ نادمةً على ما كان، لكنّني... لكنّني أتألّمُ لحدّ الانكسار.

سكتت برهةً وهي تترفّق بدموعه المترقرقة، ثمّ تابعت:

_لقد ألفت الجراح مذ كنت غرسةً غضّة، واعتدت أن ينال النَّصل من حشاشتي طوال عمري، غير أنَّ ما يفتك بي الآن ويهدّ أركاني هو جرحك أنت، لم أعتد يومًا أن يسفك دمُ الآخرين نيابةً عني، ولا أن يُضامَ من أحبّ بسببي!

لقد روّضتُ نفسي على تجرُّع الوحدة في عالمٍ يقصّ آفاقي بانتظام، ويقلّم أجنحة أحلامي بصلف...

لكنّ الّذي قتلني بحقّ، كان ذلك الوعد الحاني الذي قطعه لي عمّار، ظننته الحصن الّذي سيعوّضني عن سنوات الحرمان العجاف، وذهلت عن أنَّ بعض الظنِّ إثمٌ ناقع ووجع مقيم.

أطرقت رأسها، والدّمعةُ تقطرُ على كفّها:

_ربّما كنتُ طفلةً متعطّشةً لأريجِ الحبّ، فجعلتني تلك الفاقة ألوم الكلَّ وأعتب على الوجود، ونسيت في زحمة العتب أن أحبّ نفسي أوّلًا!

لقد ظلمتُها معي، وسقتُها إلى مسالخ الشّجن، وهذا لعمر الحقّ صنع يدي.

ثمّ رفعت وجهها الشّاحب كالقمر المنخسف:

_ولكنّني، بالرّغم من كلّ شيء، تمنّيت قبسًا من اهتمامٍ ممّن وهبتهم سويداء قلبي.

حين يراني من حولي، يفزعون لمرأى ذلك السّواد الدّاكن الذي يرتسم كشظايا اللّيل أسفل عيني، ويهتفون بي بملامسةِ العتاب:

"كفّي عن السّهر، فقد أذبلتِ نضارةَ محياكِ"...

لكن، لم يسألني أحدٌ منهم قَطّ: لمَ تسهرين؟

ما الّذي يذودُ بالنّوم عن جفونكِ ويركل الكرى؟

ما علّةُ هذا الأرق العاتي الذي ينهش ليلكِ؟

تحامل "حيزوم" على أنينه، ونظر إلى المقلتين اللّتين غرقتا في لجّة الأسى، وقال بنبرةٍ دافئةٍ تخشعُ لها الجراح:

_قدر... هل لي أن أحمل هذا العبء عنكِ؟

هل يمكنني فعلُ ذلك؟

نظرت إليه بدهشةٍ واهنة: _فعلُ ماذا يا حيزوم؟

أجابها وقلبه ينبض قبل شفتيه: _أن أسألكِ أنا...

عن سِرِّ هذا الإرهاق الّذي يتوسّدُ الشّمسين المستكنتينِ في مقتليكِ؟

انفرجت شفتاها عن غصّةٍ قديمة، وقالت بصوتٍ يتهدّج:

_لا أدري متى استبدَّ بي هذا البلاء تحديدًا، ربّما في ربيعي الخامس عشر، حين صدمتني الحقيقةُ الفاجعة بأنّني سأقضي العمرِ يتيمةً بلا أُم.

عندئذٍ، بدأتِ الأفكارُ تتناسلُ في رأسي بغزارةٍ مرعبة، واستحالتِ الظّنون وحوشًا تنهشُ خلايا عقلي دون توقفٍ أو هوادة.

في وهج النّهار، كنت أفرُّ فرار الطّريدة من نظراتِ الشّفقة الّتي يرمقني بها من حولي، كان الأصدقاءُ والمدرسةُ والأقاربُ والجيرانُ يتهامسون خلف ظهري كالأفاعي: "يا للحسرة.. فتاةٌ بلا عائلة، كيف سيتسنّى لها النّجاحُ والعبور، وهي وحيدةٌ فريدةٌ في هذا الكون الواسع الشّاسع؟"

وغفلوا في غمرةِ إشفاقِهم الباطلِ عن أنَّ ربَّ هذا الكونِ معي، يحوطني بعينه الّتي لا تنام.

ثم زفرت زفرةً كادت تُشعل الغسق:

_لقد تعبتُ... تعبت حدَّ الموت من تلك الأنظارِ الموشّحةِ بالدّونيّة صوبي، ومن الأفكار السّامّة الّتي تقذفُها ثعابينُ الحياةِ في جوف روحي الطّاهرة.

لذا... لجأتُ إلى اللّيل السّتّار، ليُدثّرَ بعباءته السّوداء خوفي، ووحدتي، وحزني المكتوم، ودموعي الحارقة...

تلك الدّموعُ التي كانت تهطل كالحميم فتحرقُ ورود أجفاني، وتذبل أزاهير الحياة الّتي استوطنت محياي يومًا.

وتابعت، والأسى يبلغُ ذروته:

_كنت أتقلّب على جمرِ السّهر بالسّاعات الطّوال، فيأتي النّهار حاملًا معه تغاريد البلابل الشّجيّة، وبرفقته الشّمسُ تتبختر في خدرها، أمّا أنا... فينطوي عنّي اللّيل ويسلّمني للضّياء وحيدةً مكسورة، فأعودُ لأحارب هجير النّهار وسياط البشر وحدي أيضًا!

لقد بلغتُ مرحلةً من الشَّقاء صرت أهرب فيها من أفكاري ذاتها، فإن أغمضتُ جفني مستسلمةً، تسارعت وحوش الوجع لتفترس مخيّلتي، فأظلُّ أُلهي نفسي بالسّهر رغمًا عني، حتّى يكاد يغشَى عليَّ من فرط التّعب والكلل.

لم أنم يومًا بإرادتي، ولم أختبر شعور النّور والسّكينة باختياري قَطّ، ولو كان لديّ سبيلٌ للهرب من هذا الظّلم المقيم، لتمنّيت من ربّ السّماء أمنيةً واحدة: أن أنامَ بسهولةٍ وعفويّة... دون عناء.

في تلك اللّحظة الّتي تلاقت فيها الدّموع بالدّموع، تسلّح حيزوم بكل ما بقي في جوارحه من كبرياء وقوّة، ليعرض على قدر أثمن ما يملك:

أن يتزوّجها، وتتّخذ من عالمه وطنًا ومستقرًا لأيامها.

ولكي لا يضع كبرياء فروسيّته تحت احتمال الرّفض الّذي قد يُجهِز على قلبه المكلوم، آثر أن يمهد للدّرب بأسئلةٍ يستنطق بها خبايا روحها، فبدأ بطرح سؤاله الأوّل بنبرةٍ وادعة: _أخبريني يا قدر...

ما هي أكبر أمنياتكِ في هذا الوجود؟

أشاحت بنظرها نحو المدى البعيد وقالت:

_لا أملك في جعبتي أمنياتٍ دنيوية فانية، ولكنّني عندما ألقى وجه ربّي الكريم، سأتمنّى أمنيةً واحدة.. سأرجوه بأن يجعلني ابنةً للرّسول ﷺ.

لاحظ حيزوم ارتعاشة جفنيها، فسألها متهيّبًا: _لمَ تبكين كلما ذكرتِه؟

أجابت والدّمعُ يسبق الحرف:

_لا أدري... كلّما استشعرتُ عظمة الفكرة تملّكتني عبرةٌ تجمع بين شدّة الفرح وعمق الحسرة، فتخيّل... تخيّل لو كان ذلك النبيّ الحبيب والدي؟!

النبيّ الرّؤوف الّذي دثّر طفلًا يتيمًا بعباءته الحانية، النّبيّ الّذي بكى رحمةً بأمّته، وذرف الدّمع شوقًا لِمن لم يروه.

تخيّل أن يكون هذا النّبيّ العظيم، ذو الخلق الكريم، والدي أنا!

حينها فقط سأتخلى عن كرهي العتيق للآباء، وسأكون فخورةً متباهيةً بأنّني أملك أبًا يقف كالملكوت في ظهري... كسيّدنا محمّد.

أثّرت كلماتها في قلبه، فمدّ يده اليسرى برفقٍ يقطر حنانًا، ومرّر ظهر كفّه على خدّها الشّاحب، وأزاح خصلات شعرها القصيرة الّتي قصتها مخالب العدو وراحت الرياح تداعبها، فوَضع الخصلات الهاربة وراء أذنها، ومسح بأنامله آثار دمعها الباكي، ثم سألها مستزيدًا:

_وما هو أكثر شيءٍ يسكبُ السّعادة في قلبكِ؟

انفرجت شفتاها عن ابتسامةٍ حالمة:

_رؤية عائلةٍ يسكنها الاستقرار والوئام، والرّقص تحت وابل المطر لساعاتٍ طوال دون مبالاة، والتجوّل في غسق اللّيل ممسكةً بيد مَن أحبّ، وأن يخفق قلبي خفقةً تزلزله وأنا أنظر بحضن عينيّ من استوطن روحي.

الحبّ يا حيزوم... الحبّ وحده هو ما يجعلني سعيدة، ولكن أسفي على زمننا هذا، فقد أصبح الحبّ فيه ملوّثًا، شُوِّهت معانيه الطّاهرة، وتجرّد من أصالته الأولى، فهيهات أن تجد ذلك الحبّ النّقيّ الّذي خلقه الله في القلوب غضًّا دون شوائب الباخرين.

أومأ برأسه موافقًا ثم قال:

_حسنًا، وما أكثر ما يوقد غضبكِ ويثير سخطكِ؟

أجابت دون تردد: _الظّلم، والأنانيّة المقيتة، والاضطهاد الّذي يئد البراءة.

_وما هي أكثر الروائح التي تأنس بها نفسكِ؟

_أعشق رائحة الأرض النّديّة حين يغسلها المطر، وأحبّ أريج الياسمين والتّوليب...

صمتت برهة، وكأنّ شريطًا من الكلمات العذبة قد مرّت بذاكرتها، ثمّ ابتسمت بخجلٍ وأردفت:

_تذكّرت عبارةً قرأتُها يومًا لكاتبٍ لم يغادرني حرفه، تقول:

"ورائحة الشّوق عند اللّقاء كرائحة الأرض بعد المطر، لأنّ حياة الثّرى بعض ماء، وتحيا القلوب ببعض البشر".

ثمّ تنهّدت وعادت بملامحها إلى الواقع وقد تورّدت وجنتاها:

وقد تجد في نفسي نوعًا من الغرابة، لكنّني أحبّ رائحة الصّناديق الكرتونيّة المحروقة! وأحبّ.. أحبّ.. أأ...

تنبّه حيزوم لتردّدها فسألها مبتسمًا: _ما بكِ تتلعثمين وتكتمين حرفكِ؟

قالت باضطراب: _لا تهتمّ... لا شيء يستحقّ الذّكر.

بينما تراجعت في سرّها وعقلها يناجي طيفه كي لا يسمع نبضها:

وأحبّ... رائحتك أنت الّتي تفوق الياسمين.

حينها، جمع حيزوم شتات شجاعته وتجرّأ على طرح السّؤال الأهمّ الّذي يحدّد مصيره معها: _وكيف تودين أن يكون رجلُ أحلامكِ وفارسُ غدكِ؟

ضحكت قدر بعفويةٍ طفوليّة بدّدت بعض حزنها وقالت:

_أتمنّى أن يأتيني على صهوة فرسٍ أسود أدهم.

فقال حيزوم مسرعًا، والنّبض يقفز من بين ضلوعه:

_وما رأيكِ لو كان الفرسُ والرّجلُ كلاهما معًا في شخصٍ واحد؟

في تلك اللّحظة، خانها ذكاؤها المعهود وذهل عقلُها عن مقصده الرّمزي اللّطيف، فقد نسيت في غمرة شجنها أنّه خيلٌ في أصله، يتحوّل إلى رجلٍ متى أراد، ويملك أجنحةً تحلّق في عنان السماء.

فنظرت إليه ببراءة وقالت:

_رجل أحلامي لا يملك معايير ماديّة يا حيزوم؛ إن أتاني طائرًا في الهواء، أو راكبًا على متن فرس، أو حتّى سعيًا على الأقدام مصابًا...

إنّما أبتغيه رجلًا يصبّ الوداد في فيافي روحي صبًّا، ويكون حنوّه كالغيث الدّافئ إن هما.

أريده غامر الرّأفة، شفيقًا بي، يخاف عليّ من لافح النّسمة، ويحوطني بقلبٍ رقيقٍ كفؤاد الطّير في طهره ونقائه، قلب يفيض عطفًا مفرطًا حتّى أشعر بجواره كأنّني أتهادى فوق سحابةٍ بيضاء غسلتها يد السّماء.

ما يهمّني حقًّا، وما يطلبه فؤادي، أن يحبّني كحبّ الرّسول لأمّنا خديجة، حبًّا يكتفي بي، ويقيني غوائل العناء.

وفجأةً... انقضَّ عيّار عليهما من بين الصخور، واضعًا يده على صدره بافتعال، وشخص ببصره نحو السّماء هاتفًا بصوتٍ جهوريّ:

_يا ربَّ السّماواتِ والأرض!

ما هذه الخيانةُ النّكراء الّتي أراها رأي العين؟!

أنسيتموني لمجرّد أنّني مِتُّ بضعة أشهر واحتجبتُ عن الوعي؟

أتشرعون الآن في سكب العبرات والتّسامر بدوني؟

ليت المنيّة اخترمتني قبل أن أرى هذا الهجران!

التفت إليه حيزوم وهو يتحامل على نزف ظهره، ورمقه بنظرةٍ متهكمة وهو يقول:

_كفاكَ دراما مبتذلةً يا عيّار، واجلس بالقرب منا صامتًا... فبفضل هذا الدّخول الأخرق، أجهضتَ آخر آمالي، وقصصتَ خيطَ الحديث الّذي كاد يبلغ مأربه.

جلس عيار القرفصاء مطرقًا رأسه بافتعال الأسى:

_لقد أحزنتني يا صاحبي، وأحرقت عذوبةَ عتابي!

ولكن... انظر إلى الجانب المشرق من الوجود، انظر وتأمّل سحائب الفرج، فستجد أنّ خلف هذا الدّمار بقلاوةً شهية، وصدر كنافةٍ يقطر عسلًا، والكثير الكثير من الملوخيّة الّتي تنسي الفؤاد مواجع التّنانين!

نظرت قدر إليه بذهولٍ تعلوه الدّهشة والتّعجب، وقالت بنبرةٍ مستنكرة:

_أفي هذا الوقت العصيب تفكر في مستلذّات الطّعام يا عيّار؟

ونحن لم نكد نخرج من أشداق الموت وضيق اللّحود إلا للتوّ، ولدينا فقيدٌ عظيم نهش رحيلُه حشاشتنا؟

رفع عيّار يديه محتجًّا وقال: _وماذا عساي أن أفعل يا أختاه؟

أأقتل نفسي جوعًا ونحيبًا لأنّ الحرب قد فشلت في طمس أنفاسي؟ بحقّ الله يا رفاق، ألا يكفي أنّنا نجونا من مخالب أنكالاجون بأعجوبةٍ إلهيّة، حتّى نأتي الآن لنعذّب أنفسنا بسياط الجوع المقيت؟

ثم استقامت نبرته فجأة، وغلّفت ملامحه جلال السّكينة والوقار، ونظر إلى قدر قائلًا:

_لا تيئسا.. فالله جلّ وعلا لم ينتشلنا من ذلك المستنقع الدّامي إلا لحكمةٍ بالغة، ولم يطوِ صَحيفةَ الأب عمّار ويأخذه إلى جواره إلّا لحكمةٍ تضيق عن فهمها العقول.

أنا أعلمكِ فتاةً لبيبةً حكيمة يا قدر، تؤمنين بأقدار الله وتستسلمين لمقاديره، فلا تعترضي على قضائه، فذاك مصيرنا المكتوب، ومساقنا الّذي سنمضي إليه جميعًا بالتّدريج... وميعادنا الحقيقيّ هناك... في الجنّة.

ما إن أنهى كلماته، أجهشت قدر بالبكاء، وتفجّرت عبراتها بغزارة، وبينما كانت الكلمات الرّوحيّة تُعطر الأثير، كانت غسق تقف خلف انحناءة النّهر القريب، تسترق السّمع إلى حديثهم الشجيّ، فتهادت نحوهم بخطىً وادعة كطيفٍ غيميّ، وقالت بنبرةٍ تقطر حكمةً وبلاغة:

_اصدقوا الرّأي يا رفاق، فالانتصارات العظيمة لا تولد إلّا من رحم الهزائم، والسّعادة لا تتجلّى للعين إلّا بعد تجرّع غصص الحزن المدلهم، والحبّ الطّاهر لا يأتي ناصعًا إلّا بعد اختبار لوعة الخيانة، والحصاد الوفير لا يمتدّ في المدى إلّا بعد زرع الثّمار وسقاية الغرس بالدّم والمشقّة، والفرج القريب لا يأتي إلّا بعد استيفاء الصّبر جميلًا، والنّجاح السّاحق لا يثبّت أركانه إلا بعد عثرات الفشل المرير...

تمامًا كالأرض الميتة الجدباء، لا تهتزّ خضرةً ولا تزهر أزاهيرها، إلا عندما تبكي السّماءُ مطرًا هتونًا.

ثمّ التفتت إلى قدر ومسحت على كتفها برفق:

_والجنّةُ الّتي تشتاقين لِلقاء أبيكِ والنّبيّ فيها، لا تأتي بالمُنى والآمال؛ بل بالعمل الصّالح والجهاد في مدافعة الظّلم.

وأرجو الله من لطفه وكرمه، أن يجمع شتاتنا معًا تحت ظلال عرشه، كما قدَّر لنا اللّقاء الفارق في دنيانا هذه، وكتب لنا النّجاة من جوف الملحمة.

"أفول المهاد الأوّل"

كان اللّيل، في ذلك اليوم الفاجع، زمهريرًا يتسلّل إلى الأجساد كأنفاس الموت، وينفذ إلى العظام كأنّما يتعمّد أن ينتزع من كلّ روح آخر ما تبقّى فيها من دفء، وكانت السّاعات تمضي مثقلةً بصمتٍ مريب، صمتٍ يُخيَّل إلى المرء أنّ وراءه مصيبةً تحبس أنفاسها، وتتحيّن اللّحظة الّتي تهوي فيها على القلوب بلا رحمة.

طرقت قدر باب غرفة والدتها شمس، وانتظرت... لم يأتها جواب.
أعادت الطّرق، ثم أعادته مرّةً ثانية فثالثة، وقد أخذ القلق يتسلّل إلى صدرها خيطًا خيطًا، حتّى أحكم قبضته على أنفاسها.
وحين طال الصّمت، امتدّت يدها المرتجفة إلى مقبض الباب، وأدارته ببطء، ثم دلفت إلى الدّاخل، تجول بناظريها في أرجاء الغرفة، وتفتّش عن أمّها بين زواياها، كأنّ عينيها تأبيان تصديق أنّ الصّمت قد يكون أحيانًا أبلغ من كلّ نداء.

ثمّ رأتها...

كانت شمس تتلوّى فوق فراشها، يتلوّى جسدها معه كغصنٍ تحاصره الرّيح العاتية، فيما كان دمها الأرجوانيّ ينساب على الملاءة، ويصبغ بياضها بلونٍ يشبه شفقًا أخيرًا ينزف من قلب السّماء.

أمّا حرارة الغرفة، فقد بلغت خمسًا وأربعين درجة مئويّة، لهبٌ يخنق الأنفاس، ويجعل الهواء نفسه عبئًا على الصّدور، حتى ليخيّل إلى المرء أنّ الجدران قد استحالت أفرانًا موصدة.

ومع ذلك، لم يكن أكثر ما في الغرفة إثارةً للفزع تلك الحرارة الخانقة، بل ذلك البرد الّذي كان يزحف من جسد شمس، متسلّلًا إلى المكان على نحوٍ يناقض كلّ منطق، كأنّ الموت قد بدأ ينتزع منها الحياة، ويترك حولها نقيضها.

أليست خمسٌ وأربعون درجةً من جعبة الحرارة تكفي لإحراق الأنفاس؟

بلى، ولكن، ما كانت قدر على وشك أن تراه سيفوق في قسوته كلّ ما قد تفعله النّار بالجسد.

اندفعت نحو والدتها، وقد أفزعها المشهد حتّى غابت عنها الأرض تحت قدميها.

لم تنتبه إلى الكرسيّ القابع في طريقها، فاصطدمت به ركبتها بعنف، وانجرحت قدمها، فغرس الألم أنيابه في جسدها.

غير أنّها لم تكترث، لم تلتفت إلى جرحها، ولم تمنح وجعها فرصةً ليُسمَع، فقد كان ثمّة وجعٌ آخر يستغيث في أعماقها، وجعٌ لو انشقّ له الصدر لخرج منه قلبها محترقًا.

بلغت الفراش، وجلست إلى جوار أمّها، ثمّ رفعت كفّيها المرتجفتين وأحاطت بهما وجه شمس...

كان باردًا، باردًا على نحوٍ لا يليق بوجهٍ طالما كان ملاذها من قسوة العالم، ولا بملامح اعتادت أن تجد فيها دفء الأمان كلّما أطبق الخوف على روحها، كان برده غريبًا، موحشًا، كأنّ الحياة قد غادرت ذلك الوجه على عجل، ونسيت خلفها ملامح أمٍّ لم تُخلق في قلب ابنتها لتكون ذكرى.

تسمّرت قدر لحظةً، عاجزةً عن استيعاب ما تلمسه يداها، ثمّ سارعت إلى نزع سترتها، وبسطتها فوق جسد والدتها، تحاول أن تمنحها شيئًا من دفئها، وكأنّ قطعةً من ثيابها تستطيع أن تردّ إلى أمّها ما كان ينسحب منها في صمت.

ثم انفجرت صرختها، صرخةٌ مذبوحةٌ بسيوف العجز، ممزّقة الحوافّ، خرجت من أعماقها كأنّ روحها نفسها قد انفلقت نصفين، فشقّت سكون القصر، وارتجّت لها جدرانه.

لم تكن صرخة استغاثةٍ فحسب؛ كانت احتجاجًا أخيرًا على قسوة القدر، وتوسّلًا إلى لحظةٍ تأبى الرجوع، ونداءً أطلقته ابنةٌ في وجه الموت، علّ أمّها تسمعه من الضّفّة الأخرى، فتعود.

هرع من في القصر إلى الغرفة، تتسابق أقدامهم في الممرّات، وتتعثّر أنفاسهم بالخوف، لكنّ أحدًا منهم لم يكن قادرًا على انتزاع قدر من تلك اللّحظة الّتي أخذت فيها الحياة تتفلّت من بين يديها.

وفي خضمّ ذلك كلّه، تحرّكت شمس، امتدّت يدها الواهنة، وأطبقت على يدي ابنتها، كأنّها تريد أن تستبقيهما بين كفّيها ما استطاعت، وأن تودع فيهما آخر ما بقي من نبضها.

ثم فتحت شفتيها بصعوبة، وجمعت ما تبقّى لها من قوةٍ لتقول بصوتٍ خفيض، تتخلّله الأنفاس المتقطّعة: _لا تبكي، يا قدر...

توقّفت قليلًا، كأنّ الكلمات صارت أثقل من أن تحملها رئتاها، ثمّ تابعت:

_أعدكِ بأنّني سأزوركِ كلّ يوم جمعة في المنام، سأقصّ عليكِ أخبار الآخرة، وأطمئنّ عليكِ، وأخبركِ عنّي... لن تنقطع أخبارنا يا صغيرتي، ولن يكون الفراق آخر ما يجمعنا.

ارتجفت أصابعها حول يدي ابنتها، ومسحت بنظرتها وجهها، نظرةً حاولت أن تحفظ بها كلّ تفصيلٍ فيه، من ملامح الحزن الّتي أخذت تتشكّل إلى العينين اللتين كانتا تتشبّثان بها كما يتشبّث الغريق بآخر خيطٍ من النجاة.

ثم همست، وقد أخذ صوتها يخفت كشمعةٍ استنفدت زيتها:

_وتذكّري، يا توليبتي، أنّ هذه الديار ليست ديارنا، وأنّ دار الحقّ هي الجنة؛ هناك موعد لقائنا، وهناك لا فراق بعد اليوم، ولا مرض، ولا وجع، ولا موت ينتزع الأحبّة من أحضاننا.

فاعملي لها، واعملي من أجلها، واصبري على ما يعتريكِ من ألم الدّنيا، حتّى يجمعنا الله في دار رحمته.

كانت كلماتها الأخيرة أشبه بوصيّةٍ تخيط بها شمس جناحين لقلب ابنتها، لعلّه يستطيع الطّيران حين تُترك روحه وحيدةً في مهبّ الفقد.

ثم سكن صوتها، وخفتت قبضتها، وانسلت آخر أنفاسها من صدرها في هدوءٍ موجع، كما تنسلّ قطرة النّدى عن طرف ورقةٍ عند أوّل شعاعٍ للشّمس، تاركةً خلفها فراغًا لا تملؤه الكلمات، ولا ترمّمه الدموع.

لقد وافتها المنيّة، ورحلت شمس، أمّا قدر، فلم تنبس ببنت شفة، لم تبكِ، لم تصرخ مجدّدًا، لم تُبدِ أيّ ردّة فعل، ظلّت جالسةً إلى جوارها، تحدّق في وجهها، كأنّ عينيها تنتظران أن تتحرّك شفتاها من جديد، أو أن تعود تلك اليد التي احتضنت يديها قبل لحظات فتضغط عليهما ضغطتها الحانية المعتادة، كان عقلها يرفض أن يفتح أبوابه للحقيقة، وكانت روحها تقف على عتبة الفاجعة، عاجزةً عن العبور إلى عالمٍ صارت أمّها فيه ذكرى، كأنّ زمهرير تلك اللّيلة لم يكتفِ بملامسة جسدها، بل مدّ يده إلى قلبها، فانتزع منه آخر جمرةٍ للدّفء، ثمّ جلّده بالصّقيع حتّى تجمّد كلّ ما فيه من إحساس.
لم تكن هادئةً، كان الهدوء قد مات فيها، ولم تكن صامتةً، بل كانت الكلمات قد سقطت من فمها في هوّةٍ لا قرار لها، ولم تكن متماسكةً، إنّما كانت الفاجعة أكبر من أن تسمح لها حتّى بالانهيار.

لقد وقفت روحها مذهولةً أمام جسد أمّها، فيما بقي جسدها في مكانه، كأنّهما افترقا دون أن يملك أيٌّ منهما القدرة على اللّحاق بالآخر.
كان حيزوم يراقبها، وقلبه يتقلّب بين الرّعب والشّفقة، لا يدري أيّهما أشدّ فتكًا به: موت شمس، أم ذلك السّكون الغريب الّذي استولى على قدر، حتّى بدت له كأنّها لم تعد تسمعهم، ولم تعد تراهم، ولم يعد يصل إليها من هذا العالم شيء.

لاحظ ارتعاش شفتيها، ذلك الارتجاف الصّغير الّذي فضح ما عجزت ملامحها الجامدة عن البوح به، ولاحظ أيضًا أنّ فستانها لم يكن كافيًا ليقي جسدها النّحيل من برد اللّيل، ولا سيّما بعدما نزعت سترتها وألقتها على جسد أمّها، كأنّها آثرت أن تمنح شمس آخر ما يدفئها، حتى لو تُركت هي فريسةً للصقيع.

لم يتردّد حيزوم، أسرع نحوها، ونزع معطفه، ثمّ ألبسها إيّاه بحنوّ من يخشى أن يؤذي جناح فراشةٍ أنهكها المطر.
وبعدها ضمّها إلى صدره، وأحاطها بذراعيه، وطوّق جسدها بحبّه، كأنّه يحاول أن يبني حولها جدارًا من الدّفء، يحول بينها وبين بردٍ لم يعد مصدره اللّيل وحده.

أخذ يمسّد كتفها برفقٍ بيده، فيما راحت يده الأخرى تمرّ على رأسها، تتخلّل خصلات شعرها بحركاتٍ وئيدة، وتربّت عليه كما تُربَّت على طفلٍ أرهقه البكاء.

وكان يقرأ على رأسها بصوتٍ خافت، تتكسّر حروفه تحت وطأة حزنه، ويردّد ما تيسّر له من آيات الله، لعلّ السّكينة تجد طريقها إلى قلبها، ولعلّ ما عجزت ذراعاه عن احتضانه من وجعها تستدركه كلمات الرحمن.

لكنّ قدر لم تستجب، ظلّت ساكنةً بين ذراعيه، لا تردّ عناقًا، ولا ترفع رأسًا، ولا تذرف دمعةً واحدة، كانت عيناها مفتوحتين على فراغٍ لا يراه سواها، وجسدها مستندًا إليه دون أن يبدو كأنّه يشعر بوجوده.

بدت كجثّةٍ حيّةٍ أُقيمت على قدميها، ثم تُركت فيها بقيّةٌ ضئيلة من الحياة، لا تكفي للحركة، ولا تمنحها القدرة على السّقوط، كأنّ روحها قد انفصلت عن الواقع الّذي يربطها بمن حولها، ومضت إلى مكانٍ بعيد، تبحث فيه عن أمّها، أو تحاول عبثًا أن تفهم كيف يمكن ليدٍ كانت قبل لحظاتٍ تمسك بيدها أن تصبح عاجزةً عن الإمساك بأيّ شيء.

كان حيزوم يضمّها، وهي لا تشعر، يمسّد شعرها، وهي لا تستجيب، يهمس لها، وهي لا تسمع.

ولم يكن في وسعه أن يفعل أكثر من أن يبقى معها، وأن يجعل من صدره ملاذًا لجسدها المرتجف، حتّى لو عجز عن بلوغ روحها الغارقة في ظلمات الفاجعة.

مرّت دقيقة، ثم ثانية، ثم ثالثة... ثلاث دقائق كاملةً ظلّت فيها قدر معلّقةً بين عالمين، جسدها هنا، في أحضان حيزوم، وروحها هناك، عند وجه أمّها الّذي انطفأ، ويدها الّتي بردت، وكلماتها الأخيرة الّتي أخذت تتردّد في أعماقها كصدى نداءٍ يتلاشى في وادٍ سحيق.

ثم حدث ما لم يستطع جسدها احتماله، تراخت أطرافها فجأةً، وانثنى جسدها بين ذراعي حيزوم، بعدما أصابت الفاجعة آخر حصونها، وأطلقت سهامها في الجهة اليسرى من صدرها، حيث استقرّ قلبٌ أنهكه الفقد حتّى لم يعد قادرًا على حمل المزيد.

شهقت أنفاسها، وانطفأت مقاومتها الواهنة، ثم هوى جسدها فاقدًا للوعي.

_قدر!

خرج اسمها من حيزوم مذعورًا، وهو يشدّ ذراعيه حولها قبل أن تسقط، ثم رفع وجهها الشّاحب بين كفّيه، يتفحّص ملامحها الّتي غاب عنها الوعي، ويترقّب عودةً لا تأتي.

كانت شمس قد رحلت، والآن، غابت قدر أيضًا، وإن بقي جسدها بين ذراعيه.

وفي تلك الغرفة التي ازدحمت بالوجوه المذعورة، لم يبقَ من الدفء ما يكفي لإحياء قلبٍ واحد، فقد انطفأ دفء الأمّ إلى الأبد، وغرقت الابنة في عتمةٍ لم يكن حيزوم يعرف كيف ينتشلها منها.

ضمّها إليه أكثر، وأسند رأسها إلى صدره، فيما راحت عيناه تتنقّلان بين وجهها ووجه شمس، عاجزًا عن تصديق أنّ الموت استطاع، في ليلةٍ واحدة، أن يمدّ يده إلى قلبين كان مستعدًّا لأن يفديهما بروحه.

وخارج الغرفة، ظلّ الليل يمدّ ستائره السوداء على القصر، أمّا في الداخل، فقد كان ثمة قلبٌ ينزف بصمت، وآخر ينتظر أن يستيقظ، وأمٌّ رحلت إلى دار الحقّ، تاركةً خلفها وعدًا أخيرًا: **موعدنا الجنة، يا توليبتي.**

بعد سبع ساعات...

في شرفةٍ معلّقةٍ بين منازل النجوم، حيث تتعانق زرقة السماء مع أطراف اللّيل، وتبدو الكواكب كأنّها مصابيح أُشعلت على عتبات الغيب، مُدّدت شابّةٌ في الثّامنة عشر من عمرها، ينسدل شعرها الأسود حول وجهٍ شاحب، لم تستطع الفاجعة أن تنتزع منه آخر ملامح الطفولة.

لم يتجاوز طولها خمسةً وخمسين بعد المئة سنتيمتر، وكان جسدها الصّغير يبدو وديعًا إلى حدٍّ يوجع القلب، كأنّ الحياة أودعت فيه رهافة فراشة، ثم عرّضته لعواصف لا تقوى عليها الجبال.

غابت عن الوعي منذ سبع ساعات، ومع ذلك ظلّ في وجهها شيءٌ من براءةٍ عنيدة، تأبى الرّحيل، كأنّ الطفلة الّتي سكنت ملامحها لم تُدرك بعد أنّ أمّها قد غادرت هذا العالم، وأنّ البيت الّذي كان يتّسع لحضنٍ واحدٍ آمن قد صار أوسع من أن يحتمل وحدتها، وكان إلى جوارها فتى طويل القامة، مهيب الهيئة، يشبه جوادًا أصيلًا أرهقته المعارك، لكنّه لم يفقد كبرياءه ولا وفاءه، جلس قريبًا منها، يحدّثها بصوتٍ خفيض، ويلقي عليها القصائد تلو القصائد، متوهّمًا أنّ كلماته قد تبلغها في مكانها البعيد، في تلك الهوّة الغامضة التي تفصل الوعي عن غيابه.

كان حيزوم يعلم أنّها لا تجيبه، لكنّه لم يستطع الصمت، فكيف يصمت من امتلأ قلبه بكلامٍ لا يجد سبيلًا إلى حبيبته؟
وكيف يتركها وحيدةً في عتمة اللّاوعي، وهو الّذي أقسم في سرّه ألّا يدعها تواجه عتمةً وحدها ما دام له قلبٌ ينبض؟

كان يتأمّل وجهها بين حينٍ وآخر، ثم يخفض بصره إلى يدها اليسرى المستقرّة بين كفّيه، هناك، فوق بشرتها الرقيقة، استقرّت شامةٌ صغيرة، بدت له كأنّها نقطة حبرٍ أسقطها الليل على صفحةٍ من ضوء، أو نجمةٌ تاهت عن مدارها، فاختارت كفّ قدر سماءً أخيرةً تأوي إليها.

كان مفتونًا بشاماتها، بتلك الّتي تتربّع على أيمن وجهها كأنّها توقيعٌ إلهيّ على لوحةٍ أبدع الله رسمها، وبتلك الّتي تناثرت في أنحاء جسدها بعفويّةٍ آسرة، كأنّ السّماء نثرت نجومها على جلدها، ثم نسيت أن تجمعها حين أشرقت الشمس.

غير أنّ شامة كفّها اليسرى كانت أقربها إلى قلبه، أمسك يدها برفق، كأنّه يخشى أن يوقظها من غيابها أو أن يؤلمها لمجرّد أن لامسها، ثمّ انحنى وقبّل الشّامة قبلةً طويلة، أودعها من الحنان ما عجزت الكلمات عن حمله.

ظلّت يدها ساكنةً بين يديه، فابتسم ابتسامةً شاحبة، ومرّر إبهامه فوق موضع الشامة، ثم همس:

_أتعلمين يا قدر؟ لطالما ظننتُ أنّ النجوم خُلقت لتزيّن السّماء، حتى رأيتُ شاماتك، فعرفتُ أنّ بعضها يختار أجسادًا نحبّها، كي لا تضطرّ قلوبنا إلى رفع أبصارها كلّما اشتاقت إلى السّماء.

وسكت لحظةً، يتأمّل وجهها الّذي لم يمنحه جوابًا، ثم استأنف، وقد انخفض صوته حتى غدا أقرب إلى مناجاةٍ يخشى أن يسمعها سواه:

_هذه الشّامة الصّغيرة... لو تعلمين كم مرّةً حدّثتُها عنكِ، وكم مرّةً تمنّيتُ لو كانت لكِ قدرةٌ على سماعي، لأخبركِ أنّني هنا، وأنّ يدكِ لم تبرح يدي، وأنّني لم أملّ انتظاركِ، ولن أفعل.

ثم قرّب كفّها من شفتيه، وأنشد لها أربعة أبيات، صاغها من ولهه، ومن ذلك الحزن الذي لا يعرف أين يضع قلبه حين تعجز الحبيبة عن سماعه:

أيا شامة، بكفّكِ حين تزهو كأنّكِ جذوةٌ فوق التّرابِ

ويا نفحات رحمنٍ تجلّت تبدّد عن المدى كلّ الضّبابِ

أقبّل راح كفّكِ والقوافي تُذيب الصّبر في قلب المُصابِ

فإن عدتِ، اسألي الشّفتين كم قد أمات النّأيُ ألحانَ الخطابِ

ثمّ سكت، لم يكن في الشّرفة سوى حفيف الرّيح، وأنفاس حيزوم المتعبة، والنّجوم الّتي واصلت دورانها في السّماء كأنّها لا تعرف أنّ قلبًا على الأرض قد توقّف عن عدّ السّاعات، وصار يحصي بدلًا منها رجاءات العودة.

أعاد يدها إلى صدره، ووضعها فوق موضع قلبه، كأنّه يريد أن يهبها من نبضه ما يعينها على الرجوع.

ثم انحنى نحوها، وأزاح خصلةً سوداء استقرّت على جبينها، وقال بصوتٍ خذله الثبات:

_لقد تحدّثتُ إليكِ طويلًا يا توليبتي، ولم تطلبي منّي أن أصمت، ولم تشتكي من رداءة شعري، ولم تسخري من مبالغتي في وصف شامةٍ لا يتجاوز حجمها رأس دبوس.

ارتسمت على شفتيه ابتسامةٌ واهنة، سرعان ما أطفأها الحزن:

_كنتِ ستضحكين الآن، أليس كذلك؟

كنتِ ستقولين إنّني أبالغ، وإنّ الشّامات لا تستحقّ كلّ هذا الغزل، ثم تسحبين يدكِ من يدي لتتظاهري بالغضب... وبعد لحظاتٍ، تعودين وتضعينها في كفّي من جديد.

ابتلع غصّةً حادّة، وأطرق برأسه.

_لكنّكِ لا تفعلين شيئًا من ذلك يا قدر، لا تضحكين، ولا تعاتبينني، ولا تسحبين يدكِ... وأنا لا أعرف كيف أشتاق إليكِ وأنتِ أمامي، ولا كيف أخاف فقدكِ وأنا ما زلتُ أقبض على كفّكِ.

شدّ على يدها برفق، ثم رفعها إلى شفتيه وقبّل الشامة مرّةً أخرى: _عودي إليّ، يا قدر... لا أريد من الدّنيا معجزةً أخرى، ولا نصرًا جديدًا، ولا سماءً تُفتح لي أبوابها، أريد فقط أن تفتحي عينيكِ، وأن تنظري إليّ بتلك النّظرة الّتي تجعلني أنسى أنّني خُلقتُ من صهيلٍ ومعارك، وأنّ في صدري قلبًا لا يعرف كيف يكون قويًّا حين يتعلّق الأمر بكِ.

مال بجبينه إلى يدها، وأغمض عينيه:

_لقد تعبتُ من الحروب، يا حبيبتي، تعبتُ من انتزاعكِ من الموت، ومن الوقوف بينكِ وبين المخاطر، ومن رؤية العالم يجرحكِ ثم يطالبني بأن أكون صلبًا، أريد أن أعيش معكِ أيامًا عاديّة، أيامًا لا ندفن فيها أحدًا، ولا نخشى فيها خبرًا سيئًا، ولا أضطرّ فيها إلى عدّ أنفاسكِ لأطمئنّ إلى أنّكِ ما زلتِ هنا.

توقّف صوته، لكنّه لم يترك يدها، وفي تلك الشّرفة البعيدة عن ضجيج القصر، ظلّ حيزوم يناجي حبيبته الغائبة، ويقبّل شامةً صغيرة على كفّها، كأنّه يوقّع على جلدها وعدًا لا يستطيع الموت محوه:

سأنتظركِ، ولو طال الغياب... فثمّة قلوبٌ لا تتعلّم الرحيل، مهما طال بها الوقوف على عتباته.

فجأةً، أحسّ حيزوم بأصابع قدر النّاعمة تتحرّك بين أصابعه، حركةً واهنةً كارتعاش أوتارٍ سماويّة على لحن المطر، لكنّها كانت كافيةً لتنتشله من هوّة الرعب الّتي ظلّ غارقًا فيها طوال السّاعات السّبع الماضية.

رفع رأسه على عجل، وحدّق في يدها كأنّه يخشى أن تكون قد خدعته أمنيةٌ نسجها طول الانتظار، ثم راح يتأمّل وجهها، فإذا بأهدابها ترتجف، وجفنيها ينفرجان ببطءٍ شديد، كأنّهما بابان أثقلهما الغياب، وأخيرًا أذنا لهما بالانفتاح على العالم من جديد، كانت تستيقظ على مهل، تتلمّس طريق العودة من عتمةٍ لا يعرف أحدٌ كم ابتلعت من روحها.

وفي تلك اللّحظة، دبّت الحياة في حيزوم من جديد، كأنّ روحه التي قضت سبع ساعاتٍ تعادل سنواتٍ في منفى الانتظار قد عادت دفعةً واحدة، وكأنّ قلبه الّذي أوقف نبضه عند غيابها لم يصدّق أنّ الحياة ردّت إليه نبضه أخيرًا.

حدّق في عينيها، وقد انعقدت الكلمات في حلقه، وتزاحمت في صدره مشاعر لم يجد لها اسمًا، أراد أن يضحك، أن يبكي، أن يشكر الله، أن يضمّها إليه حتى يتأكّد أنّها ليست طيفًا عابرًا من أطياف اشتياقه، لكنّه لم يفعل شيئًا من ذلك في البداية، ظلّ يحدّق فيها فحسب، كأنّه يحاول أن يحفظ لحظة عودتها في ذاكرته إلى الأبد.

ثم نهض، ومدّ ذراعه إليها، وأعانها على الاعتدال، حتّى استقرت جالسةً إلى جواره، وما إن رفعت عينيها إليه حتى وجد نفسه غارقًا في دفء نظرتها، يطيل التّأمّل فيها دون أن يشعر، كأنّه نسي كلّ ما حوله، ولم يبقَ في الوجود سوى تلك العينين اللّتين طالما خشي أن يحرمه الموت منهما.

ابتسم ابتسامةً خافتةً، تختلط فيها النجاة بالوجع، وقال:

_طال ظمئي إلى رؤية هاتين الشّمسين، يا قدر، فاعلمي أنّ شمسي الحقيقيّة تأفل كلّما غبتِ عن ناظري، وأنّ النهار، مهما أشرق، لا يكتمل في عينيّ إن لم أُبصر النور المنبعث من عينيكِ.

مدّ يده ومسح برفقٍ على جبينها، كأنّه يتحسّس وجودها، ويتأكّد أنّها عادت إليه حقًّا، وأنّ الموت لم يترك خلفه قناعًا يشبهها فحسب.

لكنّ قدر لم تجبه، ارتجفت شفتاها، وانسابت الدموع من عينيها لؤلؤةً إثر لؤلؤة، تتدحرج على وجنتيها الشّاحبتين، كأنّ روحها الّتي عجزت عن البكاء طوال ساعات الغياب قد وجدت أخيرًا منفذًا تتسرّب منه أوجاعها المتراكمة.

لم تكن دموعها وليدة تلك اللّحظة وحدها، كانت دموع أمّها التي لم تستطع أن تبكيها، ودموع أبيها الذي رحل قبل أن تناديه بكلمة «أبي»، ودموع كلّ من أحبّتهم ثم انتزعهم الموت من بين ذراعيها، كانت تحمل في عينيها مقبرةً كاملةً من الوجوه، وفي صدرها حكاياتٍ لم تجد من الوقت ما يكفي لتودّع أصحابها.

وما إن رأى حيزوم دموعها حتّى فتح ذراعيه لها، وجذبها إليه برفق، وضمّها إلى صدره، كأنّه يريد أن يجمع شتات روحها بين أضلعه، وأن يمنحها من الأمان ما يكفي لترتاح من الرّكض في دروب الفقد.

ثم همس قرب أذنها، بصوتٍ تكسّرت على حوافه رنّة الحنان:

_ابكي يا قدر... ابكي كما تشائين، ولا تحبسي في صدركِ دمعةً واحدة، دعي الحزن يخرج منكِ كما تخرج العاصفة من سماءٍ أثقلتها الغيوم، فلا أحد يملك أن يظلّ صلبًا إلى الأبد، ولا القلب خُلق ليكون مقبرةً صامتةً لأوجاعه.

ابكي، يا توليبتي، وسأبقى هنا، لن أطالبكِ بالتجلّد، ولن أعاتبكِ على ضعفكِ، ولن أطلب منكِ أن تنهضي قبل أن تستردّي أنفاسكِ... يكفيكِ ما حملتِ، ويكفي قلبكِ ما ذاق.

اشتدّ عناقه لها قليلًا، ثمّ أضاف، وقد صار صوته أكثر دفئًا، كأنّه ينسج من كلماته غطاءً يقيها برد العالم:

_ستجدينني حصنًا لكِ حين تنهار فوقكِ جبال الأقدار القاسية، وسورًا تستندين إليه حين تتكاثر عليكِ العواصف، سأكون صديقكِ حين تخذلكِ الوجوه التي ائتمنتِها على قلبكِ، وكتفًا يتعطّش إلى احتضان رأسكِ كلّما أثقلتكِ الحياة.

سأحتويكِ بكلّ جوارحي، وأضمّ شتاتكِ كلّما بعثرتكِ الأيام، وأضمّد جراحكِ جرحًا جرحًا، حتّى تلك الّتي لا تستطيعين الإشارة إليها، ولا تعرفين كيف تشرحين نزفها.

سأحيكِ لكِ من دفء صدري معطفًا تتلفّعين به كلّما باغتكِ برد الوحدة، وأصنع لكِ من أناملي عشر ريشاتٍ ناعمة، أمرّرها على ندوبكِ واحدةً واحدة، حتى لا يبقى جرحٌ فيكِ إلا مسحته بلمسة حنان، ولا يبقى ألمٌ إلا حاولتُ أن أقتسمه معكِ.

وحين تنفد الكلمات، سأطبع على جبينكِ قبلةً دافئة، وأترك لقلبي أن يقول ما عجز لساني عن قوله، فثمّة أوجاعٌ لا يداويها الكلام، وإنّما يخفّف وطأتها أن يجد المرء قلبًا لا يخاف من احتضان انكساره.

سكت لحظةً، ثم أبعدها عنه بمقدارٍ يسير، ليتمكّن من النظر إلى وجهها. رفع يده إلى خدّها، ومسح دموعها بإبهامه، غير أنّ دموعًا أخرى انحدرت مكانها، فابتسم بحزنٍ وهو يتتبّع أثرها.

_يكفي ألّا تستسلمي لليأس، لا أطلب منكِ أن تكوني قويّةً في كلّ حين، ولا أن تتظاهري بأنّكِ بخيرٍ بينما يتداعى العالم في داخلكِ، أريدكِ فقط أن تتمسّكي بخيط الرجاء، ولو لم يبقَ في يديكِ سواه، فأنا...

تعثّر صوته، وكأنّ ما سيقوله أثقل من أن يمرّ عبر حنجرته، ابتلع غصّته، ثمّ تابع، وقد استقرّ في عينيه خوفٌ عارٍ لم يحاول إخفاءه:

_أنا لا أقوى على الحياة دونكِ، يا قدر.

لم أعرف قبل أن أحبّكِ كيف يكون للإنسان روحٌ أخرى تمشي خارج جسده، ولم أفهم كيف يمكن لغياب أحدهم أن يجعل العالم كلّه موحشًا، حتى جرّبتُ غيابكِ.

أنتِ لستِ جزءًا من حياتي فحسب، أنتِ الحياة الّتي صرتُ أعرفها، والوجهة الّتي أعود إليها مهما تاهت بي الدروب، وحين غبتِ، لم أشعر أنّني فقدتُكِ وحدكِ، بل شعرتُ أنّني فقدتُ الطريق إليّ، وأنّ كلّ ما في داخلي قد صار غريبًا عنّي.

لم أجد لنفسي حياةً قبل أن أعرفكِ، ولم أعد أتصوّر حياةً لا تكونين فيها.

كانت كلماته تتساقط بينهما كأوراقٍ أخيرةٍ في خريفٍ طويل، كلّ واحدةٍ منها تحمل اعترافًا، وكلّ اعترافٍ يكشف عن خوفٍ ظلّ يخفيه خلف شجاعته، وعن قلبٍ لم تكن المعارك أشدّ ما أخافه، بل احتمال أن يعود منها كلّها ليجدها غائبةً عنه.

ومع ذلك، لم تتشبّث قدر به كما توقّع، بل أخذت تتراجع عن صدره ببطء، وكأنّ عناقه، على ما فيه من دفءٍ وصدق، قد لامس جرحًا في داخلها لم يكن مستعدًّا بعد لأن يُلمَس، انسحبت من بين ذراعيه برفق، وأبعدت نفسها عنه خطوةً تلو أخرى، فيما بقيت عيناه معلّقتين بها، لا تفهمان ما الّذي تغيّر في اللحظة التي ظنّ فيها أنّ العالم قد عاد إليه.

لم تقل شيئًا، لم تعاتبه، ولم ترفضه، ولم تمنحه حتى نظرةً تفسّر بها انسحابها، كانت الدّموع لا تزال تنساب من مقلتيها، متتابعةً صامتةً، كأنّ عينيها نايًا حزينًا قُطعت أوتاره، فلم يعد قادرًا على عزف لحن الفقد، ولم يبقَ منه سوى أنينه.

ثم استدارت، وغادرت الغرفة على مهل، بخطواتٍ واهنةٍ تحمل من الثّقل ما لا تحتمله قدماها، تاركةً وراءها كلمات حيزوم معلّقةً في الهواء، وذراعيه مفتوحتين على فراغٍ لم يعرف كيف يملؤه.

ظلّ في مكانه، يراقب الباب الّذي ابتلعها، وقد انطفأت الابتسامة الّتي أضاءت وجهه لحظة استيقاظها.

لقد عادت قدر إلى الحياة... لكنّ شيئًا في عينيها أوحى إليه بأنّها ما زالت عالقةً في مكانٍ آخر، مكانٍ لا تصل إليه الذراعان، ولا تفتحه القبلات، ولا تكفيه وعود الحبّ وحدها كي يعود القلب منه سالمًا.

وللمرّة الأولى منذ سبع ساعات، شعر حيزوم بالخوف من شيءٍ لم يستطع أن يراه، ولا أن يقاتله، ولا أن يحميها منه...

فكيف ينقذ قلبًا عاد إليه النبض، بينما ما زالت روح صاحبته تنزف؟

تعثّرت قدر بالجدران وهي تشقّ طريقها إلى حجرتها، كأنّ الأرض الّتي حملتها طوال عمرها قد ضاقت بها أخيرًا، بلغت باب حجرتها، فاندفعت إلى الداخل، ثم أطبقته خلفها وأوصدته بإحكام؛ لم تكن تغلق بابًا فحسب، بل كانت تحاول أن تحجب عن العالم ما عجزت عن ستره في صدرها، وأن تنجو بنفسها من عيونٍ قد ترى دموعها، من دون أن تدرك كم نزف قلبها قبل أن تسقط.

وما إن استقرّ ظهرها على الباب حتى خانتها ساقاها، فهوت إلى الأرض، وانكمشت على نفسها كطائرٍ تكسّرت أجنحته في عاصفة، ولم يعد يملك من السّماء سوى ذكرى التحليق.

وضعت كفّيها على فمها، تحاول أن تحبس بكاءها في صدرها، لم تُرِد أن يسمع أحدٌ انهدامها، ولا أن يشهد أحدٌ كيف تتساقط آخر جدرانها واحدًا تلو الآخر.

غير أنّ الحزن، حين يبلغ من الروح مبلغًا لا تتّسع له، لا يستأذن صاحبته قبل أن ينفجر، بدأ نشيجها خافتًا، متقطّعًا، كأنّه أنين جرحٍ يُفتح للمرة الأولى، ثم أخذ يتعالى شيئًا فشيئًا، حتى غدت شهقاتها تتعثر في حلقها، وتتلاحق أنفاسها كأنّها تركض هاربةً من وجعٍ لا باب له.

بكت على نفسها، على تلك الطّفلة الّتي كبرت وهي تحاول أن تقنع قلبها بأنّ اليُتم لا يعني أن تكون وحيدة، وعلى الفتاة الّتي تعلّمت أن تخفي انكسارها خلف الصّمت، حتّى نسيت كيف تطلب العون حين تعجز عن الوقوف.

كان في صدرها من الكلام ما يكفي لملء ألف كتاب، لكنّها لم تجد بين كلّ تلك الكلمات جملةً واحدة تستطيع أن تشرح لها لماذا يرحل الأحبّة قبل أن نشبع من وجودهم، ولماذا لا ندرك أحيانًا قيمة بعض اللّحظات إلا حين تصبح أبوابًا مؤصدةً في وجه الرجوع.

ما إن رأى حيزوم قدر تختفي خلف باب حجرتها حتّى اندفع نحوها، وقد أفزعه انصرافها الصّامت أكثر مما كان سيفعل أيّ عتاب.

كان يريد أن يلحق بها، أن يطرق بابها، أن يضع قلبه بين يديها إن كان ذلك سيخفّف عنها بعض ما تحمله، ولو اضطرّ إلى الوقوف خلف بابها حتى يطلع الصّباح.

لكنّ غسق اعترضت طريقه، ومدّت ذراعها تمنعه من التقدّم، التفت إليها حيزوم، وفي عينيه رجاءٌ موجع، كأنّه يستجدي منها إذنًا بالدّخول إلى المكان الوحيد الّذي لم يعد يعرف كيف يصل إليه.

قال بصوتٍ خفيض، خنقته العجلة: _دعيني أذهب إليها، يا غسق.

لا أستطيع تركها وحدها وهي على هذه الحال!

نظرت إليه غسق طويلًا، كانت تعرف ما يعتمل في صدره، وتعرف أنّ قلبه يركض نحو قدر أسرع من قدميه، لكنّها كانت تعرف أيضًا أنّ بعض الأبواب لا تُفتح بالقوّة، وأنّ بعض الأرواح تحتاج إلى أن تبكي بعيدًا عن الأيدي التي تحبّها، لا لأنّها لا تأمنها، بل لأنّها تخشى أن تنهار بين ذراعيها فلا تستطيع النّهوض من جديد.

قالت برفقٍ لا يخلو من الحزم:

_أعلم أنّك لا تحتمل رؤيتها هكذا، وأعلم أنّ كلّ ما فيك يريد أن يضمّها إلى صدرك، وأن ينتزع عنها هذا الوجع بيديك إن استطعت، لكنّ قدر، في هذه اللّحظة، لا تحتاج إلى من يسألها عمّا بها، ولا إلى من يطالبها بتفسير دموعها، ولا حتى إلى من يحاول إقناعها بأنّها أقوى من حزنها.

توقّفت قليلًا، ثم تابعت وهي تخفض صوتها:

_إنّها تحتاج إلى حضنٍ يتّسع لانهيارها، ولا يخيفها حجم ما انكسر فيها، إلى صدرٍ يسمح لها بالبكاء من دون أن يطالبها بأن تتوقّف، أو أن تشرح، أو أن تتظاهر بأنّها بخير.

ثم أشاحت بنظرها نحو الباب المغلق، وأضافت بأسى:

_لكنّك أنت تحديدًا، يا حيزوم، قد تزيد وجعها الآن، لا لأنّ وجودك يؤذيها، بل لأنّها تعرف مقدار حبّك لها، ولأنّها لا تملك في هذه اللّحظة قوّةً تكفيها لتواجه ألمها وألمك معًا.

قد ترى في عينيك خوفك عليها، فتشعر أنّ عليها أن تكفّ عن البكاء كي لا تُحزنك أكثر، وهي بالكاد تستطيع أن تتنفّس.

ارتجف فكّ حيزوم، وتعلّقت عيناه بالباب، أراد أن يعترض، أن يقول إنّه لن يطلب منها شيئًا، وإنّه سيكتفي بالجلوس قربها، وإنّه قادرٌ على احتمال دموعها كلّها إن كان ذلك سيُبقيها قريبةً منه، لكنّ غسق سبقته إلى ما يدور في خاطره.

قالت:

_أعرف أنّك تستطيع أن تحتمل حزنها، لكنّ السؤال ليس عمّا تستطيع أنت احتماله، بل عمّا تستطيع هي احتماله الآن.

دعها تستند إلى وحدتها قليلًا، حتى وإن كانت تلك الوحدة قاسية، لا تجعل حبّك لها بابًا آخر تشعر أنّ عليها اجتيازه وهي مكسورة.

ثم وضعت يدها على كتفه، وقالت بنبرةٍ أكثر حنانًا:

_أرجوك، امنحها هذه اللّيلة.

دَعها تبكي حتّى يهدأ الموج في صدرها، وحين يأتي الصّباح، سنكون إلى جوارها، لن نطالبها بالنّهوض سريعًا، ولن نُجبرها على تجاوز ما لا يُتجاوز في يومٍ وليلة، سنؤنس وحشتها، ونذكّرها أنّها، مهما شعرت بالوحدة، ليست متروكةً في هذا العالم.

ظلّ حيزوم صامتًا، ينظر إلى الباب الّذي يفصله عنها، كأنّ المسافة بينهما لم تعد خطواتٍ معدودة، بل عمرًا كاملًا من العجز.

وأخيرًا، أطرق رأسه، وتراجع ببطء، لم يكن انسحابه استسلامًا، بل كان أصعب ما اضطرّ إلى فعله من أجلها:

أن يكبح قلبه عن الرّكض إليها، لأنّ قلبه يحبّها، ولأنّ الحبّ أحيانًا لا يكون في الاقتراب، بل في أن يعرف المرء متى يتراجع خطوةً كي يترك للموجوع فسحةً يلتقط فيها أنفاسه.

وفي تلك اللّيلة، لم يبتعد حيزوم عن بابها إلا بجسده، أمّا روحه، فظلّت جالسةً عند عتبته، تصغي إلى الصّمت حينًا، وإلى نشيجها حينًا آخر، وتتمنّى لو أنّ للألم بابًا يُطرَق، ولو أنّ في وسعها أن تفتح له بابًا آخر ليخرج منه.

مرّت أربعٌ وعشرون ساعة، أربعٌ وعشرون ساعةً بدت لمن انتظر خلف باب قدر أطول من أعوام، ولم تكن خلالها الأصوات وحدها هي الّتي غابت، بل غاب معها ذلك الخيط الرفيع الذي اعتادوا أن يلمحوه في حضورها، حتّى حين تكون صامتةً أو متعبة.

لم يجرؤ أحدٌ على إزعاجها، وكان حيزوم أكثرهم عجزًا عن الانتظار؛ يذرع المكان ذهابًا وإيابًا، ثم يتوقّف فجأةً أمام الباب، يرفع يده ليطرق، قبل أن يهبط بها من جديد.

أمّا عيّار، الذي اعتاد أن يملأ المكان ضحكًا ومشاكسةً، فقد خفّ صوته على غير عادته.

لم يفقد خفّة روحه، لكنّه كان يعرف أنّ المزاح الّذي يُقال في غير موضعه قد يغدو حجرًا آخر يُلقى على صدرٍ مثقل، وأنّ الصّديق الحقيقيّ لا يُضحكك في كلّ الأوقات، بل يعرف متى يصمت كي لا يُشعرك بأنّ حزنك عبءٌ عليه.

اجتمعوا جميعًا عند عتبة حجرتها، وقف حيزوم في المقدّمة، ووجهه شاحبٌ من السّهر، وعيناه معلّقتان بالباب كأنّهما تحاولان اختراق الخشب والوصول إلى صاحبة القلب الّذي يخشى عليه من الغرق.

كانت غسق إلى جواره، تراقب ملامحه في صمت، بينما وقف عيّار خلفهما، وقد عقد ذراعيه أمام صدره، محاولًا أن يخفي قلقه خلف شيءٍ من ملامحه السّاخرة الّتي لم تفارقه تمامًا.

رفع حيزوم يده وطرق الباب طرقاتٍ خفيفة، طرق مرّةً أخرى، وهذه المرّة أطال انتظاره، ثم قال بصوتٍ حاول أن يجعله ثابتًا: _قدر؟

نحن هنا، لن نُجبركِ على الكلام، لكن افتحي لنا، أرجوكِ.

ظلّ الصمت سيّد المكان، تبادلوا النظرات، ثم تقدّم عيّار قليلًا، ووضع كفّه على الباب، وقال بنبرةٍ حاول أن يُلبسها ثوب المزاح: _قدر، أنا عيّار، أُعلن لكِ رسميًّا أنّني بدأت أشعر بالإهانة.

لقد متُّ، وتعرّضتُ للضرب، وكدتُ أفقد رأسي سبع مرّاتٍ في معركةٍ واحدة، ثم عدتُ إلى الحياة لأجد نفسي واقفًا أمام بابٍ لا يريد حتى أن يفتح لي! إن كان هذا جزاء الصّداقة، فأنا أطالب بإعادة النّظر في شروطها.

لم يضحك أحد، لكنّ طرف فم غسق تحرّك بحزن، بينما أغمض حيزوم عينيه لحظةً، فقد كان يعرف أنّ عيّارًا لا يمزح لأنّه لا يشعر بالألم، بل لأنّه يحاول أن يمنح الآخرين فسحةً صغيرةً يتنفّسون فيها، حتّى لو ظلّ هو نفسه يختنق.

تابع عيّار، وقد خفّ صوته قليلًا: _وبالمناسبة، إن كنتِ تخطّطين للاختباء منّا إلى الأبد، فأرجو أن تُخبرينا مسبقًا، أحتاج إلى ترتيب أموري، لديّ قائمة طويلة من الحلويّات الّتي أنوي تناولها، ولا أريد أن أموت مرّةً أخرى قبل أن أُكملها... يكفيني ما حدث لي في المرّة السّابقة.

ثم سكت، تلاشت ابتسامته تدريجيًّا، وأراح جبهته على الباب، كأنّه يتحدّث إليها من خلفه، لا إلى الخشب الصّامت:

_لكنّني، على الرّغم من كلّ هذا، لا أريد منكِ أن تضحكي، ولا أن تفتحي الباب لأنّكِ تشفقين علينا، ولا أن تتظاهري بأنّكِ بخير كي نرتاح.

أريدكِ فقط أن تعرفي أنّني هنا، يا قدر.

صديقكِ الّذي لا يُحسن دائمًا اختيار كلماته، ولا يعرف كيف يُصلح قلبًا مكسورًا، لكنّه لن يملّ الوقوف إلى جوارِكِ، حتّى لو اضطررتُ إلى إلقاء نكاتي على هذا الباب الخشبيّ حتى يتمنّى هو نفسه أن يفتح.

ابتلع غصّةً صعدت إلى حلقه، ثم أضاف:

_لا أعرف كيف أُعيد إليكِ أباكِ، وأمّكِ، ولا كيف أجعل هذا الوجع أقلّ قسوةً، ولا كيف أشرح لكِ لماذا يأخذ الموت منّا أشخاصًا لا نزال نحتاج إليهم.

ولو كان في وسعي أن أضرب الحزن كما ضربتُ ذلك التّنّين، لفعلتُ، لكنّني أخشى أنّ الحزن أقوى منّي في هذه المعركة.

رفع رأسه عن الباب، وحاول أن يبتسم، إلا أنّ ابتسامته خرجت واهنةً، مشوبةً بوجعٍ لم يستطع إخفاءه: _لذلك لن أعدكِ بأنّني سأجعلكِ سعيدةً، ولن أطلب منكِ أن تكوني قويّةً، سأكتفي بأن أكون صديقكِ، أحمل عنكِ ما أستطيع، وأجلس معكِ حين لا تستطيعين الكلام، وأتحدّث نيابةً عنكِ حين يعجز صوتكِ عن الخروج.

وإن لم يبقَ فيكِ شيءٌ يبتسم، فسأحاول أن أكون أنا ذلك الشّيء، ولو لدقيقةٍ واحدة.

سكت عيّار، ثم مسح وجهه بكفّه، واستعاد نبرةً ساخرةً بالكاد صمدت أمام انكساره: _لكن أرجوكِ، لا تجعلي هذه الدقيقة تتأخّر كثيرًا.

أنا لا أملك من الصّبر ما يكفي لأبقى لطيفًا كلّ هذا الوقت، وقد أعود إلى طبيعتي وأبدأ بإزعاجكِ من جديد، وعندها ستكتشفين أنّ الحزن ليس أسوأ ما في هذا العالم، بل أنا حين أُقرّر أن أكون صديقًا مثاليًّا.

ثم التفت عيّار نحو حيزوم، وربّت على كتفه ربّتةً خفيفة، وقال:

_وأنت، توقّف عن النّظر إلى الباب وكأنّك ستُشعل فيه ثقبًا بعينيك.

إن كانت قدر تسمعنا، فهي تعرف أنّنا هنا، وإن لم تكن تسمعنا، فستجدنا حين تفتح الباب... لن نذهب إلى أيّ مكان.

لم يُجبه حيزوم، لكنّه أومأ برأسه، وظلّ واقفًا مكانه.

بعد لحظاتٍ طويلة، انفتح الباب أخيرًا، لم يكن انفتاحه واسعًا؛ مجرّد فسحةٍ ضيّقةٍ تسلّلوا منها إلى الدّاخل، كما يتسلّل المرء إلى مكانٍ يخشى أن يوقظ فيه ما تبقّى من وجع.

كانت قدر جالسةً على طرف فراشها، منكمشة الكتفين، وقد بدت أصغر من عمرها بكثير، كأنّ الحزن أعادها إلى طفولتها الأولى، إلى تلك الطّفلة الّتي لم تكن تعرف كيف تطلب حضنًا، فتعلّمت أن تعانق نفسها كلّما اشتدّت عليها الحياة.

رفعت عينيها إليهم، كانتا كجمرتين خمدت حولهما النّار ولم ينطفئ لهيبها، حمراوين، متورّمتين من فرط البكاء، تحيط بهما ظلالُ سهرٍ ثقيل.

أمّا وجهها، فقد بدا كزهرةٍ اجتاحها مدٌّ مالحٌ طويل، فغسل نضارتها وترك بتلاتها واهنةً، منحنيةً تحت وطأة ما لا تقدر على احتماله.

كان أثر الدّموع لا يزال محفورًا على وجنتيها، كأنّ الملح الّذي سال من عينيها قد اقتلع من ملامحها شيئًا من بهائها، ولم يترك مكانه سوى تعب عميق لا تخفيه المساحيق ولا تُصلحه ساعات النّوم.

ولمّا وقعت عينا حيزوم عليها، شعر بأنّ شيئًا في صدره قد انقبض حتّى كاد يُحطّم أضلاعه، لم يتقدّم فورًا، تذكّر كلمات غسق، وتذكّر أنّ حبّه لها لا يمنحه الحقّ في أن يفرض عليها حضوره، مهما اشتاق إلى ضمّها.

أمّا عيّار، فقد حدّق فيها لحظةً، ثم تنفّس بعمقٍ مصطنع، وقال:

_حسنًا، أرى أنّ اجتماعنا اليوم لن يتضمّن حفلةً ولا وليمةً ولا حتى قطعة حلوى. وهذا، بصراحة، أسوأ استقبالٍ حظيتُ به منذ عدتُ من الموت.

توقّف قليلًا، ثم أضاف وهو يشير إلى نفسه:

_مع أنّني أعترف أنّني لستُ في أفضل حالاتي أيضًا... لو كان هناك مرآةٌ في هذه الغرفة، لطلبتُ منها أن تعتذر لي عن هذا الوجه.

لم تبتسم قدر، لكنّ عينيها تحرّكتا نحوه، وبقيتا معلّقتين به لحظةً أطول مما توقّع، ففهم أنّها سمعته، وأنّ شيئًا صغيرًا فيها لا يزال يصغي إلى أصوات الحياة، وإن عجز عن الإجابة.

تغيّرت ملامح عيّار، وخفّ صوته، ثم قال:

_لا بأس، لن أطلب منكِ أن تضحكي، ولا أريد منكِ أن تقولي إنّكِ بخير، لأنّني أعرف أنّكِ لستِ كذلك.

لكنّني أريدكِ أن تسمحي لنا بالبقاء قربكِ، ولو من دون كلام، لستِ مضطرّةً إلى حمل هذا كلّه وحدكِ، ولا إلى الاعتذار عن حزنكِ، ولا إلى إخفاء دموعكِ كي لا نحزن نحن.

ثم جلس على الأرض، وأسند ظهره إلى الجدار، على مسافةٍ لا تُضيّق عليها، وقال: _سأبقى هنا.

إن أردتِ الصمت، فسأصمت، وإن أردتِ البكاء، فسأبحث عن شيءٍ أشغل به نفسي كي لا أزعجكِ، وإن أردتِ أن تلقي عليّ وسادةً، فسأعدّ ذلك أوّل حوارٍ ناجحٍ بيننا منذ دخلنا هذه الغرفة.

كانت كلماته بسيطةً، لا تدّعي امتلاك علاجٍ للوجع، ولا تزعم أنّ الصّداقة قادرةٌ على إعادة الموتى، لكنّها حملت شيئًا افتقدته قدر طويلًا:

الطّمأنينة الّتي لا تشترط عليها أن تكون بخير كي تستحقّ البقاء إلى جوار أحد.

خفضت قدر رأسها، وارتجفت شفتاها، حاولت أن تمنع الدّموع من العودة، لكنّها فشلت، فانسابت من جديد، صامتةً هذه المرّة، كأنّ عينيها قد تعبتا من الصراخ، ولم يبقَ لهما سوى البكاء الهادئ.

عندها اقتربت غسق ببطء، وجلست إلى جانبها، من دون أن تُحاصرها بالأسئلة، ومدّت يدها نحو يد قدر، وتركت لها حرّيّة أن تقبلها أو تبتعد عنها، وبقي حيزوم في مكانه، يقاوم رغبته في احتضانها، ويمنحها من بعيدٍ ما استطاع من أمان.

لم يقل أحدٌ إنّ كلّ شيءٍ سيكون على ما يرام، فقد كانوا يعرفون أنّ بعض الفواجع لا تُصلحها جملةٌ مطمئنة، وأنّ الفقد لا يُمحى لأنّ أحدهم أحسن المواساة، لكنّهم عرفوا أنّ الإنسان قد يعجز عن ردّ الغائب، ويعجز عن انتزاع الحزن من قلب من يحبّ، ومع ذلك يستطيع أن يمنعه من مواجهة العتمة وحده.

ولعلّ في هذا بعض معنى الرحمة التي يتركها الله بين عباده؛ أن يجعل للرّوح المنهكة أكتافًا تستند إليها، وأيديَ تمتدّ إليها حين تتعب من مقاومة السّقوط، وقلوبًا لا تطالبها بأن تبرأ سريعًا كي تستحقّ الحبّ.

وتذكّرت غسق، وهي تنظر إلى قدر، قول الله تعالى:

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾

لم تكن الآية وعدًا بأنّ الحزن لن يطول، ولا بأنّ الدموع ستجفّ قبل المساء؛ بل كانت نافذةً صغيرةً على معنى أوسع من اللّحظة التي سُجنت فيها قدر: أنّ العسر، مهما تمدّد في العمر، ليس الحكاية كلّها، وأنّ في رحمة الله متّسعًا لما تضيق به صدور البشر.

جلسوا حولها، كلٌّ بطريقته، غسق بقربٍ هادئ، وعيّار بمزاحٍ خافتٍ يتراجع كلّما رأى دموعها، وحيزوم بصمت رجلٍ يتمنّى لو أنّه يستطيع أن يحمل عنها العالم، ثم يكتشف أنّ أقصى ما يملكه الآن هو أن يحترم وجعها ويبقى.

وللمرّة الأولى منذ دخولها أرض الجنان، لم تكن قدر مطالبةً بأن تكون قويّةً من أجل أحد، ولم يكن عليها أن تخفي انهيارها كي تطمئنّ قلوب من حولها...

كان مسموحًا لها أن تكون مكسورةً، ومسموحًا لها أن تبكي، ومسموحًا لها، ولو لمرّةٍ واحدة، أن تستند إلى الآخرين بدلًا من أن تكون هي الجدار الّذي يتّكئون عليه جميعًا.

نهضت قدر بصعوبة، كأنّها تنتزع جسدها من قاع بئرٍ سحيقة، وكأنّ الحزن الذي أثقل روحها قد تسلّل إلى عظامها، فصار كلّ جزءٍ منها يقاوم النهوض.

ترنّحت قليلًا، واستندت إلى طرف الفراش، ثم رفعت رأسها نحوهم ببطء، كانت ملامحها شاحبةً، وعيناها موشّحتين بحمرة البكاء، أمّا شفتيها فظلّتا مطبقتين لحظاتٍ طوال، كأنّ الكلمات تقف خلفهما في طابورٍ من الوجع، لا تقوى واحدةٌ منها على العبور.

وأخيرًا، انفصلت شفتاها على مهل، وانسلت الحروف من بينهما متقطّعةً، كأنّ كلّ كلمةٍ تُنتزع من موضع جرحٍ في صدرها.

قالت: _سأغادر هذا المكان...

ثم سكتت، تلتقط أنفاسها بصعوبة، قبل أن تتابع بصوتٍ خافتٍ أرهقه البكاء:

_هذه الأرض مثقلةٌ بأرواحٍ أحببتها، وكلّ زاويةٍ فيها تحمل لي وجهًا غائبًا، وكلّ دربٍ فيها ينتهي عند قبرٍ أو ذكرى.

أمّا أنا... فلا أنتمي إلى هذا العالم.

هبطت كلماتها كأحجارٍ تُلقى في بئرٍ عميقة؛ لم يسمعوا ارتطامها بالقاع، لكنّهم شعروا بارتجاجها في صدورهم.

تحرّك حيزوم نحوها، غير أنّ عينيه توقّفتا فجأةً عند يديها.

للمرّة الأولى، رأى النّدوب الممتدّة على جلدها، خطوطًا رفيعةً متفرّقةً، بعضها قديمٌ بهت أثره، وبعضها ما زال يحمل من حداثة الألم ما يكفي ليوقظ في النّفس أسئلةً لم تخطر له من قبل.

حدّق فيها طويلًا، وشعر بشيءٍ باردٍ يمرّ في عروقه؛ لقد كان قريبًا منها، يراقب انكساراتها، ويظنّ أنّه يعرف ما تخفيه عيناها، بينما كانت ثمّة معارك كاملةٌ تدور تحت جلدها، بعيدًا عن نظره.

اقترب خطوةً أخرى، وأمسك يدها برفقٍ بالغ، كأنّه يخشى أن يؤلمها مجرّد لمسها، مرّر إبهامه بمحاذاة إحدى النّدوب، من دون أن يضغط عليها، ثم رفع عينيه إلى وجهها، قال بصوتٍ خالطه الأسى:

_كلّ ندبةٍ في جسدكِ، يا قدر، كنتُ أظنّها حكايةً انتهت، ولم أكن أعلم أنّ بعضها قد يكون حكايةً بدأتِها بنفسكِ حين ضاق بكِ العالم.

ابتلع غصّته، ثم أردف: _أتدرين ما الّذي يُوجعني؟

أنّني كنتُ أرى الشامات التي تزيّن جسدكِ، وأحسبها علاماتٍ صغيرةً تركتها الحياة على عجلٍ كي تمنحكِ شيئًا من الجمال، ولم يخطر لي أنّ بعض الندوب قد تظلّ شاهدًا على ألمٍ لم تجدي له ملاذًا.

كأنّ الحياة، بعد أن تجرحكِ، تعود فتزرع فوق جلدكِ قبلةً صغيرةً من فمها، علّها تُنسيكِ قسوة ما فعلت، غير أنّني أدرك الآن أنّ بعض القُبل لا تمحو الجراح، وأنّ ما يلتئم على الجسد قد يظلّ نازفًا في الروح.

رفع يدها قليلًا، ونظر إلى آثارها من جديد:

_لم أكن أعلم أنّكِ تؤذين نفسكِ حين يشتدّ بكِ الحزن، لم أكن أعلم أنّ الوجع الّذي تعجزين عن البوح به قد يدفعكِ إلى أن تجعلي جسدكِ ساحةً لمعركةٍ لا يراها أحد.

يا لغبائي، يا قدر!

كيف استطعتُ أن أكون قريبًا إلى هذا الحدّ، وأغفل عن ألمٍ كان يطلب النّجدة بصمت؟

ارتجف صوته عند كلمته الأخيرة، ثم رفع نظره إليها، وقد انقلب الأسى في عينيه إلى خوفٍ عارم: _لكنّني لن أسمح لكِ بأن ترحلي.

قالها بحزمٍ باغته هو نفسه، ثم تابع، وقد ازدادت قبضته حول يدها رفقًا، لا قوّةً: _أتسمعينني؟

لن أتركَكِ تغادرين هذه الأرض وأنتِ تحملين هذا القدر من الوجع وحدكِ، وإن اضطررتُ إلى أن أقف أمام كلّ بابٍ تحاولين العبور منه، فسأقف، وإن تطلّب الأمر أن أستجديكِ البقاء ألف مرّة، فسأفعل.

وإن كرهتِني لبعض الوقت لأنّني لم أتركَكِ تذهبين، فسأحتمل كراهيتكِ، ما دمتُ أعلم أنّكِ ما زلتِ هنا، تتنفّسين، وتملكين فرصةً أخرى كي لا يبتلعكِ هذا الحزن.

ثم أشار بيده إلى الفضاء المحيط بهما، إلى الأرض التي شهدت انتصاراتها وانكساراتها، وإلى السماء التي حفظت اسمها بين نجومها، وقال:

_أنتِ لستِ عابرةً في هذه الأرض، يا قدر... أنتِ المنشودة!

خرج الاسم من فمه مفعمًا بما يحمله من تاريخها، كأنّه يعيد إليها تاجًا ألقته من فرط التعب:

_أنتِ الّتي حرّرتِ هذه الأرض من مخالب الأشرار، وكشفتِ الأسرار التي عجز غيركِ عن الاقتراب منها، وتجاوزتِ السّور الذي ظنّ الجميع أنّه سيظلّ قيدًا لا ينكسر.

أنتِ التي كتبتِ بيديكِ فصولًا غيّرت مجرى الجنان، وخلّفتِ في سمائها من الآثار ما لن تمحوه القرون.

فكيف تنوين الرحيل الآن، بعد كلّ ما بذلتِه، وكأنّكِ لم تكوني يومًا هنا؟

أكلّ تلك المعارك لم تكن كافيةً لتعرفي أنّ لهذه الأرض فيكِ شيئًا لا يشبه أحدًا؟

سكت لحظةً، ثم خفّض صوته، وغدا أكثر قربًا من الرجاء:

_نحن عائلتكِ، فإلى أين ستذهبين؟

لم تجبه، فتابع، وقد أخذت كلماته تخرج من قلبه قبل أن تمرّ بعقله:

_أتظنّين أنّ العالم الذي جئتِ منه سيحتويكِ كما احتوتكِ هذه الأرض؟

أتظنّين أنّكِ ستجدين هناك من يعرف ارتجافة صوتكِ حين تحاولين إخفاء حزنكِ، أو من يلحظ صمتكِ حين تكونين على وشك الانهيار؟

من سيقلق إن تأخّرتِ؟

من سيفكّر بكِ حين تغيبين عن عينيه؟

من سيحفظ تفاصيلكِ الصغيرة، ويعرف متى تحتاجين إلى كلمةٍ، ومتى تحتاجين إلى الصمت؟

توقّف، كأنّ سؤالًا آخر كان أثقل من أن يلفظه، ثم قال:

_هناك، قد لا تجدين قلبًا يخصّص لكِ من نبضه ما يجعلكِ تشعرين أنّكِ مرغوبةٌ لذاتكِ، لا لما تستطيعين فعله.

قد لا تجدين عقلًا يحمل همّكِ وأنتِ غائبة، أو روحًا تبحث عنكِ في زحام الأيام.

أمّا هنا، يا قدر، فأنتِ تملكينني كلّي، لا نصفًا أقدّمه لكِ حين يناسبني، ولا قلبًا أسترده حين تتعقّد الحياة.

تملكينني بكلّ ما فيّ من حبٍّ وخوفٍ وعجزٍ ورغبةٍ في أن أراكِ بخير.

ثم أشار إلى من حولهما، وأضاف:

_ولكِ هنا أصدقاء، وأحبّة، وعائلةٌ اختارتكِ كما اخترتِها.

عيّار الذي لن يتوقّف عن إزعاجكِ حتّى في أكثر أيامكِ عبوسًا، وغسق الّتي ستظلّ تفتّش عنكِ ولو بين الغيوم، وأنا... أنا الّذي لا أعرف كيف أشرح لكِ أنّ العالم من دونكِ جحيم.

ارتعشت أنفاسه، لكنه واصل، كأنّه يخشى أن يصمت فتسبقه إلى الرحيل:

_ستعودين إلى عالمٍ لا تعرفين كيف ستجدين فيه موطئ قدمكِ، وقد تجدين نفسكِ وحيدةً هناك، لا لأنّكِ لا تستحقّين الحبّ، بل لأنّكِ لا تعرفين ما الّذي ينتظركِ.

وفوق ذلك، أنتِ لا تعرفين طريق العودة، الشخص الوحيد الذي كان يعرف كيف تعبرين بين العالمين قد مات، يا قدر، مات أبوكِ، ورحل معه السرّ الذي كان يحمله.

توقّف عند كلمة «أبوكِ»، وكأنّها جرحت لسانه قبل أن تبلغ أذنها، ثم تابع بصوتٍ أكثر خفوتًا:

_كيف ستعودين إلى عالمٍ لا تملكين له خريطة؟

كيف ستعثرين على الطّريق إن ضللتِه؟

بأيّ بوصلةٍ ستهتدين، وأنتِ لا تعرفين إن كانت الأبواب التي ستعبرينها تُفضي إلى النجاة أم إلى تيهٍ لا نهاية له؟

رفع يدها إلى صدره، ووضعها برفقٍ فوق موضع قلبه: _بوصلتكِ هنا.

هنا تحديدًا، في شرياني الأبهر، في الموضع الذي يمدّ الحياة إلى جسدي، وفي القلب الذي اختاركِ قبل أن يعرف كيف يطلب منكِ البقاء.

إن أردتِ طريقًا يدلّكِ على نفسكِ، فابحثي عنّي.

وإن أردتِ مكانًا لا تضطرّين فيه إلى تبرير حزنكِ، فتعالي إليّ.

وإن لم يبقَ فيكِ ما يكفي لتؤمني بأنّكِ تستحقّين النجاة، فسأظلّ أؤمن بذلك عنكِ، حتى تستطيعي أن تريه بعينيكِ من جديد.

لكنّ قدر سحبت يدها من فوق صدره، ببطءٍ بدا كأنّها تنتزعها من قلبه لا من جسده.

رفعت عينيها إليه، وفيهما من البرود ما لا يشبهها، ومن الحزن ما لا يترك للغضب مكانًا آمنًا، كان وجهها ساكنًا على نحوٍ مخيف، كبحيرةٍ توقّفت أمواجها لأنّها تجمّدت من شدّة الصقيع.

قالت:

_لا تقلق، يا حيزوم، سأفتّش عن طريقةٍ للعودة، سأبحث في الكتب، وفي الأسرار الّتي لم نكتشفها بعد، وسأنبش كلّ ما تركه أبي خلفه إن اضطررتُ إلى ذلك، سأجد طريقًا، بطريقةٍ أو بأخرى.

ثم أشاحت بوجهها عنه، كأنّها لا تريد أن ترى ما ستفعله كلماتها بملامحه، وأردفت: _أمّا وحدتي، فلا تعنيك.

كانت العبارة قصيرةً، لكنّها حملت من القسوة ما يكفي ليشعر بأنّ شيئًا حادًّا قد استقرّ بين أضلاعه.

لم يكن يؤلمه أنّها ترفض البقاء فحسب، بل أنّها تتحدّث عن وحدتها وكأنّها أمرٌ لا يستحقّ الالتفات، وكأنّ كلّ ما بذلوه ليكونوا إلى جوارها لم يبلغ منها موضعًا واحدًا يستطيع أن يخفّف عنها.

أكملت قدر، وقد أخذ صوتها يزداد ثباتًا كلّما ازداد قلبها تصدّعًا: _وأنتم...

توقّفت، ونظرت إليهم واحدًا تلو الآخر، ثم قالت: _أنتم لستم عائلتي.

ارتجفت أصابع غسق، فيما انخفض رأس عيّار قليلًا، أمّا حيزوم فظلّ يحدّق فيها، كأنّه ينتظر أن تتراجع عن كلماتها، أن تقول إنّها لم تقصد، أو أن تمنحهم إشارةً صغيرةً تدلّ على أنّ ما تفوّهت به ليس سوى صرخةٍ أخرى من صرخات وجعها.

لكنّها لم تفعل، بل أضافت، بحزمٍ بدا كأنّها تشيّد به جدارًا أخيرًا بينها وبينهم: _ولن تكونوا.

ثم أخذت نفسًا مرتجفًا، ونظرت حولها إلى أرجاء الغرفة، كأنّ الجدران نفسها قد ضاقت عليها، وقالت:

_هذه الأرض، على سعتها، تخنقني، كلّما حاولتُ أن أتنفّس فيها، اصطدمتُ بذكرى، وكلّما مددتُ يدي إلى شيءٍ أستند إليه، وجدتُه يحمل أثر شخصٍ لن يعود، لم تعد السّماء سماءً، ولا الطّرقات طرقات؛ صار كلّ شيءٍ شاهدًا على من أحببتهم ثم فقدتهم...

حتّى الهواء هنا يبدو لي مستعارًا من أنفاس الراحلين.

ارتعش صوتها، لكنّها ابتلعت دموعها وأكملت:

_لا أريد أن أرثي جسدًا آخر في هذه الأرض، لا أريد أن أقف أمام قبرٍ جديد، ولا أن أحفظ اسمًا آخر بين الأسماء الّتي أدعو لها، ولا أن أتعلّم وجهًا آخر من وجوه الغياب.

لقد فقدت من أحببتهم، وفقدني من أحبّوني، وكأنّ الموت كان ينتظر عند أطراف كلّ علاقةٍ أمدّ إليها قلبي يده.

توقّفت، وأغمضت عينيها لحظةً، ثم فتحتْهما على وجعٍ أعمق:

_كلّ من أحببتهم وأحبّوني قد وافتهم المنية، وهذا القدر من الفقد يكفيني، لن أرثي أحدًا آخر بسببي، لن أسمح للموت أن يجد إليهم طريقًا من خلالي، ولن أضع قلبًا جديدًا في مرمى الفاجعة، ثم أقف عاجزةً أراقب انطفاءه.

كانت كلماتها تخرج كأنّها أحكامٌ أصدرتها على نفسها قبل أن تصدرها على العالم؛ أحكامٌ لا تستند إلى دليل، بل إلى خوفٍ تضخّم حتى صار في عينيها حقيقةً لا تقبل النّقاش.

لقد بدأ الحزن يقنعها بأنّها ليست مجرّد إنسانةٍ تفقد من تحبّ، بل لعنةٌ تتبع كلّ من يقترب منها، وأنّ النّجاة الوحيدة هي أن تسبق الموت إلى أبوابهم، فترحل قبل أن يختارهم ضحايا جددًا.

ثم رفعت رأسها، وقالت بنبرةٍ خافتةٍ، لكنّها كانت أشدّ وقعًا من الصراخ:

_الموت مرآة الحبّ، يا حيزوم.

نظرت إليه، وفي عينيها خوفٌ عارٍ، لم تستطع الكلمات القاسية أن تخفيه هذه المرّة: _كلّما أحببتُ، مات أحدهم أسرع.

كأنّ الحبّ يوقظ الموت من سباته، ويخبره أنّ هنا قلبًا تعلّق، وأنّ هنا روحًا وجدت أخيرًا ما يستحقّ البقاء، فيأتي لينتزعه منها.

كأنّ الحبّ وُلد من رحم الثّكالى، وتعلّم أولى كلماته من أفواه النّساء اللّواتي ودّعن أبناءهنّ، والآباء الذين أطبقوا أعين أبنائهم بأيديهم، والأرواح التي لم يُمنح لها الوقت الكافي لتقول: أحبّك.

انكسرت نبرتها عند الكلمة الأخيرة:

_أخاف أن أحبّكم أكثر، يا حيزوم، أخاف أن أستيقظ يومًا فلا أجد أحدًا منكم، أخاف أن يصبح وجهك ذكرى، وصوت عيّار صدى، وضحكة غسق حكايةً أرويها للفراغ كي لا أنسى أنّني كنتُ محاطةً بأشخاصٍ أحبّوني يومًا.

أخاف أن أضيف أسماءكم إلى قائمة الغائبين التي أحملها في صدري، حتى لا يبقى في قلبي موضعٌ لاسمٍ جديد.

لذلك أريد الرحيل قبل أن يأخذ الموت منّي أحدًا آخر.

أريد أن أكون وحدي بإرادتي، بدلًا من أن أُترك وحيدةً مرّةً أخرى رغمًا عنّي.

أريد أن أختار الغياب قبل أن يختارني، وأن أغلق الباب بيدي قبل أن يُغلقه الموت في وجهي.

ولم تكن تعلم أنّها، في محاولتها الفرار من الفقد، كانت تعاقب نفسها على ذنبٍ لم ترتكبه، ذنبٍ اخترعه الحزن كي يجد تفسيرًا لما لا تفسير له، فحمّل قلبها مسؤولية موتٍ لم يكن يومًا في يديها.

أمّا حيزوم، فقد ظلّ ينظر إليها بصمتٍ موجع.

كان يستطيع أن يجادلها، وأن يذكّرها بكلّ ما أنجزته، وأن يسرد لها أسماء الّذين أنقذتهم، وأن يقول إنّ الموت لا يختار ضحاياه لأنّها أحبّتهم، وإنّ رحيل أبويها لم يكن عقابًا على تعلّقها بهم.

كان يستطيع أن يردّ على كلّ جملةٍ قالتها بعشر جملٍ منطقية، وأن يهدم حججها واحدةً تلو الأخرى، لكنّه رأى في عينيها أنّها لا تبحث عن حجّة، ولا تريد جوابًا، كانت تبحث عن طريقةٍ تمنع بها قلبها من أن يُذبح مرّةً أخرى.

وفهم، للمرة الأولى، أنّه لا يقف أمام امرأةٍ تريد مغادرة أرضٍ فحسب، بل أمام روحٍ تحاول أن تنجو من الحبّ نفسه، لأنّها لم تعد تعرف كيف تحبّ دون أن تنتظر الفاجعة في نهاية الطريق...

فأرخى يده الّتي كانت ممدودةً نحوها، ولم يتقدّم.

لم يكن ذلك لأنّه اقتنع برحيلها، ولا لأنّ كلماتها أقنعته بأنّهم غرباء عنها؛ بل لأنّه أدرك أنّ قلبًا يظنّ نفسه سببًا في موت أحبّته لن يُقنعه الحبّ بالقوّة، وأنّ عليه، قبل أن يطلب منها البقاء، أن يساعدها على رؤية الحقيقة التي حجبها الحزن عنها: أنّها ليست لعنةً تطارد من تحبّ، وأنّ الموت، مهما سرق منها، لا يملك أن يجعل حبّها جريمة.

وفي تلك اللّحظة، لم يكن السّؤال الذي ينهش قلب حيزوم:

كيف يمنع قدر من الرحيل؟

بل كيف يُقنعها بأنّها تستحقّ أن تبقى، حين أصبحت تخشى أنّ وجودها نفسه قد يكون سببًا في رحيل الآخرين؟

انقشعت غمامةُ المأتمِ الكبرى، واغتسلت جراحُ العوالمِ الكليلة بفيضٍ من طهرِ التّسليم، فخبا عويلُ الرّواسي، وهدأت سورةُ الدّماءِ.

كانت "قدر" تقفُ في البرزخِ بين عاطفتين، بين قلبٍ يسيلُ شجنًا على شمسٍ آوت إلى مخدعِ الخلود، وروحٍ تدركُ _بإيحاءِ الوعيِ الخفيّ_ أنَّ ستائرَ الغيابِ تُوشكُ أن تُسدلَ على مسرحِ الخيال.

آثرت ألا تُجرّدَ النّصل في صدورِ رفاقِها بوداعٍ صاعق، فاختارت أن تسكب الرّحيل في قوالب من نور، وتصنع من ليلتها الأخيرة ملحمةً من حنانٍ مُبطّنٍ بالفراق.

تقدّمت نحوهم في صبيحةِ اليومِ النديّ، وفي جعبتِها هدايا خُطّت معالمُها بميزانِ الرّوحِ، فمشت إلى "حيزوم"، ذلك الفارسِ المسكونِ بصهيلِ الوفاء، وقدّمت لهُ غصنًا نضيرًا من شجرةِ التّينِ الأولى، مشبوكًا بخصائلِ شعرِها المقصوص النّديّ برائحة الياسمين العبق؛ هديّةً تلائم جوهره كخيلٍ أثريٍّ يعشق ريح الطُّهر، وغمست في عروق الغصن تلميحًا صامتًا بأنهُ سيبقى حارس مأواها وسرَّ انبعاث رمادها.

ثمّ التفتت إلى "عيّار"، مشاكس الملاحم وصاحب القلب الطفوليّ، وأهدتهُ نواةً زمرديّةً من فصوصِ جوهرةِ عمّار الخضراء، مُطوَّقةً بقماطٍ من حريرِ السماء، وهمست لهُ ضاحكةً:

_لتكون عِوضًا لك عن وعاءِ الشّوكولاتة كلّما نضبَ شلّالُ المائدة.

أمّا "غسق"، غيمةَ الشّجنِ المتجسّدة، فكانت هديّتها مرآةً من بلّور القاعة، مختومةً بنقش "علامةِ العنقاء"، لترى فيها نفسها رفيقةً أبديّةً لا تنال منها لعنة العزلة والوحدة أبدًا.

وعلى إثر الهدايا، انفتح في "أرضِ الجنان" يومٌ أسطوريٌّ لم تشهد السّماء مثله قطّ، قهروا فيه الحزن بالبهجة، واقتحموا أسوار المرح كأطفالٍ يسابقون الفجر.

صعدوا متن الغمام، وتزحلقوا على قوسِ قزحٍ يتدلّى كوشاحٍ من أرجوانٍ وذهب، وارتجّت الآفاق بضحكات عيّار الخفيفة التي سكنت العوالم طربًا لها.

أرجحهم حيزوم بأجنحته على سطحِ القمر السّاخر من عتمة الأرض، وحلّقوا جميعًا بأجنحةٍ من ضوءٍ مُموَّهٍ للمرّةِ الأخيرة، يخرقونَ السُّحب المشدودة كأنّهم ملوك الأبد.

وحينَ مال النّهار للغروب، استووا على متن قاربٍ خشبيٍّ عتيق، يجري بهم في نهر العسل المنساب بين شجر الكرز المزهر.

راحت قدر تشدو بألحانٍ عذبة، وصوتُها الرخيمُ يتهدّجُ بعبرةٍ طمستها بابتسامةٍ حالمة، ومدّت أناملَها لتقطفَ أزهارَ كرزٍ نديّة، ووضعتها بين صفحاتِ كتابٍ بلا عنوان، ثمّ أطبقتهُ بقوّةٍ كمن يضبُّ ذكرياتِ كونٍ كاملٍ في جعبةِ روحِها الجريحة.

وحين ضرب اللّيل سرادقهُ، ونامتِ العيون، تسلّلت قدر خلسةً نحو الممرّاتِ الصامتة، بخطىً واهنةٍ تحذر إيقاظ الحجر.

غير أنَّ "غسق" كانت ترقبُ النُّزوح بكفٍّ بصيرتها، إذ علمت منذ الوهلة الأولى أنَّ قدر تحمل النّيّةَ على طيّ المدى.

تهادت نحوها كطيفٍ غيميٍّ خنقهُ البكاء، وقبضت على يدِها برفقٍ حزين، وقالت بنبرةٍ تتقطعُ رجاءً: _قدر... أتذهبين دون وداع؟

أرجوكِ، لا تذهبي الآن، ابقي هنا أسبوعًا آخر تبرأُ فيه جراحكِ، فالمهلة المتبقّية قبل إغلاقِ بوّاباتِ الجنانِ لا تزال سبعة أيامٍ كاملة...

لا تتركينا للوحشة والخلود البارد.

اقتنعت قدر، ولانت عاطفتُها لرجاءِ غسق، وحين كان الشّفق يبعثُ آخر خيوطِ الضّياءِ المكسورِ عبر النّوافذِ العالية، وقعت عيناها فجأةً على أسفلِ سريرِها الخشبيّ، هناك حيث حفرت بأظافر ألمِها في أوّلِ يومٍ وطئت فيه هذا العالم تاريخًا لا يُمحى.

تذكّرت قولَ غسقَ القديم:

_كلُّ يومٍ في أرضِ الجنان يعادلُ ثلاثةَ أيامٍ في عالمكِ.

شعّت عيناها ببريقٍ عسليٍّ حادٍّ تشقُّهُ شمسٌ هادئةٌ مستكينة يملؤها الرُّعبُ واليقين..

التاريخُ المحفورُ هو (١١/١٣) واليومُ في حسابِ الفلكِ هو ذاتُهُ الثّالث عشر من نوفمبر!

لم تكنِ المهلةُ سبعةَ أيام، بل إنَّ فُروقَ الزمنِ البرزخيّ قد استنفدت زيتها، وقبل منتصفِ ليلِ هذا اليومِ ستقفلُ البوابةُ إلى الأبد!

تملّكَ الرُّعبُ حشاشتَها، فلو بقيت وأُغلقت الرِّتاج، ستنهارُ أرض الجنانِ بكلّ عوالمِها وقصورها وبحيرات لؤلؤِها مسمومةً ومهدومة، لأنَّ جنسًا غريبًا من عالمٍ آخر _وهي قدر_ حبس في جوفها.

وجدت نفسها بين نارين أحلاهما مُرّة:

رغبة عاتية بالبقاء في حضن الحبّ، ويقين صارم بأنّ بقاءها يعني فناء من أحبّت.

وشاءت أم أبت، بإرادتها أو رغمًا عن أنفاسها المكلومة، كان عليها أن تغادر لتفتدي العالم الّذي استوطن سويداء فؤادها.

اندفعت تركض والوقت يذوب كالشّمع تحت قدميها، وبلغت قاعة العتبة العظمى حيث البوّابة الذهبيّة المنقوشة بنصفِ قرص الشّمس.

وقفت على الحافّةِ، والتفتت نحو الفراغِ البرزخيّ، فإذا بالبوابة تنشقّ، لا عن ضياءٍ، بل عن مرآةٍ كونيّةٍ عملاقة تعكس صورة طفلةٍ في الخامسةِ عشر من عمرِها، تجلسُ منكمشةً على سريرٍ حديديٍّ متهالكٍ في غرفةٍ ضيّقة، وبيدِها ورقةٌ وقلم، والدّموع تترقرق بغزارةٍ من مقلتيها الحزينتين.

وفي المقابل، كانت قدر الواقفة على عتبة الشمس تبدو كالملكوت الجريح؛ ترتدي ثوبًا أبيض طويلًا ناصعًا، تتسرّب منه حبال اللّؤلؤ المكنون المشعّ، وشعرها القصير بعد أن بَترتهُ مخالبُ الحربِ يتطاير

خصلاتٍ ناعمةً على نصفِ وجهها الشّاحب، بينما النّصف الآخر تسيل منه دموعٌ مريرةٌ تقطر على البلّور.

وفجأةً، دوّى الصَّوتُ خلفها...

التفتت فإذا برفاقها جميعًا، حيزوم بعيني فروسيّته الباكية، وعيّار بقامته المهيبة الصّامتة، وغسق بنورها السّحابيّ، وقفوا كالبنيان المرصوص، ونطقوا بصوتٍ واحدٍ زلزل أركان القصرِ وهزَّ مدارات الكواكب:

_لا تنسينا... وتذكّري دائمًا أنّنا عائلتك، نحبُّكِ!

استدارت قدر، وبغصّةٍ ذبحت حنجرتها، غرست يدها اليُسرى داخل بوّابةِ الشّمسِ اللّاهبة، واندفعت بجسدها الملكيّ داخل لجّةِ النّور، فانسحبتِ الرّوح، واختفت كليًّا خلف رتاجِ الغيب.

"الوجه الآخر للقدر"

"حين يعجزُ المدى عن كفكفةِ الدَّمع، وتضيق الأرض بمن لا أب لهُ ولا أُمَّ..

يغدو الخيالُ هو الكون البديل ّالذي نبنيه لننجو، نعيدُ فيهِ صياغةَ المصائرِ المبتورة، ونخلق لأنفسنا أجنحةً...

نُحلّق بها بعيدًا عن سياط الواقع المُرّ."

لم يكن نحيب الرّفاق آخر ما تلاشى في هوة النّور، بل انشقَّ عن الصّوت صوتٌ آخر، جافٌّ، غليظٌ، لا يعرف لغة الملائكة ولا رِقَّة الغمام، يهوي على حجاب السكون كمطرقةٍ تدكُّ عرشًا من زجاج:

_استيقظي يا قدر!

كفاكِ نومًا وسهرًا بالسّاعات الطّوال، لقد تأخَّرتِ عن أعمال الدّار!

تبدَّد بياض الثّوب الملكيِّ كما يتبدَّد الضّباب عند لهيب هجيرٍ قاسٍ، وتلاشت حبال اللّؤلؤ المكنون الّتي كانت تنساب على جسدها، لتفتح عينيها العسليَّتين بغتةً...

فلا تجد سقف القصر العالي، ولا شرفة النّجوم، ولا ذراعي حيزوم الّتي طالما سكبت في صدرها أمان العالم...

وجدت نفسها ترتجف تحت غطاءٍ صوفيٍّ ممزَّق، وفوق سريرٍ حديديٍّ صدئٍ يصدر أنينًا كلَّما تحرَّكت، بين أربعة حيطانٍ تقشَّر طلاؤها ليعكس عري الوحدة وقسوة الملجأ الّذي استوطن طفولتها المبتورة...

تحاملت على وهنِها، ورفعت كفَّها اليُسرى المرتعشة لتتحسَّسَ بها رأسها.. هناك، حيثُ تجمَّد الصقيع، طارت الأصابعُ بذهولٍ لتبحثَ عن خِصال شعرِها الأجعدِ الطويلِ الّذي عهدتهُ يتدلَّى حتى أسفلَ خصرها، فما وجدت إلا فراغًا مروِّعًا، وشعرًا قصيرًا مبتور الأطراف، قَصَّته يد المشرفةِ بصلفٍ نكايةً في براءتِها، ليتطابق الطعنُ الماديُّ في واقعِها مع حكايةِ الفتاةِ الّتي بكت عليها في خيالها دمًا.

نظرت إلى ذات الكفِّ اليسرى... وتحت الضّوء الشّاحب المنبعث من نافذة الملجأ، استقرّت شامةٌ صغيرةٌ بريئة.

مرَّرت إبهامها فوقها بحنوٍّ غائب، كأنّها تفتّشُ عن الدفء والوعد الّذي تبخَّر، وتستجدي أريج الياسمينِ الّذي أقسم حيزوم أنَّهُ لن يفارق مأواه.

هنا، وفي هذه اللّحظةِ الفاصلة، انقشع الغموض ليتجرَّعَ الكون الصاعقة الكبر، فالفتاةُ الملكيَّة ذاتُ الثّمانية عشر ربيعًا، الّتي وقفت بثوبها الأبيض وحبالِ لؤلؤِها المكنونِ على عتبة البوّابةِ قبل قليل، لم تكن سوى انعكاسٍ وهميٍّ وصورةٍ خياليّةٍ صاغتها هذه الطّفلة القابعة على السّرير!

إنَّها قدر...

الطّفلة ذات الخمسة عشر ربيعًا، اليتيمة الفريدة الّتي نبتت منذ نعومة أظفارها بين جدران دار الأيتام، عاريةً من الثّياب المترفة، ومحرومةً من لمسة الدّفء التي تغفو في أحضان الأمّهات.

دارٌ طالما احتضنت القسوة أكثر مما عرفت سبيلًا للحب، وعزفت جدرانها الصّامتة ألحان الظّلم والاضطهادِ عوضًا عن الأمان.

لم تعش يومًا واحدًا سعيدًا، بل اعتادت أن تنزوي في ركن غرفتها الضّيِّقة، منعزلةً لا رفاق لها قطّ، ينهشُها الأرقُ العاتي ساعاتٍ طوالًا كلَّ ليلة.

ومن شدَّةِ كرهِها للواقع المرِّ الممتدِّ بين أربعة حيطان، هربت بروحها لتكتبَ وتؤلِّف عالمًا كاملًا أسمتهُ "أرض الجنان"، خالفت فيه نواميس البؤس، فخلقت لنفسها أبًا بطلًا اسمهُ "عمّار" يقود الفرسان ليفديها، وعائلةً من سحابٍ ونورٍ تحتوي انكسارها، ورجلًا يحبّها كحبِّ المصطفى لخديجة.

لقد بكت في خيالها لأنَّ واقعها جافٌّ، وقرَّرت ألا تضعَ لقصَّتها نهايةً سعيدةً، لأنَّها لا تعرف طعم السّعادة، ولم تذقه يومًا، كما رفضت أن تكتب لها نهايةً حزينةً لأنَّ ما في صدرها من شقاء الدّنيا قد فاق ميزان الاحتمال، فتركت أبواب الجنان مواربة، واختارت النّزوح رغمًا عن أشواقها، لتظلَّ حكايةُ اليتيمةِ سرًّا يرتجف له ورقُ الرّواية.

نهضت من فراشها الصّدئ، وتقدّمت نحو خزانتها المتهالكة لتنتشل منها فستانها السماويَّ المرصَّع بفراشاتٍ صغيرة.

كان هذا الثّوب هو قطعة الفرح الوحيدة الّتي تملكها في هذا الوجود، نالته جائزةً يوما حين حصدت المركز الأوّل في مسابقةٍ لأفضل القرَّاء أقيمت في الدّار كنوعٍ من التّرفيه، وكأنَّ الكتب الّتي هربت إليها في طفولتها قد كافأتها بهذا الرّداء السّماويِّ.

وللمرَّة الأولى منذ أعوام، لم تكن بحاجةٍ لرفع خصال شعرها الطّويل المتموِّج كشلّالٍ مضطرب، فقد بترته يد الواقع الغاشمة وذهب به رماد الحرمان.

نزلت إلى المطبخ بخطىً كليلة لتبدأ رحلتها اليوميَّة مع الأشغال الشاقَّة؛ فهي الّتي تكنّس وتغسل المواعين كواجبٍ صارمٍ فُرض عليها اتِّجاه الدار.

كان صخب المكان يملأ المطبخ، ورأت الفتيات من حولها يُطلقن النكات، ويمرحن، ويُداعبن بعضهنَّ البعض أثناء التنظيف، كأنَّ البؤس لم يطأ قلوبهنَّ قطّ.

غير أنّها في سرِّها كانت تنظر إليهنَّ بنظرةٍ تملؤها المرارة والتهلّك، وتقول:

_كلُّ هذا مجرد خدعةٍ يصنعها العقل الباطن، يُوهمن أنفسهنَّ بأنَّهنَّ لا يكترثن للواقع المرير.

لِمَ يرتدين أقنعةً سعيدة؟

المكان لا يتطلّب التّمثيل!

لِمَ عسانا نُتقن دور السّعادة أمام النّاس، ثمَّ ننزوي وراء كواليس الواقع لنخلع رداء القوَّة المزيَّف، ونرتدي ثوب العجز ونعيش الحزن على أكمله؟

أليس هذا مرهقًا للروح؟!

غاصت في طيّات هذه الأفكار الفلسفيَّة العميقة لساعاتٍ حتَّى انتهت من غسل الأواني وتلميع الأرض الّتي استحالت زلقًا من الماء.

خرجت بعدها إلى حديقة الدّار لتسقي النّبات، وهذا العمل كان الأحبَّ إلى روحها المكلومة، رغم أنَّها لو خُيِّرت بزراعة نبتةٍ واحدة لما فعلت قط، خوفا من أن تتعلَّق بها فتموت.

لكنَّها كانت تُحبُّ سقايتها وتعشق أن تروي للأوراق الخضراء حالها ونشيج صدرها، فهي تُؤمن بأنَّ الزرع يملك روحًا ويشعر بمن حوله، بل ويحزن حزنًا مميتًا على فراق صاحبه الّذي يعتني به، وقد يموت ذبولًا إن مات صاحبه... تمامًا كما حدث لأشجار المرجان حين رحل عمَّار.

وفي غمرة انصهارها مع الطبيعة، قرّرت إحدى الفتيات ممازحة قدر لإخراجها من عزلتها وبؤسها العتيق، فوجّهت خرطوم المياه نحو جسدها النّحيل.

تبلّل فستانها السماويُّ واهتزَّت فراشاته، فاستيقظت بغتةً من غفلة الصّحو، والتفتت بثورةٍ مكتومةٍ لتسخط على فعلتهنَّ، لكن حين صدمت عينيها براءة الفتيات وضحكاتهنّ النقيّة، لم يطاوعها قلبها الطّاهر على الصّراخ، فاكتفت بالصّمت الهادئ، وانسحبت لتُعدَّ العشاء للدّار بأكمله.

حين أرخى النّهار ستاره وانتهى اليوم الطّويل، انزوت قدر إلى غرفتها بصعوبةٍ بالغة، كمن يجرُّ جبال الأقدار النّاتئة على ظهره النّحيل.

اندفعت نحو السّرير ورمت بجسدها فوقه كمن ينتحر سقوطًا من أعلى السّطح، وبأنامل ترتجف شوقا، مدَّت يدها اليسرى تحت الوسادة الباردة لتنتشل دفترها السرِّيّ الّذي يتوسَّط غلافه عنوان "أرض الجنان".

انسابت الدّموع العسليَّة الحارقة على وجنتيها لتبلّل الورق، وراحت تشمُّ رحيق الصّفحات بكلِّ جوارحها، تُفتِّش عن أريج الياسمين وعن رائحة حيزوم الّتي تفوق الطّيب بين سطوره الّتي خطَّتها، فما وجدت سوى ألم الورق النّاشف وقسوة الحبر المجفّف.

فطوت الدفتر بقوَّةٍ على صدرها، واهتزَّ نشيجها المذبوح في عتمة الملأ، وهي تبكي بحرقةٍ وتتمنَّى أمنيةً واحدةً من ربِّ السّماء: أن تختفي كليًّا من هذا الوجود المرّ، وأن تُهاجر روحها بلا عودةٍ إلى ذلك العالم الّذي صنعته بأحلامها وخيالها الخصب... إلى أرض الجنان الّتي باتت وطنها المفقود.

مرَّت الأيام والشّهور رتيبة ثقيلة، كأنّها دهر صُبَّ في قالب من جمود.

كان على قدر أن تجرّ خيبات الواقع وحيدة على مدار عام كامل، منتظرة انقضاء الفصول لعلّ النّور يلوح من جديد.

انطوت الأيّام وهي تعيش في كنف دار الأيتام حياة أشبه بجفاف الرّماد، تزدري نفاق البشر، وتأنف من صغائر عقولهم الّتي لا تتقن سوى الهمز واللّمز خلف الوجوه... هيهات لهذه الدّنيا أن تمنح قلبًا طاهرًا سلامًا بغير مشقّة، وهيهات للنّفوس المريضة أن تترك غرسة غضّة تنمو بغير أن تقطف أوراقها بصلف.

عاشت قدر في عزلة تحميها وتستر وجعَها، تلوذ بالصّمت كلّما تكاثرت حولها الحماقات، وتتردّد في روعها مرارات تضيق بها الصّدور.

ومع ذلك، لم تخلُ الأيام من مفارقات فكاهيّة كسرت قتامة الحزن الموقوف في مآقيها، فكم من مرة حاولت فيها المشرفة الفظّة أن تباغتها بعقاب صارم لتأخّرها في السّهر، فتتسلّل قدر كالسّحابة من بين يديها، تاركةً خلفها وسادة محشوّة بالملابس القديمة تحاكي جسدها، لتأتي المشرفة وتوبّخ الخداع الصّامت في ظلمة الغرفة...

بينما تكون قدر قابعة فوق سطح المبنى تحدّق بظلمة السّماء وتبتسم في سرها ولسان حالها يقول:

_إنّ بعض الحيل عدل نافع.

ولم تكن قدر لتمنح هذا الوجود صداقةً أو حبًّا، فقد أغلقت أبواب مشاعرها دون البشر، غير أنّ فؤادها كان أرقّ من أن يرى مظلومًا يضام أمام ناظريها ولا تثور له.

وفي ليلة شتائيّة عاصفة، تسبّبت إحدى الفتيات الصّغيرات بالخطأ في كسر مصباح الدّار الأثري، وجلست ترتعد خوفًا من سياط العقاب والعزل في القبو المظلم، رأت قدر رعب الطّفلة، فتقدّمت بخطى ثابتة مهيبة كأنّها ملكة تعتلي عرش الوقار، واعترفت بذنبٍ لم تقترفه قطّ، متحملة عناء العزل والبرد نيابة عنها، وحين سألتها الفتاة في الدّار كانت تراقبها في صمت عن سرّ هذا الاستبسال وهي الّتي تدّعي كره الجميع، التفتت إليها قدر وعيناها العسليّتان تشعّان بنور المعرفة، وقالت:

_لست أبتغي من البشر ودادًا ولا قربًا، لكنّ قلبي يعصيني إن رأى لوعة المكروب، لقد تعوّدت أن أخرج نفسي من لظى الشّجن، وعلمت أنّ ربّ السّماوات لا يترك من نصر ضعيفًا، ألم يقل نبيّنا المصطفى ﷺ:

(من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدّنيا، نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه)؟

فكيف لي أن أبخل بعون يشتري لي نجاة عند الحوض؟

كانت حياتها في الدار صراعًا بين براءتها وقسوة محيطها.

لم تكن تعلم أنّ هذا التاريخ، الثّالث عشر من نوفمبر، ليس مجرّد يوم للفراق خطّته في روايتها، بل هو ميعاد مولدها الّذي سيشهد انشقاق الحجاب العظيم حينما يأذن الله للخيال أن يتمرد على صفحات الماضي، ويكشف لها عن **الوجه الآخر للقدر.**

دقّت عقارب السّاعة معلنةً انقضاء آخر ثانية من زمن الانتظار المُر، ولتعلن ولوج الثّالث عشر من نوفمبر، يوم مولد قدر الّذي كانت تحتفظ بذكراه كغرِيمة حزن لا تغادر الروح.

مضت بخطى وئيدة نَحو نافذتها العتيقة المطلَّة على عراء اللّيل، تسند جبينها الشّاحب إلى الزّجاج البارد، وترنو ببصرها العسليِّ نحو الأفق السّحيق حيث تتراقص مصابيح الكواكب كأطياف منسيّة.

وضعت كفَّها فوق الجهة المكلومة من صدرها، فوق قلبٍ أجهده الرّكض في دروب الفقد، وتمنَّت أمنية تتقطَّع لها حشاشتها، رجت من ربّ السّماء الكريم لو تنطوي صفحات هذا العالم الواقعيّ القاحل، وتتبدَّد جدران الملجأ الصّلدة، لتنفتح في وجهها صفحات أرض الجنان، ذلك المأوى الروحيُّ الّذي نسجت سماءه من ضفائرها وعطَّرته بأريج الياسمين، متمنّية العيش فيه عوضًا عن هذا الوجود الذي أقحِمت في لظاه رغمًا عن براءتها.

كانت تدرك في سرِّها ما تتناقله الخرافاتُ العتيقة بأنَّ أمنية ليلة الميلاد تملك مفاتيح الغيب إن تمنَّاها المرء بكل جوارحه، يرغبةٍ مطلقة تكاد تفلق الصّخر الصامت.

وما إن فتحت عينيها بعد ابتهالها الجريح، حتَّى شقَّ عتمة السّماء شهابٌ دافق يركض كالسّهم السّاطع، حاملًا بين طيَّاته رسالة القبول الإلهيِّ للألم المكبوت.

لمعت عيناها ببريق الشّمس المستكينة، إدراكًا بأنَّ القدر قد استجاب أخيرا لأرق ليلها العاتي وتوسُّلها الطّاهر.

أشاحت بنظرها عن النّافذة مأخوذة بذهولٍ غريب، فصدمت عينيها مفاجأةٌ زلزلت كبرياء عقلها، هناك، في زاوية غرفتها الضيِّقة، تمدَّدت لوحةٌ قماشيّة هائلة، لوحة لم تكن معلَّقة على ذلك الحائط من قبل! كانت تنبض بالحياة وتفور بألوان الطيف، رُسِم فيها نهرٌ من لؤلؤ رقراق تشرب منه عصافير بيضاء مهيبة كأجساد اليمام، وتحوطهُ أشجارُ كرز وتين تنبت كأنَّها نُقِلت من الفردوس الأعلى، ويتوسَّط المدى منزلٌ ريفي خياليّ.

تجمَّدت الأنفاس في صدرها حِيال هيبة الرّؤية، وتذكَّرت قدر فجأة أنَّ هذه اللّوحة ليست غريبة عنها، بل هي ذات الرّسمة الّتي خطَّتها أناملها الطفوليّة مرَّة في عمر الخمس سنوات، يوم أن كانت تخربش أحلامها بالطّباشير باحثة عن ملجأ لروحها اليتيمة.

تقدَّمت نحوها بخطوات تتماوج بين الحماسة والرّهبة، ومدَّت أصابعها المرتعشة لتتحسَّس الألوان، وما إن لامست أناملها سطح القماش حتّى جرت في عروقها شرارة دافئة، وتحوَّلت اللّوحة بغتة بإعجاز برزخيٍّ إلى باب خشبيٍّ عظيم، ينبثق من أطرافه نور بنفسجيّ يطرد العتمة، وبدا في ظهره مقبضٌ ذهبيٌّ وهّاج يتوسَّطه نقشٌ دقيق لنصف قرص شمس، كأنَّه يدعوها لإكمال ما بترته الأيام.

وضعت كفَّها على المقبض اللاهب، وأدارته ببطء...

انطلقت قدر بكلّ ثقل روحها، فانشقَّ المقبض الذهبيُّ عن برزخٍ من النّور البنفسجيِّ الّذي ابتلع غرفتها الضيِّقة وجدران الملجأ الصّلدة.

تراخى زمن دار الأيتام، وتلاشى صقيع ليلة الميلاد الباردة، لتجد قدر نفسها تهوي نحو نعيمٍ مألوف، سقطت فوق بساطٍ من غيومٍ وادعةٍ تتنفَّس كإيقاع أمٍّ نائمة.

فتحت عينيها العسليَّتين، فلمحت سقف القاعة العظمى البعيد كسماءٍ أولى، وعبق المكان بأريج الياسمين الطّازج الذي لم تطمسه الحروب.

نهضت بصعوبة، وتأمَّلت جسدها، كانت ترتدي فستانها السماويَّ المرصَّع بالفراشات الصغيرة، ثوب عيدها النّحيل الذي نالته جائزة القراءة في الملجأ، ولم تكن تلك الملكة ذات الاثنين والعشرين ربيعًا بثوبها الأبيض الملكيّ، بل قدر الماديَّة الحقيقيَّة... طفلة الخمسة عشر عامًا، بقامتها الضّئيلة وشعرها القصير المبتور الّذي قصَّته يد المشرفة الجافّة.

في تلك الأثناء، كان حيزوم يقف عند انحناء الممرِّ العظيم، يمسد بيده ضفائرها ويشمُّ فيهنّ وعد العودة.

وفجأةً، اهتزَّت أركان القصر، وانفجع الأثير عن نور البوّابة، ركض حيزوم، وتبعه عيَّار بخطاه المهيبة، وجاءت غسق تتهادى كطيفٍ نورانيٍّ يسبق الضّياء.

توقَّف الجميع بغتةً، وتسمَّرت أبصارهم حيال الرّؤية، لم يجدوا القائدة الّتي شقَّت صدور التّنانين، بل وجدوا جسدًا غضًّا صغيرًا لطفلةٍ يبدو عليها أنَّها تجرَّعت شقاء الدّنيا بأكمله، وعينين عسليَّتين تنزفان براءةً.

تقدَّم حيزوم خطوةً، ثمَّ تراجع مأخوذًا بالصّدمة والذّهول، ونظر إلى شامة كفِّها اليسرى... هي نفسها، تلك النّجمة المختومة فوق جلدها!

عرفها قلبه قبل عقله، لكنَّ فمه عجز عن النطق لشدَّة المفاجأة.

وهنا، خرَق عيَّار جلال الصّمت بتلعثمٍ مضحك، وصرخ واضعًا يديه على رأسه بافتعال الفزع: يا ربَّ السّماوات والأرض! ما هذه الخدعة البصريّة؟

أقسم أنَّني نمت بضع ساعاتٍ فقط، فكيف تقلَّص حجم قائدتنا هكذا؟

أخبروني بحقِّ الله، أهذه قدر أم أنَّ أحد الأشرار غسل فستانها بماءٍ ساخنٍ فانكمش حجمها بأكمله؟!

لم تجبه قدر، بل غمرتها عبرة مكتومة وهي تنظر لنظراتهم.

وفي تلك اللّحظة الفاصلة، لم تحتمل غسق هذا الذهول، انقشعت غيمتُها النورانيَّةُ وتجسَّدت بكلِّ ما أُوتِيت من جوهر الحنان واللّوعة الشّجيَّة.

ركضت نحوها كطيفٍ يطير شوقًا، وسبقت الجميع لتلقي بنفسها بأحضان قدر، وطوَّقتها بيديها السّحابيَّتين وعيناها تفيضان دمعًا غزيرًا من نورٍ يمتزج بملح دماء المعارك.

انفجر صدر غسق بنشيجٍ مروِّع، خنق صوتها وهي تضمُّ خصر قدر الصّغير، وتدفن رأسها في حشاها، وتشهق بعبراتٍ تزلزل قاعة البلور:

_قدر!

يا قطعةً من روحي، ويا رفيقة المدى... لم أهتمّ يومًا لعمركِ، ولا لثوبكِ الملكيِّ، بل أحببتُ براءة روحكِ الّتي دثَّرت عزلتنا.

لقد مِتُّ ببعدكِ ألفَ مرَّةٍ في هذا العام القاحل، وتمنَّيتُ لو أنَّ أنفاسي انطوتْ قبل أن تتركيني لبردِ الفراق.

انظري إليَّ.. لقد عدتِ، وعاد معكِ ربيع الجنان الّذي ذبل بنزوحكِ.

اقتربت قدر واحتضنت رأس غسق، وتلاقت الدّموع بالدّموع في مشهدٍ بعثر القلوب حبًّا وحزنًا، فغدت غسق هي الوطن الروحيَّ الأوحد لصديقتها الّتي حُرِمت لَمسة الوداد في عالم الملجأ.

حينها، رمى حيزوم كلَّ كبرياء فروسيَّته جانبًا، وتحوَّل الخوف في صدره إلى بركانٍ من الحنوِّ البالغ، تقدَّم نحوها بخطىً وادعة، وانحنى بقامته المهيبة، وبذراعيه العظيمتين، أحاط قدر باحتواءٍ مطلق، وضمَّها إلى صدره المَلحميِّ ضمَّةً كالعاصفة الدافئة، احتواءً نقيًّا كطهر السّماء، شعرت فيه قدر للمرَّة الأولى بأنَّ لها جدارًا لا ينهدم يحمي طفولتَها من غوائل الزّمن.

همس حيزوم قرب أذن قدر بصوتٍ تخشع له الجراح:

_لا تخافي يا توليبتي.. لقد تبدَّد عنك برد المنفى.

مهما كان عمركِ، فأنا هنا سوركِ، وحصنكِ الّذي سيعوِّضك عن كلِّ حرمانٍ عجاف.

عودي لبؤس البشر كلَّما شئت، لكنَّك ستجدينني هنا، أنتظرك كلَّ ميلادٍ كي لا تكوني وحيدةً بعد اليوم.

مسح عيَّار دمعةً حقيقيَّةً طفرت من عينيه، ثمَّ تنحنح ليعيد للمكان صخبه المرح وهو يبتسم قاطِعا هيبة الوجع:

_حسنًا يا رفاق، بما أنَّ الملكة أصبحت طفلة، وغسق قرَّرت مباغتتنا بفيضان الدّموع هذا، فأنا أطالب فورًا ببدء الاحتفال، ولن يمنعني أحد اليوم من التهام وعاء الشّوكولاتة بأكمله نكايةً بكلِّ الأحزان العتيقة!

وما إن تلاشت نبرةُ عيار السّاخرة في أثير القاعة، حتّى خيم على خشخشة البلور سكونٌ مَهيب، وتهادت أنفاس الجنان تداعب خصلات "قدر" المبتورة بأسى صامت يُدمي فؤاد الأزل.

نظرت غسق في وجه قدر الغضّ، وامتدت كفُّها الهلامية السحابية تمسح مَجرى دمعةٍ عصيّة استقرّت على وجنتها، ثمّ شاخت ببصرها نحو الأفق حيث ينساب نهر اللّبن المترقرق، يتهادى بين غيوم الرّواق كجدول من لُجينٍ مُذاب ينضخ بنور البكارة الأولى.

انحنت غسق برفقٍ يفيض حنانًا، وهمست بصوت كهديل الحمام في فجرٍ شتويٍّ ساكن:

_قدر... يا نبض عوالمنا ونبراس ليلها المعتكف، إنّ هذا الجسد الغضّ ابن الخمس عشرة سنة قد حمل من وعثاء الدّنيا ما تئنّ تحت ثقله الجبال الشّامخات، بيد أنّ ثرى الجنان الأقدس لا يرتضي لملكته أن تظل رهن النّقصان الّذي كبّلها به عالم البشر القاحل.

انظري يمنة النّقاء... حيث يركض نهر الصّفاء، اشربي منه رشفة، ودعي الجنان تعيد صياغة ما بترته يد الأيام من بهائكِ الأثير.

التفت حيزوم بنظراته المهيبة، الّتي تمازج فيها وقارُ الفارس، وأومأ برأسه واضعًا كفّه على مقبض سيفه، وقال بنبرة تخشع لها جراح الفؤاد:

_قدري... نهر الجنان العذب يستحثّ خطاكِ، ينتظر نداءكِ ليعيد للتّاج سُلطانه، وللأجنحة مداها الملحميّ الخالد، فامضي صوبَه لتستردي المدى الأرحب الذي خُلِق طوعًا لأجلكِ.

سارت قدر بخطى وئيدة، تتأرجح في مشيتها بين وجل الطفولة وكبرياء الملكة المنشودة.

وعند حافة النهر السّاحر، جثت على ركبتيها الصّغيرتين، ورنت إلى ملامحها الشّاحبة المنعكسة على صفحة اللّبن الرّقراق؛ فإذا بالمرآة تفيض براءةً وعتبًا مخبوءًا على زمنٍ مضى وجار.

كفكفت دمعها قبل الهطول، ومدّت كفّيها المضمومتين لتغرف من ذلك اللّبن السّماويّ الأسمى، وما إن لامست الرّشفةُ الأولى ثغرَها الظّامئ، حتّى تفتّقت بوّاباتُ المعجزة البرزخيّة، إذ سرت في عروقها النّحيلة جَذوة ضوئيّة دافئة، وانبجست من جوارحها هالة بنفسجيّة عاصفة جلت ما بقي من عتمة الملجأ المظلم.

تمدد قوامها الضّئيل بمرونة قدسيّة كأنّما تُخلق من طينة النّور، فتأنّقت تقاطيع وجهها بملامح ابنة العشرين الكسيرة الشامخة في آن واحد.

وتحت وطأة هذا الضّياء المتفجّر، انحلّ قيد شعرها المبتور؛ فراح ينبت كأغصان كرمة بريّة استيقظت في ربيع باكر، يتدفق شلّالًا أسود داكنًا ينساب بتموّجات مذهلة حتّى تجاوز خصرها، منضوحًا بأريج الياسمين النديّ، لتستوي أمامهم كملكة ذات الاثنين والعشرين ربيعًا، بثوبها المنسوج من حرير السّماء وقد استعاد بريقه الملكيّ الآسر.

تسمّرت الأبصار، وانعقدت الألسن أمام هذا الجمال، حتّى اخترق عيّار الصّمت بصرخة مصطنعة من غيظه، واضعًا يديه على خصره وقال متذمّرًا بنبرة مرحة:

_سحقًا للحظّ العاثر!

تبًّا لكِ يا قدر، ألم تجدي ميقاتًا لتكبري فيه سوى هذه اللّحظة؟!

أقسم أنّني كنتُ أضمر النّيّة للتنمّر عليكِ طوال السّهرة، بل وعقدتُ رهانًا سرّيًّا مع نفسي لخوض مبارزة بالسّيوف الخشبيّة ضدّكِ!

وكنتُ سأضمن الفوز السّاحق دون أدنى شك، فأنا أربى عليكِ سنًّا وأعظم حجمًا، كيف أبارزكِ الآن وأنتِ تملكين هذا الطّول الملحميّ وشعركِ هذا الّذي كاد يفرش القاعة؟!

لقد أفسدتِ خطّتي تمامًا!

علت وجه قدر ابتسامة واثقة، وأشاحت بخصلات شعرها الفاحم وراء ظهرها، وردّت بنبرة متهكّمة تمازحه:

_حجم القوّة يا عيّار لا يقاس بأعوام تُضاف إلى عمرك، فالسّنين زبد تذروه الرّياح...

القوّة الحقيقيّة تكمن في يقينك الكامن بذاتك، وقدرتك على ترويض ضعفك ومقارعة خصمك بذكائك الحادّ، لا بضخامة بنيتك.

لو بارزتني وأنا طفلة، لهزمتُ كبرياء فروسيتك بنصف حيلة طفولية!

انفجرت غسق بضحكة عذبة انقشعت معها بقايا غيوم الحزن، وقالت وهي تغمز عيار:

_مسكين أنت يا عيّار، تبتغي نصرًا رخيصًا على طفلة، فتفاجئك العنقاء بكامل جوانحها... قويّة شامخة!

تنحنح حيزوم بابتسامة وقال موجّهًا حديثه لعيّار:

_كفاك هراءً يا حارس المغامرات، فملكتنا استعادت عرشها وعمرها، وأظنّ أنّ وعاء الشّوكولاتة الّذي تبتغيه سيبدو ضئيلًا جدًّا أمام ذكائها الّذي سيحرمك منه إن لم تحسن وفادتها.

قالت قدر وهي تنظر إليهم بعينين عسليّتين تشعّان بالطّمأنينة، وقد شعرت لأوّل مرّة بأنّ وطنها الروحيّ قد اكتملت فصوله:

_حسنًا يا رفاق، بما أنّ كفّتي تساوت معكم في العوالم والأعمار...

أين هو الاحتفال؟

فالجنان لا تليق بها العزلة، والملكة لا تكتمل إلا بوجود عائلتها حولها.

وهكذا، انزاحت غيابةُ الأسى عن سماء "قدر"، لتستحمَّ براءتُها في لُجّة واقعٍ فُصِّل على مقاس نقائها؛ فما كانت تلك المعجزةُ إلا الحصادَ الوفير لسنابلَ صبرٍ أينعت في هجير الحرمان، واللّقيا المقدسة لعائلةٍ لطالما خبّأتها بين جفونها كحلمٍ أثير.

اليوم، وبعد أن ألقت رحى اليتم أوزارها، وتلاشت غصّاتُ السّنين، بدأت رئتاها تتجرّعانِ أوكسجين الهوى، منضوحًا بأريج الطّمأنينة.

لقد غدت بحقٍّ تلك المُنشودةَ الّتي تهفو إليها الأبصار، وهي الّتي ما برحت تجمعُ بين طيّاتِ فؤادِها حصادًا لغويًّا باذخًا، ووجدانًا مثقّفًا متوّجًا بأنوار المعارف الدّينيّة، وخلفيّةً حضاريّةً جعلت من وعيها أثيرًا يفوقُ في جلاله كل ما اختبرتْه البسيطةُ من تجارب.

في هذه اللّحظة السرمديّة، دكّت الملكةُ حصونَ وحشتِها، معلنةً الفتحَ الأعظم على جيوشِ العزلة، فكسرت أصفادَ دار الأيتام الّتي حاصرت طفولتَها، وانعتقت روحُها لتخلُدَ في فردوسِ الجنان.

هناك... حيث لا مكانَ للوحشة، التقت برفاقٍ صاغوا من حُبهم دروعًا لحمايتها، وحبيبٍ استحال صَدَفًا دافئًا يحتضن لؤلؤة قلبِها الكسير، وصديقةٍ ولدت من مخاضِ السّحاب، تعتصرها بين أضلعها برفقٍ أثير كعناقِ النّدى للبتلات، لتطوى رقعة الشّقاء وتولد في أفق الجنان أسطورةُ الخلود.

"الخاتمة"

الآن تنجلي الغواشي عما بَطن، وينتصرُ النّقاءُ ولو بعد حين، فما كان اليتمُ إلا مَخاضًا لولادةِ ملكة، وما كان الحرمانُ إلّا صقلًا لجوهرِ الصّبرِ في مكامنه.

إنّ الجنان لا تفتحُ بوّاباتِ خُلودِها إلّا للّذين عُجِنوا بماءِ الطُّهر، وذاقوا مرارةَ الطّين، فظلّت أرواحُهم تحلّقُ في مَداراتِ اليقين.

صُبّت الكأسُ، واكتملت الأقدار، فسلامٌ على مَن صبرت حتّى جثَتِ الأيّامُ بين كفّيها، واستحال شقاؤُها ترتيلًا يتردّدُ في أروقةِ الأزل.

تمّت بحمد الله

الكاتبة: سارة بدور عكّام



http://whatsapp.com/channel/0029VadmrpuEFeXiO0wTLe0a

ماذا لو كان القدر كتاباً، وكانت النهايات مجرّد حبرٍ ينتظر يداً تجرؤ على تغييرها؟

في حياةٍ لم تمنحها إجاباتٍ بقدر ما أغرقتها بالأسئلة، تجد «قدر» نفسها أمام عالمٍ لم تعرف بوجوده، وأسرارٍ ظنّت أنّها دُفنت مع الماضي.

عالمٌ معلقٌ على حافة السماء، تتكلّم فيه الغيوم، وتُخفي الكتب لعناتٍ لا يجرؤ أحدٌ على لمسها، وتُكتب فيه المصائر بحروفٍ لا تشبه ما عرفه البشر.

لكنّ قدر ليست كغيرها؛ فثمة كتبٌ تخضع ليديها، وأسرارٌ لا تنكشف إلا لها، ومهمّةٌ قد يتوقّف عليها مصير عالمٍ بأكمله.

بين حقيقةٍ تلاحقها، وماضٍ يرفض أن يُدفن، ووقتٍ يتناقص، تبدأ رحلةٌ لا تبحث فيها عن النجاة وحدها، بل عن الحقيقة الكامنة خلف كل ما ظنّت أنّها تعرفه.

فهل يستطيع الإنسان أن يغيّر ما كُتب له؟

أم أنّ للقدر وجهاً آخر لا يظهر إلا حين نجرؤ على مواجهته؟.

تأليف: سارة عكّام
إعداد وتنسيق وتصميم: أ. سارة عكّام